

لجماعة من العلماء

المجموعة الثالثة

المكتب الإسلامي

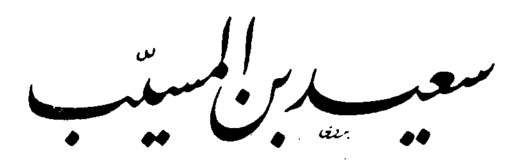



رسائل مسجد الجامعة

الطبعة الأولى
١٣٧١ وما بعدها = ١٩٥١ وما بعدها دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ . ١٩٨٥ م . بيروت

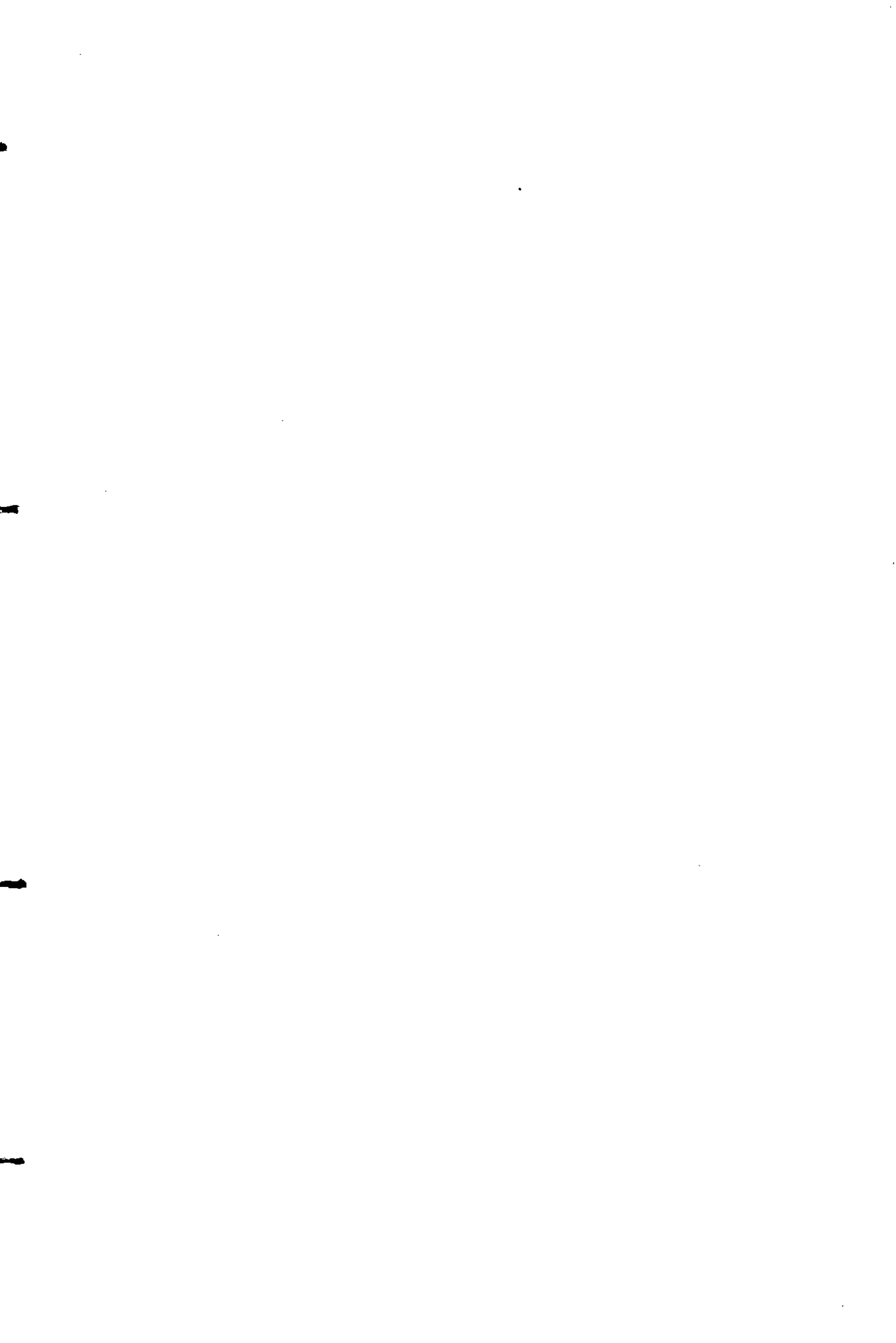
المكتب الاسلامي
بيروت : ص . ب ١١/٣٧٧١ ـ هاتف ٤٥٠٦٣٨ ـ برقياً : اسلاميا
دمشق : ص . ب ٨٠٠ ـ هاتف ١١١٦٣٧ ـ برقياً : اسلامي

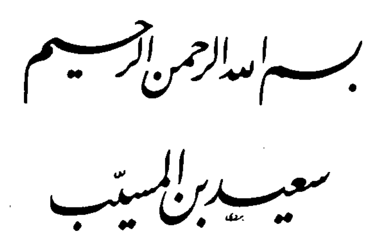


للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

جمادى الأولى ١٣٨٣





٩٤ - ١٣

٧١٣ - ٦٣٤

١ - نسبه وسنه

أبو محمد سعيد بن المسيّب بن حزن (بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران) بن مخزوم.

وأمه أم سعيد بنت حكيم بن أمية السلمي.

ولد - كما ترجح لدى الواقدي - لسنتين خلتا من خلافة عمر، وعاش حتى قارب الثمانين.

٢ - علمه

شُغف بالعلم وحرص عليه : كان يقول : إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد.

درجة عالية، وشهادة قاطعة : وكان يفتي رسول الله ﷺ أحياء.

تحدث بنعمة وفضل من الله كبير : حدث من سمع سعيداً

يقول : ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر مني.

من أسباب علمه : أساتذة عظام : سئل الزهري : عمن أخذ سعيد بن المسيّب علمه؟ فقال : عن زيد بن ثابت، وجالس سعد بن أبي وقّاص وابن عباس وابن عمر، ودخل على أزواج النبي ﷺ عائشة وأم سلمة، وكان قد سمع من ابن عفان وعلي وصهيب ومحمد بن مسلمة، وجل روايته المسندة عن أبي هريرة، وكان زوج ابنته.

من الأسباب أيضاً : ذاكرة مدهشة : عن عمران بن عبدالله الخزاعي قال : سألني سعيد بن المسيّب فانتسبت له، فقال : لقد جلس أبوك إليَّ في خلافة معاوية فسألني عن كذا وكذا فقلت له كذا وكذا.

يقول عمران : والله ما أراه مرَّ على اذنه شيء قط إلا وعاه قلبه.

٣ ـ سعيد وتعبير الرؤيا

علم وفهم وفطنة : عن عمر بن حبيب قال : كنت جالساً عند سعيد بن المسيّب يوماً وقد ضاقت عليّ الأشياء ورهقني دين فجلست إلى سعيد بن المسيّب ما أدري أين أذهب، فجاءه رجل فقال : يا أبا محمد إني رأيت رؤيا، قال ؛ ما هي؟ قال : رأيت كأني أخذت عبد الملك بن مروان فأضجعته إلى الأرض ثم بطحته فأوتدت في ظهره أربعة أوتاد. قال : ما أنت رأيتها، قال بلى أنا

رأتهـا، قال: لا أخبـرك أو تخبرنـي، قال: ابـن الزبـير رآها وهوبعثني إليك. قال: لئن صدقت رؤياه قتلـه عبـد الملك بن مروان وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال عمر بن حبيب: فدخلت إلى عبد الملك بن مروان بالشام فأخبرته بذلك عن سعيد بن المسيّب، فسره، وسألني عن سعيد وعن حاله فأخبرته، وأمر لي بقضاء دينين، وأصبت منه خيراً.

وقال له رجل: رأيت في النوم كأن أسناني سقطت في يدي ثم دفنتها، فقال سعيد: إن صدقت رؤياك دفنت أسنانك من أهل بيتك.

وجاءه رجل فقال: إني أراني أبول في يدي، فقال: اتق الله فإن تحتك ذات محرم، فنظر فاذا امرأة بينها وبينه رضاع.

وجاءه آخر فقال: يا أبا محمد إني أرى كأني أبول في اصـل زيتونة، قال: انظر من تحتك، تحتك ذات محرم، فنظر فإذا امرأة لا يحل له نكاحها.

وقال له رجل: إني رأيت حمامة وقعـت على المنـارة، منـارة المسجد، فقال: يتزوج الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب.

وجاء رجل إلى ابن المسيب فقال: إني أرى أن تيساً أقبل يشتد من الثنية. فقال: اذبح اذبح، قال: ذبحت. قال: مات ابن أم صلاء. فما برح حتى جاءة الخبر أنه قد مات. وكان ابن أم صلاء رجلاً من موالي أهل المدينة يسعى بالناس.

وقال رجل من فهم لابن المسيب أنه يرى في النوم كأنه يخوض النار فقال : إن صدقت رؤياك لا تموت حتى تركب البحر وتموت قتلاً. فركب البحر فأشفى على الهلكة، وقتل يوم قديد بالسيف.

وعن أحد بني نوفل بن عدي بن خويلد قال : طلبت الولد فلم يولد لي، فقلت لابن المسيب : إني أرى أنه طرح في حجري بيض. فقال ابن المسيب : الدجاج عجمي فاطلب سبباً إلى العجم، قال فتسريت فولدلي وكان لا يولد لي.

وكان يقول : التمر في النوم رزق على كل حال، والرطب زمانه رزق.

وكان أيضاً يقول : آخر الرؤيا اربعون سنة، يعني في تأويلها.

٤ ـ عزته وصلابته

ثبات حين هلع الناس، وحرص على الجماعة : عن أبي حازم قال : سمعت ابن المسيب يقول : لقد رأيتني ليالي الحرة وما في المسجد أحد من خلق الله غيري. وإن أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون : أنظروا إلى هذا الشيخ المجنون، وما يأتي وقت صلاة إلا سمعت أذاناً في القبر ثم تقدمت فأقمت فصليت، وما في المسجد أحد غيري.

لَسْتَ من حداثه : وعن ميمون بن مهران قال : قدم عبد الملك بن مروان المدينة فامتنعت منه القائلة واستيقظ، فقال

لحاجبه : انظر هل في المسجد أحد من حُدَّاثنا من أهل المدينـة؟ فخرج فإذا سعيد بن المسيب في حلقة له، فقام حيث ينظر إليه ثم غمزه وأشار إليه بإصبعه، ثم ولى، فلم يتحرك سعيد ولم يتبعه، فقال : ما اراه فطن، فجاءه فدنا منه ثم غمزه وأشار إليه وقال : ألم ترني أشـير إليك؟ قال: ومـا حاجتـك، قال: استيقـظ امير المؤمنين فقال انظر في المسجـد أحـداً من حداثـي، فأجـب أمـير المؤمنين. فقال : ارسلك إليّ ؟ قال : لا ولكن قال اذهب فانظر بعض حداثنا من أهل المدينة فلم أر أحداً أهيأ منك. فقال سعيد اذهب فأعلمه اني لست من حداثه. فخرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ إلا مجنوناً. فأتـى عبـد الملك فقـال له : ما وجدت في المسجد إلا شيخاً أشرت إليه فلم يقم فقلت له : إن أمير المؤمنين قال : انظر هل ترى في المسجـد أحـداً من حداثـي فقال : إني لست من حداث امير المؤمنين، وقال لي : اعلمه فقال عبد الملك : ذاك سعيد بن المسيّب فدعه.

ترفع عن الرغبة والرهبة : وعن عمران بن عبد الله الخزاعي قال : حج عبد الملك بن مروان فلما قدم المدينة فوقف على باب المسجد ارسل إلى سعيد بن المسيّب رجلاً يدعوه ولا يحركه فأتـاه الرسول وقـال : أمـير المؤمنـين واقف بالبـاب يريد أن يكلمـك فقال : ما لأمير المؤمنين إليّ حاجة وما إلي إليه حاجة، وإن حاجته إليّ لغير مقضية. فرجع الرسول إليه فأخبره فقال : ارجع إليه فقل إنما اريد أن أكلمك، ولا تحركه، فرجع إليه فقال له : اجب امير

المؤمنين، فقال لهسعيد: ما قال له أولاً فقال له الرسول : **لولا أنه تقدم إليّ فيك ما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك تقول مثل هذه المقالة؟** فقال : **إن كان يريد أن يصنع بي خيراً فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك فلا أحل حبوتي حتى يقضي ما هو قاض.** فأتاه فأخبره فقال : رحم الله أبا محمد، أبى إلا صلابة.

تكبر على أهل الكبر : لما استخلف الوليد بن عبد الملك قدم المدينة فدخل المسجد فرأى شيخاً قد اجتمع الناس عليه. فقال : من هذا؟ فقالوا : سعيد بن المسيّب. فلما جلس أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال : أجب أمير المؤمنين. فقال : لعلك أخطأت باسمي أو لعله أرسلك إلى غيري. فأتاه الرسول فأخبره، فغضب وهم به. وفي الناس يومئذ بقية، فأقبل عليه جلساؤه فقالوا : يا أمير المؤمنين فقيه أهل المدينة وشيخ قريش وصديق أبيك لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه، فما زالوا به حتى انفض عنه.

٥ ـ عبادته واتباعه

من استطاع فليلحق : روي عنه أنه قال : حججت أربعين حجة. وعنه أنه قال: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة ـ لمحافظته على الصف الأول ـ وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة.

حرص أهل الجنة على الجماعة : اشتكى سعيد بن المسيب

عينه، فقالوا له : لو خرجت يا أبا محمد إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة لوجدت لذلك خفة، قال : فكيف اصنع بشهود العتمة والصبح؟

شوق الى الدخول من الريان : وكان سعيد بن المسيب يصوم الدهر.

تعاهد لأخلاق الاسلام : عن عاصم بن عباس الأسدي قال : رأيت سعيد بن المسيب لايدع ظفره يطول، رأيت سعيداً يحفي شاربه شبيهاً بالحلق، ورأيته يصافح كل من لقيه، ورأيت سعيداً يكره كثرة الضحك، ورأيت سعيداً يتوضأ كلما بال، وإذا توضأ شبك بين أصابعه.

قصة زواج : وعن عمران بن عبد العزيز الخزاعي قال : زوّج سعيد بن المسيب بنتاً له من شاب من قريش ـ على درهمين ـ فلما امست قال لها : شدي عليك ثيابك واتبعيني. فشدت عليها ثيابها، ثم قال لها : صلي ركعتين، فصلت ركعتين وصلى هو ركعتين، ثم ارسل إلى زوجها فوضع يدها في يده وقال : انطلق بها، فذهبت بها إلى منزله، فلما رأتها امه قالت: من هذه؟ قال: امرأتي ابنة سعيد بن المسيب دفعها إليَّ، قالت ، فإن وجهي من وجهك حرام إن افضيت إليها حتى أصنع بها صالح ما يُصنع بنساء قريش، فدفعها إلى امه فأصلحت إليها ثم بنى بها.

وابنة سعيد هذه هي التي كان عبد الملك بن مروان قد خطبها

اليه لولي عهده الوليد بن عبد الملك ومنّاه إن قبل وهدده إن أبى، ولكنه أبى وزوجها لطالب العلم الفقير [1].

٦ ـ ورعه وزهده

من يستطيع هذا : عن عمران بن عبد الله الخزاعي قال : كان سعيد بن المسيب لا يخاصم أحداً ولو أراد انسان رداءه رمى به اليه.

تقشف وفطنة وبعد نظر : عن ابي امية مولى بني مخزوم قال : صنعت ابنة سعيد بن المسيب طعاماً كثيراً حين حبس فبعثت به اليه، فلما جاءه الطعام دعاني سعيد فقال : إذهب إلى ابنتي فقل لها لا تعودي لمثل هذا أبداً، فهذه حاجة هشام بن اسماعيل (أمير المدينة)، يريد أن يُذهب مالي فأحتاج إلى ما في ايديهم، وأنا لا أدري ما أحبس، فانظري إلى القوت الذي كنت آكل في بيتي فابعثي إلي به، فكانت تبعث اليه بذلك.

يدعو على أعداء الاسلام لا على من ظلمه : قيل لسعيد بن المسيب ادع على بني امية، فقال : اللهم أعز دينك وأظهر اولياءك واخز اعداءك في عافية لأمة محمد ﷺ.

زهد حتى في راتبه : وكان لسعيد بن المسيب في بيت المال بضعة وثلاثون ألفاً عطاءه. فكان يدعى اليها فيأبى ويقول : لا حاجة لي فيها حتى يحكم الله بيني وبين بني مروان.

(١) (وانظر تمام الخبر في وحي القلم : الجزء الأول صفحة ٢٦ أو في رجال من التاريخ صفحة ٨٦).

٧ ـ أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر

مصلح اجتماعي : عن ابن حرملة قال : خرجت إلى الصبح فوجدت سكراناً فلم ازل أجره حتى أدخلته منزلي. قال : فلقيت سعيد بن المسيب فقلت : لو أن رجلاً وجد سكراناً أيدفعه إلى السلطان فيقيم عليه الحد؟ فقال لي : إن استطعت أن تستره بثوبك فافعل. قال : فرجعت إلى البيت فاذا الرجل قد افاق، فلما رآني عرفت فيه الحياء فقلت : أما تستحي؟ لو أُخذت البارحة لحددت فكنت بين الناس مثل الميت لا تجوز لك شهادة، فقال : والله لا أعود له ابداً. قال ابن حرملة : فرأيته قد حسنت حاله بعد.

بالاخلاص والدعوة تستجاب الدعوة : حدث عليّ بن زيد قال : قال لي سعيد بن المسيب قل لقائدك يقوم فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فانطلق فنظر فاذا رجل اسود الوجه، فجاء فقال : رأيت وجه زنجي وجسده ابيض. فقال : إن هذا سب هؤلاء الرهط طلحة والزبير وعلياً فنهيته فأبى فدعوت عليه فقلت : إن كنت كاذباً فسوّد الله وجهك. فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه.

٨ ـ ما قيل فيه

شهادة عظيم لعظيم : قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

لرجل سأله عن مسألة : ائت ذاك فسله، يعني سعيداً، ثم ارجع إليّ فأخبرني، ففعل ذلك وأخبره. فقال : ألم أخبرك أنه احد العلماء؟ وقال ايضاً في حقه لأصحابه : لو رأى هذا الرسول ﷺ لسرّه.

شهادة امامين جليلين : وسئل الزهري ومكحول : من أفقه من أدركتما؟ فقالا : سعيد بن المسيب. مرجعٌ في المعضلات. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إذا سئل عن الشيء يشكل عليه قال : سلوا سعيد بن المسيب فإنه قد جالس الصالحين.

شهادة عالم كبير : وعن ميمون بن مهران قال : أتيت المدينة فسألت عن أفقة أهلها فدُفعت إلى سعيد بن المسيب فسألته.

شهادة الخليفة العالم الصالح : كان عمر بن عبد العزيز يقول : ما كان بالمدينة عالم إلا يأتيني بعلمه، وأوتي بما عنده سعيد بن المسيب. وكان لا يقضي بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب، فأرسل عمر اليه إنساناً يسأله فدعاه فجاءه حتى دخل، فقال عمر : أخطأ الرسول، إنا ارسلناه يسألك في مجلسك.

شهادة كبار المؤرخين : في الطبقات الكبرى لابن سعيد : قالوا وكان سعيد بن المسيّب جامعاً، ثقةً، كثير الحديث ثبتاً، فقيهاً، مفتياً، مأموناً، ورعاً، عالياً رفيعاً.

وجاء في وفيات الأعيان لابن خلّكان : سعيد بن المسيّب أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، سيد التابعين، من الطراز الأول جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع.

٩ ـ بعض كلامه

كان يقول : ما أعزَّت العباد نفسها بمثل طاعة الله ، ولا أهانت نفسها بمثل معصية الله .

وكان يقول : لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكارٍ من قلوبكم لكي لا تحبط أعمالكم .

وقيل له : ـ وقد نزل الماء في عينه ـ : ألا تقدح عينك؟ قال : حتى على من أفتحها؟

وقال : قلة العيال أحد اليسارين. وكان يقول : لا تقولن مصيحف ولا مسيجدو لكن عظموا ما عظم الله ، كل ما عظَّم الله فهو عظيم حسن .

وقال برد مولى ابن المسيّب لسعيد بن المسيّب : ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء؟ قال سعيد : وما يصنعون؟ قال : يصلي أحدهم الظهر ثم لا يزال صافاً رجليه يصلي حتى العصر. فقال سعيد : ويحك يا برد، أما والله ما هي بالعبادة، تدري ما العبادة؟ إنما العبادة التفكر في أمر الله والكف عن محارم الله .

هدى الإسلام في تشييع الجنازة : عن سعيد بن المسيّب قال : أوصيت أهلي إذا حضرني الموت بثلاث : ألاّ يتبعني راجز، ولا نار، وأن يعجل بي فإن يكن لي عند ربي خير فهو خير مما عندكم .

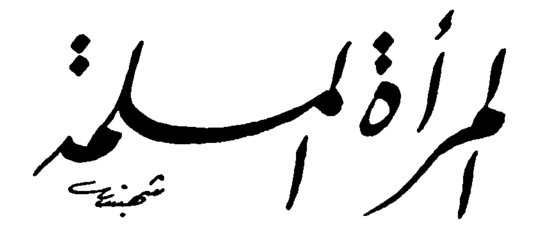
لا يغني الطلاء عن الأساس : لما اشتكى سعيد بن المسيّب واشتد وجعه دخل عليه نافع بن جبير بن مطعم يعوده، فأغمي

عليه فقال نافع : وجهوا فراشه إلى القبلة ففعلوا. فأفاق فقال : من أمركم أن تحوِّلوا فراشي إلى القبلة، أنافع بن جبير أمركم؟ فقال نافع : نعم، فقال له سعيد : لئن لم أكن على القبلة والملة لا ينفعني توجيهكم فراشي.

ومات سعيد بالمدينة سنة أربع وتسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها.

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



بقلم

الإمام الشهيد حسن البنا

جمادى الثانية ١٣٨٣

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ؛ نحمده ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ؛ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم الَّذي خَلَقكم من نَفْسٍ واحدةٍ . . وخلق منها زوجها . . وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . . واتَّقوا الله الذي تَسَاءَلونَ به والأرحام إنَّ الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١)

أما بعد : فإننا نمر اليوم بمرحلة خطيرة، يتجدد فيها ويتطور كل شيء من مقوماتنا الروحية والاجتماعية والاقتصادية . . وما لم يكن هذا التطور على أسس سليمة مأمونة، فإننا نخشى أن يتولى التقليد الأعمى زماننا، وتقودنا الرغبات الهوجاء إلى فوضى لا يصلح معها خلق، ولا يستقر عليها وضع اجتماعي فاضل.

وفي زحمة التطور، وتدافع المبادىء والآراء يتردد ذكر المرأة ؛ هل لها أن تتعلم؟ وماذا تتعلم؟ وهل تزاحم الرجل، وتلاصق الفتى في

(١) النساء : ١

مقاعد الدرس وقاعات المحاضرة؟ وهل لها أن تشتغل بالتجارة؛ والطب؛ والمحاماة؛ والصيدلة وغيرها من المهن الحرة؟ وهل لها مكان بين مناصب الجيش والقضاء ومختلف وظائف الحكومة؟ وهل لها أن تدخل البرلمان وتضطلع بأعباء النيابة عن الأمة؟

وهل للزوجة أن تخرج من البيت بغير إذن زوجها؟ وهل لها أن تخرج إلى الأسواق والمنتزهات والمسارح ودور السينما؟ وهل هناك مساواة بين الرجل والمرأة، أولا بد أن يذهب أحدهما بما ليس للآخر أن يذهب به؟

يدور النقاش حول ذلك كله وسواه مما يدخل في هذا النطاق، كشؤون الخطبة؛ والمهر؛ وتحديد النسل؛ وأهلية المرأة للتصرف في مالها الخاص.. الخ، ويذهب المتخاصمون في ذلك مذاهب شتى. فمنهم من يرى التحلل من قيود العرف والدين والعادات الموروثة، لينطلق الفتى والفتاة كل مع هواه بلا رابطمن عرف، ولا وازع من دين.

ومنهم من يرى ترك الأمر لطبيعة الظروف، فهي التي تعدّل من أوضاعنا ما تشاء وفق ما تدعو إليه ضرورات الحياة الجديدة التي تتحول بالتدريج إليها.

ومنهم من يرى أن يضبطذلك التحول بأصول الدين الحنيف، وقواعده المرنة، التي تستجيب لمقتضيات التطور الطبيعي في كل عصر، لا لمقتضيات الهوى الطائش، والرغبة الحمقاء.

وهذه رسالة « المرأة المسلمة » التي كتبها الإمام الشهيد حسن

البنّا رحمه الله تعالى وجعل الجنة مثواه، وقد حوت بين أسطرها واجب المرأة في نظر الإسلام، وموقفها من الرجل في نظر الشريعة السمحة التي بينت :

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِنْ ذكرٍ وأُنثى، وجَعلناكم شُعوباً وقبائلَ لتعارفوا. إنَّ أكْرَمَكم عند الله أتْقاكم ﴾ [1].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وَهو مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بِأحسَنِ مَا كانوا يَعْمَلُون ﴾ [2].

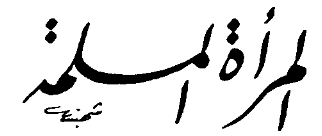
نسأل الله عز وجل أن يجنبنا الزلل، وأن يوفقنا إلى ما فيه الخير، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يسدد خطانا، إنه سميع مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

لجنة المسجد

---

(١) الحجرات : ١٣

(٢) النحل : ٩٧



كتب إليّ كاتب فاضل يطلب أن أكتب عن المرأة وموقفها من الرجل وموقف الرجل منها، ورأي الإسلام في ذلك، وحث الناس على التمسك به والنزول على حكمه.

لست أجهل أهمية الكتابة في موضوع كهذا، ولا انتظام شأن المرأة في الامة، فالمرأة نصف الشعب، بل هي النصف الذي يؤثر في حياته أبلغ التأثير؛ لأنه المدرسة الاولى التي تكوّن الاجيال وتصوغ الناشئة، وعلى الصورة التي يتلقاها الطفل من أمه يتوقف مصير الشعب واتجاه الامة، وهي بعد ذلك المؤثر الاول في حياة الشباب والرجال على السواء.

لست أجهل كل هذا، ولم يهمله الإسلام الحنيف وهو الذي جاء نوراً وهدى للناس ينظم لهم شؤون الحياة على أدق النظم وأفضل القواعد والنواميس.. أجل لم يهمل الإسلام كل هذا، ولم يدع الناس يهيمون فيه في كل واد، بل بين لهم الامر بياناً لا يدع زيادة لمستزيد.

وليس المهم في الحقيقة أن نعرف رأي الاسلام في المرأة والرجل، وعلاقتهما وواجب كل منهما نحو الآخر؛ فذلك أمر يكاد يكون

معروفاً لكل الناس. ولكن المهم أن نسأل أنفسنا هل نحن مستعدون للنزول على حكم الإسلام؟

الواقع أن هذه البلاد وغيرها من البلاد الإسلامية تتغشاها موجة ثائرة قاسية من حبّ التقليد الاوروبي والانغماس فيه إلى الأذقان.

ولا يكفي بعض الناس أن ينغمسوا هذا الانغماس في التقليد، بل هم يحاولون أن يخدعوا أنفسهم بأن يديروا أحكام الاسلام وفق هذه الأهواء الغربية والنظم الاوروبية ويستغلوا سماحة هذا الدين ومرونة أحكامه استغلالاً سيئاً يخرجها عن صورتها الإسلامية إخراجاً كاملاً، ويجعلها نظما أخرى لا تتصل به بحال من الاحوال، ويهملون كل الاهمال روح التشريع الاسلامي، وكثيراً من النصوص التي لا تتفق مع أهوائهم.

هذا خطر مضاعف في الحقيقة، فهم لم يكفهم أن يخالفوا، حتى جاؤوا يتلمسون المخارج القانونية لهذه المخالفة، ويصبغوها بصبغة الحلّ والجواز حتى لا يتوبوا منها ولا يقلعوا عنها يوماً من الايام.

فالمهم الآن أن ننظر الى الاحكام الاسلامية نظراً خالياً من الهوى، وأن نعد أنفسنا ونهيئها لقبول أوامر الله تعالى ونواهيه؛ وبخاصة في هذا الامر الذي يعتبر أساسياً وحيوياً في نهضتنا الحاضرة.

وعلى هذا الأساس لا بأس بأن نذكر الناس بما عرفوا، وبما يجب أن يعرفوا من أحكام الاسلام في هذه الناحية.

أولاً : الإسلام يرفع قيمة المرأة ويجعلها شريكة الرجل في الحقوق والواجبات :

وهذه قضية مفروغ منها تقريباً؛ فالاسلام قد أعلى منزلة المرأة ورفع قيمتها واعتبرها أختاً للرجل وشريكة له في حياته، هي منه وهو منها « بعضكم من بعض » وقد اعترف الاسلام للمرأة بحقوقها الشخصية كاملة وبحقوقها المدنية كاملة كذلك وبحقوقها السياسية كاملة أيضاً، وعاملها على أنها إنسان كامل الانسانية له حق وعليه واجب يشكر إذا أدى واجباته ويجب أن تصل إليه حقوقه. والقرآن والاحاديث فياضة بالنصوص التي تؤكد هذا المعنى وتوضحه.

ثانياً : التفريق بين الرجل والمرأة في الحقوق إنما جاء تبعاً للفوارق الطبيعية التي لا مناص منها بين الرجل والمرأة، وتبعاً لاختلاف المهمة التي يقوم بها كل منهما، وصيانة للحقوق الممنوحة لكليهما :

وقد يقال إن الاسلام فرق بين الرجل والمرأة في كثير من الظروف والاحوال ولم يسوِّ بينهما تسوية كاملة، وذلك صحيح. ولكنه من جانب آخر يجب أن يلاحظ أنه إن انتقص من حق المرأة شيئاً في ناحية فإنه قد عوضها خيراً منه في ناحية أخرى، أو يكون هذا الانتقاص لفائدتها وخيرها قبل أن يكون لشيء آخر. وهل يستطيع

أحد كائناً من كان أن يدعي أن تكوين المرأة الجسماني والروحي كتكوين الرجل سواء بسواء..؟ وهل يستطيع أحد كائنا من كان أن يدعي أن الدور الذي يجب أن تقوم به المرأة في الحياة هو الدور الذي يجب أن يقوم به الرجل ما دمنا نؤمن بأن هناك أمومة وأبوة..؟

أعتقد أن التكوينين مختلفان وأن المهمتين مختلفتان كذلك، وإن هذا الاختلاف لا بد أن يستتبع اختلافاً في نظم الحياة المتصلة بكل منهما، وهذا هو سر ما جاء في الاسلام من فوارق بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات.

ثالثاً : بين المرأة والرجل تجاذب فطري قوي هو الاساس الاول للعلاقة بينهما، وأن الغاية منه قبل أن تكون المتعة وما إليها، هي التعاون على حفظ النوع واحتمال متاعب الحياة :

وقد أشار الاسلام إلى هذا الميل النفساني وزكاه وصرفه عن المعنى الحيواني أجمل الصرف إلى معنى روحي يعظم غايته ويوضح المقصود منه يسمو به عن صورة الاستمتاع البحت إلى صورة التعاون التام، ولنسمع قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَة ﴾ [1].

* * *

هذه هي الاصول التي راعاها الاسلام وقررها في نظرته إلى المرأة، وعلى أساسها جاء تشريعه الحكيم كافلاً للتعاون التام بين

(١) الروم : ٢١

الجنسين بحيث يستفيد كل منهما من الآخـر ويعينـه على شؤون الحياة.

والكلام عن المرأة في المجتمع في نظر الإسلام يتلخص في هذه النقط :

اولاً : وجوب تهذيب المرأة :

يرى الإسلام وجوب تهذيب خلق المرأة وتربيتها على الفضائل والكمالات النفسانية منـذ النشـأة، ويحـث الآبـاء وأولياء أمـور الفتيات على هذا، ويعدهـم عليه الثـواب الجـزيل من الله ويتوعدهم بالعقوبـة إن قصروا. وفي الآية الكريمـة : ﴿ يا أَيُّهـا الَّذين آمَنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْليكم نَاراً وَقُودُهَـا النَّـاسُ والحِجَـارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُـونَ مَا يُؤْمَرُون ﴾ [1].

وفي الحديث الصحيح « كلُّـكم راع ومسـؤولٌ عن رعيتـه : الإمام راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته، والرَّجل راع في أهله ومسـؤولٌ عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولـةٌ عن رعيتهـا، والخـادم راعٍ في مال سيده ومسـؤولٌ عن رعيتـه، وكلُّـكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيته » أخرجـه الشيخـان من حديث عبـدالله بن عمر. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلـمٍ له ابنتـان فيحسـنُ إليهما ما صحبتـاه أو صحبهما إلا أدخلتاهُ الجَنَّة » رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن حبان في صحيحه.

---

(١) التحريم : ٦

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهنَّ واتقى الله فيهنَّ فله الجنَّة » رواه الترمذي واللفظ له وأبو داود إلا أنه قال : « فأدبهن وأحسن إليهنَّ وزوجهنَّ فله الجنَّة » .

ومن حسن التأديب أن يعلمهن ما لا غنى لهن عنه من لوازم مهمتهن كالقراءة والكتابة والحساب والدين والتاريخ ـ تاريخ السلف الصالح رجالا ونساء ـ وتدبير المنزل والشؤون الصحية ومبادىء التربية وسياسة الأطفال وكل ما تحتاج إليه الأم في تنظيم بيتها ورعاية أطفالها، وفي حديث البخاري رضي الله عنه: « نِعم النّساء نساء الأنصار لم يمنعهنَّ الحياء أن يتفقهنَّ في الدِّين » وكان كثير من نساء السلف على جانب عظيم من العلم والفضل والفقه في دين الله تبارك وتعالى .

أما المقالات في غير ذلك من العلوم التي لا حاجة للمرأة بها فعبث لا طائل تحته، فليست المرأة في حاجة إليه وخير لها أن تصرف وقتها في النافع المفيد .

ليست المرأة في حاجة إلى التبحر في اللغات المختلفة .

وليست في حاجة إلى الدراسات الفنية الخاصة، فستعلم عن قريب أن المرأة للمنزل أولاً وأخيراً .

وليست المرأة في حاجة إلى التبحر في دراسة الحقوق والقوانين، وحسبها أن تعلم من ذلك ما يحتاج إليه عامة الناس .

كان أبو العلاء المعري يوصي بالنساء فيقول :

علموهـن الغـزل والنسـج والرد
ن [1] وخلـوا كتابـة وقراءة
فصـلاة الفتـاة بالحمـد والإخلا [2]
ص تجـزىء عن يونس وبراءة

ونحن لا نريد أن نقف عند هذا الحد، ولا نريد ما يريد أولئك المغالـون المفرطـون في تحميل المرأة مالا حاجـة لهـا به من أنـواع الدراسات، ولكنا نقول : علموا المرأة ما هي في حاجة إليه بحكم مهمتها ووظيفتها التـي خلقهـا الله لهـا : تدبـير المنـزل ورعـاية الطفل.

ثانياً : التفريق بين المرأة وبين الرجل :

يرى الإسلام في الاختلاط بين المرأة والرجل خطراً محققاً، فهو يباعد بينهما إلا بالزواج، ولهذا فإن المجتمـع الإسلامـي مجتمـع انفرادي لا مجتمع مشترك.

سيقول دعاة الاختلاط إن في ذلك حرمانـاً للجنسين من لذة الاجتماع وحلاوة الأنس التي يجدها كل منهما في سكونه للآخـر، والتي توجد شعوراً يستتبع كثيراً من الآداب الاجتماعية من الرقة وحسن المعاشرة ولطف الحديث ودماثة الطبع. الخ وسيقولون إن

(١) حياكة الملابس

(٢) الفاتحة وقل هو الله أحد

هذه المباعدة بين الجنسين ستجعل كلا منهما مشوقاً أبداً إلى الآخر، ولكن الاتصال بينهما يقلل من التفكير في هذا الشأن ويجعله أمراً عادياً في النفوس (وأحب شيء إلى الإنسان ما منعا) وما ملكته اليد زهدته النفس.

كذا يقولون ويفتتن بقولهم كثير من الشبان، ولاسيما وهي فكرة توافق أهواء النفوس، وتساير شهواتها، ونحن نقول لهؤلاء: مع أننا لا نسلم بما ذكرتم في الامر الأول، نقول لكم إن ما يعقب لذة الاجتماع وحلاوة الانس من ضياع الأعراض وخبث الطوايا وفساد النفوس، وتهدم البيوت، وشقاء الأسر، وبلاء الجريمة، وما يستلزمه هذا الاختلاط من طراوة في الأخلاق ولين في الرجولة لا يقف عند حد الرقة، بل هو يتجاوز ذلك إلى حد الخنوثة والرخاوة، وكل ذلك ملموس لا يماري فيه إلا مكابر.

كل هذه الآثار السيئة التي تترتب على الاختلاط تربو ألف مرة على ما ينتظر منه من فوائد، وإذا تعارضت المصلحة والمفسدة فدرء المفسدة أولى، ولاسيما إذا كانت المصلحة لا تعد شيئاً بجانب هذا الفساد.

أما الأمر الثاني فغير صحيح، وإنما يزيد الاختلاط قوة الميل، وقديماً قيل: إن الطعام يقوي شهوة النهم، والرجل يعيش مع امرأته دهراً، ويجد الميل إليها يتجدد في نفسه، فما باله لا تكون صلته بها مذهبة لميله إليها، والمرأة التي تخالط الرجال تتفنن في إبداء ضروب زينتها، ولا يرضيها إلا أن تثير في نفوسهم الإعجاب بها،

وهذا أيضاً أثر اقتصادي من أسوأ الآثار التي يعقبها الاختلاط، وهو الإسراف في الزينة والتبرج المؤدي إلى الافلاس والخراب والفقر.

لهذا نحن نصرح بأن المجتمع الإسلامي مجتمع فردي لا زوجي، وأن للرجال مجتمعاتهم وللنساء مجتمعاتهن، ولقد أباح الإسلام للمرأة شهود العيد وحضور الجماعة والخروج في القتال عند الضرورة الماسة، ولكنه وقف عند هذا الحد، واشترط له شروطاً شديدة : من البعد عن كل مظاهر الزينة، ومن ستر الجسم، ومن إحاطة الثياب به، فلا تصف ولا تشف، ومن عدم الخلوة بأجنبي مهما تكن الظروف وهكذا.

إن من أكبر الكبائر في الإسلام أن يخلو الرجل بامرأة ليست بذات محرم له. ولقد أخذ الإسلام السبيل على الجنسين في هذا الاختلاط أخذاً قوياً محكماً.

فالستر في الملابس أدب من آدابه.

وتحريم الخلوة بالأجنبي حكم من أحكامه.

وغض الطرف واجب من واجباته.

والعكوف في المنازل للمرأة حتى في الصلاة شعيرة من شعائره.

والبعد عن الإغراء بالقول والإشارة وكل مظاهر الزينة وبخاصة عند الخروج حد من حدوده.

كل ذلك إنما يراد به أن يسلم الرجل من فتنة المرأة وهي احب الفتن الى نفسه، وان تسلم المرأة من فتنة الرجل وهي أقربَ الفتن إلى قلبها، والآيات الكريمة والأحاديث المطهرة تنطق بذلك.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة النور : ﴿ قُلْ للمؤْمِنينَ يَغُضوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهم ذلك أَزْكي لهم، إِنَّ الله خَبيرٌ بما يَصْنَعون. وَقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهنَّ وَيحفظْنَ فُروجهنَّ ولا يُبدينَ زينتهنَّ إلاَّ مَا ظهر منها، وَليضربْنَ بخمرهنَّ على جيوبهنَّ، ولا يبدين زينتهنَّ إلا لبعولتهنَّ أو آبائهنَّ أو آباء بعولتهنَّ، أو أبنائهنَّ أو أبناء بعولتهنَّ أو إخوانهنَّ أو بني إخوانهنَّ أو بني أخواتهنَّ أونسائهنَّ أو ما ملكتْ أيمانهنَّ أو التَّابعينَ غير أُولي الإربة مِن الرِّجال أو الطِّفل الَّذينَ لم يَظْهروا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ ولا يَضربْنَ بأَرْجُلِهنَّ لِيُعلمَ مَا يُخفينَ مِنْ زينتهنَّ، وتُوبُوا إلى الله جميعاً أيهُّا المؤمنونَ لعلَّكم تُفلحون ﴾.

وفي سورة الأحزاب : ﴿ يا أيهُّا النَّبيُّ قل لأزواجكَ وَبناتِك ونساءِ المؤمنينَ يُدنينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ، ذلك أدنى أنْ يُعرفْنَ فَيُؤْذَيْنَ ﴾..

إلى آيات أخر كثيرة.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني عن ربه عز وجل : « النَّظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه ». رواه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لتغضنَّ أبصاركم ولتحفظنَّ فروجكم، أو ليكسفنَّ الله وجوهكم ». رواه الطبراني.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صباح إلا وملكان يناديان : ويل للرِّجال من النِّساء. ويل للنِّساء من الرِّجال ». رواه ابن ماجه والحاكم.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والدخول على النِّساء! فقال رجل من الأنصار أفرأيت الحم؟ قال الحم الموت ». رواه البخاري ومسلم والترمذي. والمراد بدخول الأحماء على المرأة الخلوة بها، كما قال رسول الله ﷺ « لا يخلونَّ رجلٌ بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان ».

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يخلونَّ احدكم بامرأة إلا مع ذي محرم » رواه البخاري ومسلم.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمسَّ امرأة لا تحل له ». رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقاة من رجال الصحيح كذا قال الحافظ المنذري.

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إياكَ والخلوة بالنِّساء والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا

دخل الشيطان بينهما ، ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطينٍ أو حمأةٍ خيرٌ له من أن يزحم منكبيه منكب امرأة لا تحل له » رواه الطبراني .

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا » وكذا يعني ؛ زانية . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، ولفظهم : قال النبي ﷺ : « أيمّا امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية » : أي كل عين نظرت إليها نظرة إعجاب واستحسان .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرِّجال بالنِّساء والمتشبهات من النساء بالرجال » . رواه البخاري وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني . وعنه : أن امرأة مرت على رسول الله ﷺ متقلدة قوساً، فقال : « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لعن الله الواشمات

والمتوشمات والمتنمصات [1] والمتفلجات [2] للحسن المغيرات خلق الله ، فقالت له امرأة في ذلك ، فقال : ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو في كتاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، ﴾ رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي.

وعن عائشة رضي الله عنها أن جارية من الأنصار تزوجت، وأنها مرضت فتمعط [3] شعرها، فأرادوا أن يصلوها، فسألوا النبي ﷺ فقال : « لعن الله الواصلة والمستوصلة » وفي رواية : « أن امرأة من الأنصار زوجت ابنتها فتمعط شعر رأسها، فجاءت إلى النبي ﷺ ، فذكرت ذلك له وقالت : إن زوجها أمرني أن أصل شعرها، فقال لا ، إنه قد لعن الموصولات » رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه. وفي رواية للبخاري ومسلم : « لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زوجها ».

---

(١) المتنمصات : الناتفات شعورهن للزينة.

(٢) المتفلجات : هن الباردات أسنانهن للتجميل.

(٣) تمعط شعرها : سقط.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلنَّ الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا ». رواه مسلم وغيره.

وعن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه ». رواه أبو داود وقال هذا مرسل، وخالد بن دريك لم يدرك عائشة.

وعن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رضي الله عنهما أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : « إني أحب الصلاة معك » قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي » فأمرتْ فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، وكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل. رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

وليس بعد هذا البيان بيان، ومنه يعلم أن ما نحن عليه ليس من الإسلام في شيء؛ فهذا الاختلاط الفاشي بيننا في المدارس والمعاهد والمجامع والمحافل العامة، وهذا الخروج إلى الملاهي والمطاعم والحدائق، وهذا التبذل والتبرج الذي وصل إلى حد التهتك والخلاعة، كل هذه بضاعة أجنبية لا تمت إلى الإسلام بأدنى صلة، ولقد كان لها في حياتنا الاجتماعية أسوأ الآثار.

يقول كثير من الناس إن الإسلام لم يحرم على المرأة مزاولة الأعمال العامة وليس هناك من النصوص ما يفيد هذا، فأتوني بنص يحرم ذلك، ومثل هؤلاء مثل من يقول : إن ضرب الوالدين جائز، لأن المنهي عنه في الآية أن يقال لهما : « أُفٍّ » ولا نص على الضرب.

إن الإسلام يحرم على المرأة أن تكشف عن بدنها وأن تخلو بغيرها وأن تخالط سواها، ويحبب إليها الصلاة في بيتها، ويعتبر النظرة سهماً من سهام إبليس، وينكر عليها أن تحمل قوساً متشبهة في ذلك بالرجل؛ أفيقال بعد هذا إن الإسلام لا ينص على حرمة مزاولة المرأة للأعمال العامة؟

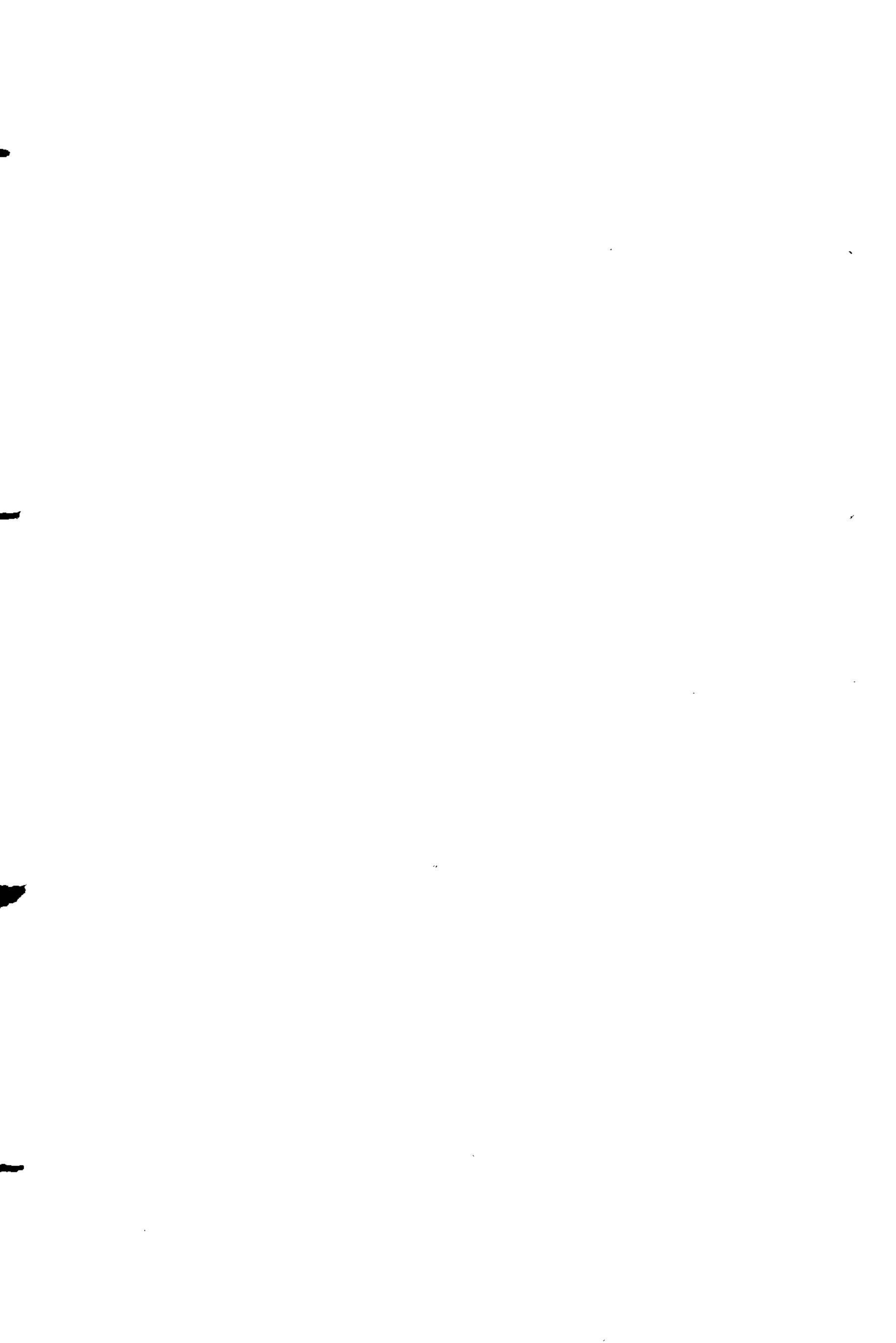
إن الإسلام يرى للمرأة مهمة طبيعية أساسية هي المنزل والطفل، فهي كفتاة يجب أن تهيأ لمستقبلها الأسري، وهي كزوجة يجب أن تخلص لبيتها وزوجها، وهي كأم يجب أن تكون لهذا الزوج ولهؤلاء الأبناء، وأن تتفرغ لهذا البيت، فهي ربته ومدبرته وملكته. ومتى فرغت المرأة من شؤون بيتها لتقوم على سواه..؟

وإذا كان من الضرورات الاجتماعية ما يلجىء المرأة إلى مزاولة عمل آخر غير هذه المهمة الطبيعية لها، فإن من واجبها حينئذ أن تراعي هذه الشرائط التي وضعها الإسلام لإبعاد فتنة المرأة عن الرجل وفتنة الرجل عن المرأة، ومن واجبها أن يكون عملها هذا بقدر ضرورتها، لا أن يكون هذا نظاماً عاماً، من حق كل امرأة أن تعمل على أساسه. والكلام في هذه الناحية أكثر من أن يحاط به، ولاسيما في هذا العصر «الميكانيكي» الذي أصبحت فيه مشكلة البطالة وتعطل الرجال من أعقد مشاكل المجتمعات البشرية في كل شعب وفي كل دولة.

وللاسلام بعد ذلك آداب كريمة في حق الزوج على زوجه، والزوجة على زوجها، والوالدين على أبنائهما، والأبناء على والديهم، وما يجب أن يسود الأسرة من حب وتعاضد على الخير، وما يجب أن تقدمه للأمة من خدمات جلى مما لو أخذ الناس بها لسعدوا في الحياتين ولفازوا بالعبادتين.

* * *

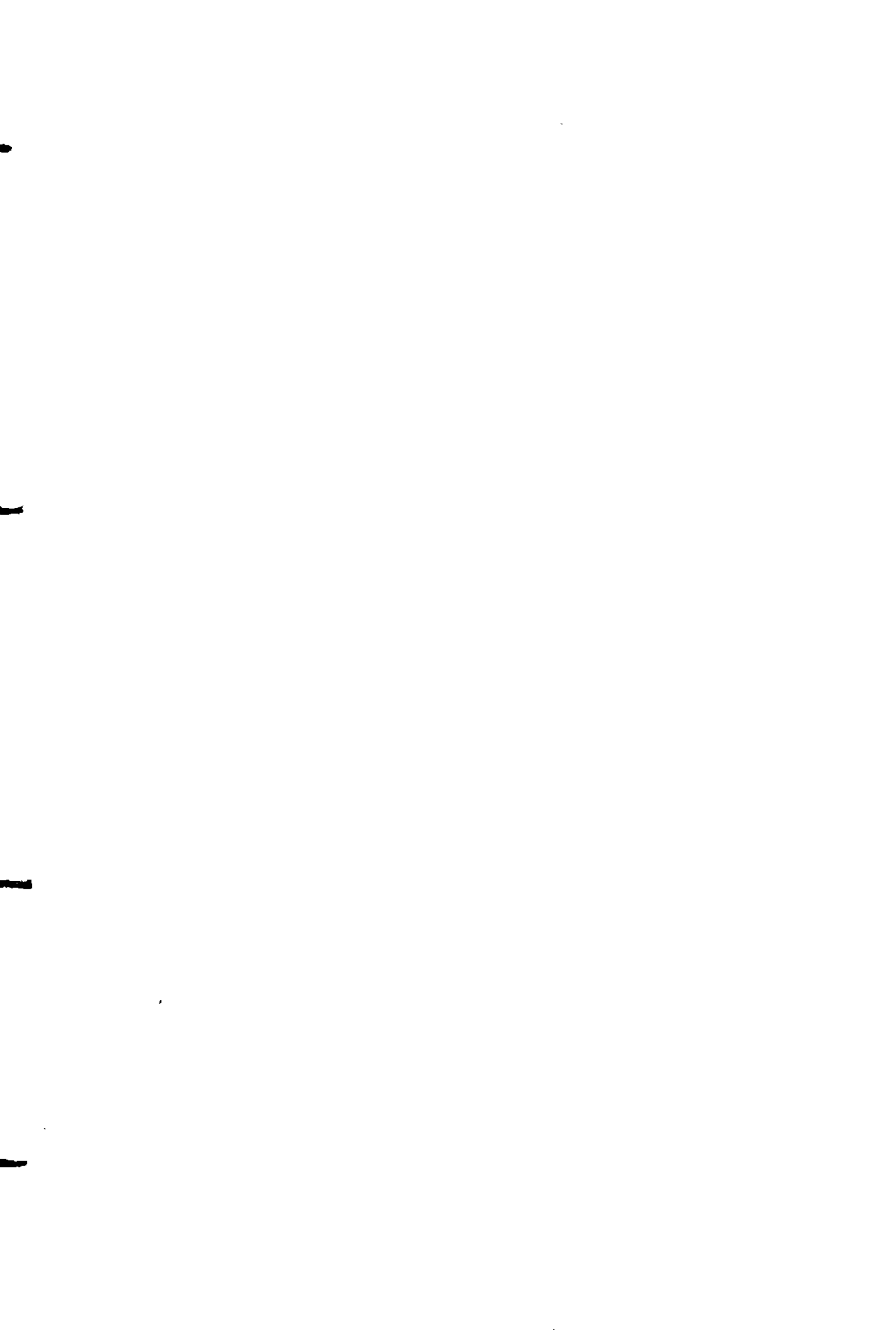
«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»



صفحات من سيرة الصِّدّيق

للأستاذ
علي الطنطاوي

جمادى الثانية ١٣٨٣



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله الذِي خَلَقَ المَوْتَ والحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيز الغَفُـورُ. وصلى الله وسلـم، على الـذي قال لصاحبـه في الغار: لا تَحْزَنْ، انَّ الله مَعَنا.

وبعد، ففي الأيام، أيام بشر مشرقة، وأيام حزن قاتمة، ولـم يكن بعد يوم الحزن الذي اعتصر فيه الحزن قلوب الصحابة بقبض رسول الله ﷺ يوم أشد على المسلمين، من اليوم الـذي توفي فيه الصّديق في ٢١ جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة للهجرة.

وإذا كنا الآن في جمادى الآخرة، وكانت المجلدات العديدة، لا تفي بعرض هذه السيرة الزكية لهذه الحياة الفخمة، فلا أقل من أن تدفع هذه الرسالة الصغيرة شباب الإسلام للعودة إلى هذه السيرة العطرة المجيدة، ليطالعوها ويعوها، ثم ليحاولوا كتابتها ـ بأعمالهم ـ من جديد.

لجنة المسجد

صفحات من سيرة الصّدّيق

- ١ -

جاء في الاصابة ـ لابن حجر ـ أن اصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً، فألح أبو بكر على رسول الله ﷺ بالظهور، قال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل يلح على رسول الله ﷺ حتى ظهر، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد. وقام أبو بكر رضي الله عنه خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله عز وجل وإلى رسوله [١]، وثار المشركون عليه وعلى المسلمين، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ودنا عتبة بن ربيعة [٢] من أبي بكر رضي الله عنه وجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى لم يعد يعرف أنفه من وجهه، وجاءت بنو تيم تتعادى فأجلوا المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب حتى أدخلوه

---

(١) كان الصديق أول من ألح على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظهور وذلك قبل اسلام عمر رضي الله عنهما وإن كان الناس يظنون أن عمر أول من ظهر وأول من ضرب المشركين وضربوه، لما اشتهر من سيرة عمر وما اختفى من سيرة أبي بكر. على أنك لا تزن عمر بواحد من الصحابة إلا رجح به غير أبي بكر. ولم يزل أبو بكر السباق إلى كل خير كما قال عمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين.

(٢) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، كان شريفاً من أشراف قريش وفارساً من فرسانها وكان أول من برز يوم بدر فقتل كافراً هو وأخوه شيبة وابنه الوليد.

بيته، لا يشكّون في موته، ورجع بنو تيم فدخلوا المسجد، فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة.

ورجعوا الى أبي بكر، فجعلوا يكلمونه، حتى أجابهم آخر النهار، فكان أول ما قاله:

ما فعل رسول الله..؟ [1]

فنالوه بألسنتهم وعذلوه، ثم قالوا لأم الخير بنت صخر (أمه): انظري ان تطعميه شيئاً، أو تسقيه. فلما خلت به وألّحت جعل يقول: ما فعل رسول الله..؟ قالت والله ما أعلم بصاحبك، قال: فاذهبي الى أم جميل بنت الخطاب [2] فاسأليها عنه.

---

(١) لم يذكر ألمه المرمض، ولم يذكر ما ناله من بلاء، ولم يأسف على ما فاته من احترام قريش إياه واجلالهم قدره. فان ذلك كله لم يكن يعنيه ولم يخطر له على بال، ولم يكن يعنيه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يسأل ملحفاً: ما فعل رسول الله؟ وهو يخشى أن تكون قد أصابته أذية أو حاق به مكروه.

هذا الدين هو الاخلاص، الذي ليس بعده اخلاص، وهذا هو الايمان الذي لا تزلزله الحوادث ولا يلعب به الطمع، وما كان أبو بكر يبتغي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا، فهو رب أربعين الف درهم، ولم يكن يطمع بالجاه والمجد، فقد كان سيداً في قريش، وما كان يريد شيئاً من الدنيا، وما هو إلا الايمان العجيب والسمو بالنفس عن الرهبة والرغبة والعواطف والميول، والفناء في الحق وهو أعلى مراتب العظمة والبطولة.

(٢) أم جميل وقيل فاطمة بنت الخطاب القرشية العدوية أخت عمر زوج سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم.

فخرجت حتى جاءت إلى أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله. قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن شئت ذهبت معك اليه، قالت نعم.

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دَنفاً، فدنت منه أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك! قال: ما فعل رسول الله..؟

قالت: هذه أمك تسمع! قال: لا عين عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أنَّى هو؟ قالت في دار الأرقم.

قال: فإن لله علي ألِيَّةً [1] أن لا أذوق طعاماً ولا شراباً أو آتي رسول الله. فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرِّجل، وسكن الناس، خرجتا به يتكىء عليهما، حتى دخلتا به على رسول الله ﷺ، فانكب عليه فقبله، وانكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برّة بوالديها وأنت مبارك فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها فأسلمت [2]

---

(١) أي عهداً

(٢) رحم الله ابا بكر لم ينس وهو في هذا البلاء ان يدعو لهذا المبدأ الذي اعتنقه، ويقوي هذا الدين الذي آمن به، ويخلص أمه من ظلمة الكفر، وقد جزاه الله على ذلك خيراً، فاجتمع له ابوان مسلمان وخرج من بيته أربعة بعضهم أبناء بعض لكل منهم صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ابوه، وهو، وولده، وولد ولده، ولم يكن ذلك لغيره من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين.

- ٢ -

قالت عائشة رضي الله عنها : حرّم أبو بكر الخمر في الجاهلية فلم يشربها في جاهلية ولا إسلام، وذلك أنه مر برجل سكران يضع يده في العَذرة ويدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صدف عنها. فحرمها أبو بكر على نفسه [١].

- ٣ -

قال أبو بكر رضي الله عنه في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ : ما سجدت لصنم قط، وذلك أني لما ناهزت الحلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مُخدع فيه الاصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشم العوالي، وخلاني وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فاطعمني، فلم يجبني، فقلت: إني عار فاكسني فلم يجبني. فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه [٢].

---

(١) رواه ابو نعيم وله طرق اخرى انظر تاريخ السيوطي ومنتخب كنز العمال. وانت ترى كيف توصل ابو بكر بصفاء طبعه وحدة فؤاده، الى ضرر الخمر، فحرمها على نفسه، وكيف ان اوامر الاسلام ونواهيه لا تخالف العقل المستقيم، والذوق القويم، فاذا كان ابو بكر قد حرمها على نفسه ولم ينزل بها وحي، ولم تمنعها شريعة، والناس في جاهلية، فكيف يحلها اليوم لانفسهم بعض المسلمين وبين ايديهم كتاب الله وقد تم الدين وبان الحق.

(٢) انباء نجباء الأبناء لابن ظفر.

- ٤ -

قال رسول الله ﷺ : ما دعوت أحداً إلى الاسلام إلا كانت منه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر، ماعكم (تلبث) عنه حين ذكرته له، وما تردَّد فيه [١].

- ٥ -

خرَّج أحمد ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ : من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر: أنا. قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر: انا. قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة.

وفي رواية أخرى عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما:

أن رسول الله ﷺ صلى الصبح. فلما قضى صلاته. قال: أيكم أصبح اليوم صائماً؟ فقال عمر: أما أنا يا رسول الله، فقد بتّ لا أحدث نفسي بالصوم، وأصبحت مفطراً. فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنا يا رسول الله، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم فأصبحت صائماً.

قال فأيكم عاد اليوم مريضاً؟ قال عمر: يا رسول الله، إنما صلينا الساعة ولم نبرح، فكيف نعود المريض؟ فقال أبو بكر: أنا

---

(١) سيرة ابن هشام.

يا رسول الله، أخبروني أن أخي عبد الرحمن بن عوف مريض وجع، فجعلت طريقي عليه، فسألت عنه، ثم أتيت المسجد.

قال رسول الله ﷺ: فأيكم تصدق اليوم بصدقة؟ قال عمر: يا رسول الله! ما برحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق؟ قال أبو بكر: أنا يا رسول الله، دخلت المسجد فإذا سائل يسأل، وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر، معه كسرة خبز، فأخذتها فاعطيتها السائل. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: فأبشر بالجنة (مرتين) فلما سمع ذلك عمر تنفس، فقال: هاه فنظر اليه رسول الله ﷺ فقال كلمة رضي بها عمر.

رحم الله عمر، كان يقول: ما سابقت أبا بكر إلى خير إلا سبقني اليه.

وكان علي رضي الله عنه إذا ذكر عنده أبو بكر يقول: هو السبَّاق، والذي نفسي بيده، ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا اليه أبو بكر.

- ٦ -

أخرج الامام أحمد والطبراني عن ربيعة الأسلمي قال: كنت أخدم النبي ﷺ فأعطاني أرضاً، وأعطى أبا بكر أرضاً، وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة، فقال أبو بكر: هي في حدي، وقلت أنا: هي في حدي، فكان بيني وبينه كلام، فقال أبو بكر كلمة كرهتها، وندم، فقال يا ربيعة ردَّ علي مثلها حتى يكون قصاصاً،

فقلت لا أفعل، فقال: لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ، فقلت ما أنا بفاعل، ورفض الأرض برجله، وانطلق إلى النبي ﷺ، فانطلقت أتلوه، فجاء أناس من أسلم، فقالوا: رحم الله أبا بكر، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ وهو الذي قال لك ما قال؟ قلت: أتدرون من هذا؟ هذا ابو بكر الصديق، وهو ثاني اثنين وهو ذو شيبة في الاسلام، فاياكم ان يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه، فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة، قالوا: فما تأمرنا؟ قلت: ارجعوا!

وانطلقت وحدي أتبع أبا بكر، حتى أتى رسول الله ﷺ فحدّثه الحديث، فرفع إلي رأسه، فقال: يا ربيعة، مالك وللصديق؟ فقلت: يا رسول الله كان كذا وكذا فقال لي كلمة كرهتها فقال لي: قل لي كما قلت لك حتى يكون قصاصاً فأبيت، قال رسول الله ﷺ: أجل، فلا ترد عليه ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر، فقلت غفر الله لك يا أبا بكر، فولى أبو بكر وهو يبكي [1].

- ٧ -

أخرج البخاري وأحمد والنَّسائي، عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن

---

(١) منتخب كنز العمال ومسند الامام أحمد.

حذافة السَّهمي [1]، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد بدراً فتوفي بالمدينة فقال عمر بن الخطاب: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، قال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي. ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن أتزوج يومي هذا. (فقال عمر) فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلي شيئاً فكنت أوجد عليه مني على عثمان، فلبث ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه.

فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليّ (أي غضبت) حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً (قال عمر) قلت: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يكن يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى ﷺ ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلتها.

- ٨ -

قال محمد بن سيرين [1]: لم أعلم أن أحداً استقاء من طعام

(١) هو خنيس بن حذافة بن قيس القرشي السهمي أخو عبد الله بن حذافة وكان من السابقين إلى الاسلام وهاجر إلى الحبشة وعاد إلى المدينة فشهد بدراً وأحداً فأصابه بأحد جراحة مات فيها.

(٢) هو محمد بن سيرين الانصاري البصري امام وقته كان ثقة مأموناً عالياً رفيعاً فقيهاً اماماً كثير العلم ورعاً فاضلا حافظاً يحدث بالحديث على حروفه ويعبر الرؤيا ولم يكن بالبصرة اعلم بالقضاء منه توفي سنة ١١٠ وهو ابن ٧٧ سنة.

أكله غير أبي بكر، فإنه أتي بطعام فأكله، ثم قيل له جاء به ابن النعمان قال : أفأطعمتموني من كهانة ابن النعمان ؟ ثم استقاء [١].

وأخرج أبو نعيم في الحلية، عن زيد بن أرقم: كان لأبي بكر مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعام، فتناول منه لقمة. فقال له المملوك: ما بالك كنت تسألني كل ليلة، ولم تسألني الليلة؟ قال حملني على ذلك الجوع [٢]... من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم رقيت لهم في الجاهلية فوعدوني فلما أن كان اليوم، مررت بهم، فاذا عرس لهم، فأعطوني قال: إن كدت لتهلكني..

وأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج! فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها فقيل له: يرحمك الله! كل هذا من أجل لقمة؟! قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به، فخشيت أن ينبت من جسدي شيء بهذه اللقمة [٣].

---

(١) منتخب كنز العمال.

(٢) خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعضه الجوع بنابه ثم لا يأكل حتى يأتيه غلامه بطعام، وفي يديه مفاتيح الكنوز وليس بينه وبين ان تحمل اليه تحف العراق وثمرات الشام إلا ان يأمر، ولكنه لا يفعل. لأن بين جنبيه نفساً تقول للدنيا وما فيها: انا اكبر منك، لأني لا احتاج اليك، ولا اريدك...

(٣) حلية الاولياء، وفضائل الصحابة والآل للنقشبندي.

وأخرج عنه أيضاً: إن أبا بكر دعا بشراب فأتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه نحّاه، ثم بكى حتى أبكى أصحابه، ثم سكتوا وما سكت، ثم عاد فبكى، حتى ظنوا أنهم لا يقومون على مسألته، ثم أفاق، فقالوا: يا خليفة رسول الله! ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً، ولم أر أحداً معه، فقلت: يا رسول الله! ما هذا الذي تدفع ولا أرى أحداً معك؟ قال: هذه الدنيا تمثلت لي فقلت لها: إليك عني، فتنحّت ثم رجعت، فقالت: أما إنك إن أفلتّ، فلن يفلت مني من بعدك. فذكرت ذلك فخشيت أن تلحقني [١].

- ٩ -

قالت عائشة رضي الله عنها: لبست ثيابي فطفقت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في البيت، والتفت إلى ثيابي وذيلي، فدخل عليَّ أبو بكر فقال: يا عائشة أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن؟ قلت ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟ قالت: فنزعته فتصدقت به، فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفر عنك [٢].

---

(١) حلية الاولياء وفضائل الصحابة والآل للنقشبندي

(٢) الحلية لأبي نعيم.

وفد على أبي بكر رضي الله عنه من ملوك حمير ذو الكلاع [١] ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج والبرود والحلي، فلما شاهد ما عليه أبو بكر من اللباس والزهد والتواضع والنسك، ألقى ما كان عليه، وتزيّا بزيّه حتى إنه رئي يوماً في سوق من أسواق المدينة، على كتفيه جلد شاة.. ففزعت عشيرته، وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والأنصار! قال أفأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية، جباراً في الإسلام؟ لاها الله (أي لا والله) لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا.

وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر، وتذللوا بعد التجبر [٢].

قلت: ذلك لأن أبا بكر كان من آيات الله المعجزة لا تقول للناس: اقرؤا، ولكن تقول انظروا... وأبلغ نصيحة تلك التي تنحدر إلى النفس من طريق العين، لا من طريق الأذن... وخير الناصحين من ينصح بأفعاله، لا بأقواله.. فلما رأى هؤلاء أن أبا

---

(١) ذو الكلاع الحميري. قيل اسمه سميفع بن ناكور وقيل غير ذلك اسلم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رئيساً في قومه متبوعاً ثم خرج الى الشام واقام به فلما كانت الفتنة كان القيم بأمر صفين وقتل فيها وكان قد اعتق اربعة آلاف اهل بيت وقيل عشرة آلاف والله اعلم.

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

بكر خليفة رسول الله، وصاحب الامر والنهي في نصف الأرض، يمشي في الاسواق ويلبس العباءة والشملة، علموا أن هناك شيئاً أعظم من الثياب المزركشة والذهب واللآلىء، هو النفس العظيمة، فسعوا ليتشبهوا بأبي بكر، واستحيوا من الله والناس أن يقابلوا خليفة رسول الله بالتاج والحلي، وهو بعباءة... صغرت عليهم نفوسهم وهانت... وهدأت ثورتها وانطفأت سورتها، كما ينطفىء النجم الصغير، إذا واجه الشمس! رحم الله أبا بكر فقد كان أبو بكر عظيماً في تواضعه، متواضعاً في عظمته.

- ١١ -

اشتهت زوجة أبي بكر رضي الله عنه حلواً، فقال: ليس لنا ما نشتري به، فقالت: أنا أستفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به. قال افعلي، ففعلت فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فلما عرفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فرده إلى بيت المال، وقال: هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم إلى بيت المال من ملك كان له [١].

- ١٢ -

دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تتكلم

---

(١) تاريخ ابن الاثير

فقال: مالها لا تتكلم؟ فقالوا: حجت مصمتة، قال لها تكلمي فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجـاهلية، فتكلمـت، فقالـت: من أنت؟ قال: امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجـرين قال من قريش، قالت من أي قريش؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبو بكر، قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمـر الصالـح الـذي جاء الله به بعـد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم، قالـت: ومـا الأئمــة؟ قال: أو ما كان لقومــك رؤوس وأشراف يأمرونهــم فيطيعونهم؟ قالت بلى، قال: فهم أولئك الناس.

- ١٣ -

وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا يحلب لنا منايح (أغنام) دارنا فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو ألاّ يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهن وكن إذا أتينه بأغنامهم يقول: أنفج أم ألبد؟ فإن قالت أنفج باعد الاناء من الضرع حتى تشتد الرغوة، وإن قالت ألبد أدناه منه حتى لا تكون له رغوة.

دفع شبه المعترضين
على حقيقة
الإسراء والمعراج

للأستاذ
وهبي سليمان الألباني

رجب ١٣٨٣



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اسرى بعبده، صلى الله وسلّم عليه وزاده تشريفاً وتكريماً.

وبعد، فكلّ الناس يعرف الاسراء والمعراج، أو سمع عنهما، ولكن القليل منهم من يعرفهما كما يجب أن يعرفهما.

كما أن قليلاً من الناس من يعرف الأستاذ وهبي سليمان الغاوجي الألباني.

وكما أنه قبيح بنا أن نجهل سبيلنا وديننا، بتشويه معرفتنا فيه، فإن مما يقبح بنا أيضاً، أن نشوّه حياتنا، بجهل رجالنا.

وهذه الرسالة ليست إحاطة بالإسراء والمعراج، ولا تعريفاً بالاستاذ الفاضل، وإنما تمهيد لهما، ولدراستهما كما ينبغي. وتذكير به، ليستفيد الراغبون في المعرفة والخير من علمه وفضله.

والله نسأل العون والتوفيق والهداية إلى سواء السبيل.

لجنة المسجد

مُقدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

جناية الاستعمار :

عبد الجليل راضي مؤلف : العالم سنة ٢٠٠٠ ، الاذاعة اللاسلكية ، ألغاز الحياة والموت والعالم غير المنظور.

يقول في كتابه الأخير : (أما أعظم قصص الطرح فهي قصة طرح النبي محمد ﷺ لروحه من الحجاز لفلسطين وهي المعروفة بالاسراء ، ثم طرحها مرة أخرى لترتفع من الصخرة المقدسة ببيت المقدس إلى السموات العلى ﴿ سُبْحَانَ الّذِي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرامِ إلى المَسجِدِ الأقْصَى الّذِي بارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آياتِنَا إنّه هو السّمِيعُ البَصِير﴾[1] تقول أم هانىء زوجة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم [2] في وصفها ليلة الاسراء : إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا ، فلما كان الفجر أهبّنا رسول الله فلما صلى الصبح وصلينا معه قال : يا أم هانيء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت صلاة الغداة معكم كما ترين ، فقلت له

(١) الإسراء : ١ .

(٢) قلت بل هي بنت عمه أبي طالب وليست زوجه .

يا نبي الله : لا تحدث بها الناس فيكذبوك ويؤذوك، قال والله لأحدثهموه. فاذا كان النبي قد نام معهم حقيقة فان الإسراء يكون تم بالروح فقط [1] وكذلك يكون المعراج). ص ١٤٨

لقد ابتلي العالم الاسلامي الاستعمار الكافر منذ قرن ونيف، جاء الاستعمار اليه بقوته وعلمه معتزاً بهما، قد عرف الكثير من النعم المودعة للانسان في الطبيعة فاستخرجها، شغل عقله ووقته فاستفاد من أسباب التقدم والعمران الشيء الكثير، جاء بذلك إلى بلادنا باهراً بنفسه معجباً بحاله، يزعم أن ذلك المجد الظاهري والرقي البراق إنما حازهما حين ترك الدين وآمن بالعقل، هجر الايمان بالغيب والشهادة وآمن بالتجربة.

لقد أُخذ العرب بمدنية الغرب وعلمه وخضع له بعضهم مشدوهاً مبهوراً، وحين أعلن فيهم الغرب إنكار الروح وما يتعلق به، رفض حقائق الدين وحاربها سَخِر بأحكام الإسلام وسفَّهها تنكّر للغيوب والمعجزات فيه وألحقها بخرافات النصرانية في أوروبا. تحيَّر العرب المسلمون! تحير بعض كبارهم الذي تصدّوا لعرض الإسلام وقيادة الجماهير اليه وترددوا.. إن الاسلام عزيز عليهم لا يقبلون سواه ولا يرضون عنه بديلا، ومدنية الغرب وعلومه عظيمة لا يمكن التنكر لها ولا يستقيم العيش دون الاخذ بها فكان.. كان أنهم أخذوا يؤوِّلون حقائق الدين وأحكام الاسلام،

---

(٢) كأن النائم يستحيل عليه الاستيقاظ ليلاً

ينكرون من قواعده ما ينكرون ويضعِّفون ما يضعِّفون، يُنطقون نصوص الدين مالا تنطق به، ويحمّلونها ما لا تحتمل، يهزؤون بالمغيبات والمعجزات مع الاحتفاظ بأصل الايمان والاحترام لهيكل الاسلام!، زاعمين أنهم يُصلحون ولا يُفسدون، كأن اسلامهم يقتضيهم أن يشذبوا من الإسلام ويزينوا من حواشيه ببريق الدعاوي، وينقصوا من أحكامه ويشرّعوا فيه بعقولهم ويبدلوا تبعاً لأحوالهم وظروفهم، كي يصبح مقبولاً عند بعض الناس. فخسروا، أي والله خسروا، إذ لم يضموا إلى صف الاسلام أولئك الغربيين ومن يسايرهم، وخسروا العامة الذين شككوهم في حقائق الدين وأخرجوا بعضهم بها منه، ان وظيفة حملة الاسلام كانت وتكون دوماً عرض الاسلام على حقائقه ـ بحكمة تناسب كل زمان ومكان ـ كما هو دون زيادة أو نقصان ثم كما قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر. ﴾ وعلى الداعي إلى الله تعالى أن يسعى وليس عليه ادراك النجاح.

انحراف عن الاسلام:

لقد انحرف بعض أولئك الذين تصدوا لعرض الإسلام ـ ولا نتهم كل واحد منهم بقصد ذلك ـ انحرفوا فأوّلوا أحكام الاسلام تأويلات لا يقبلها الاسلام، وحملوا نصوصه ما لا تحتمله، وأنكروا وردوا من أحاديثه ما شاء لهم قصدهم وهو تقريب الاسلام إلى الغرب المادي الملحد ومن بهرته أضواؤه، من المسلمين، وكان أن:

وُجد فيهم من فسرّ القرآن الكريم على أساس طبيعي يناقض تماماً القول بالمعجزات وخوارق العادات وجعل النبوة غاية تحصَّل وتكتسب عن طريق الترويض النفسي؟! ووجد منهم من ألغى فريضة الجهاد على المسلمين، لأن الجهاد قسوة وسفكٌ للدماء لا يتفق مع عصور النور؟! ووجد منهم من أشار إلى وجوب تحرير المرأة واسفارها واخراجها من البيت، ودفعها إلى مشاركة الرجل اعمال الحياة؟! ووجد منهم من أباح الربا القليل ومنع تعدد الزوجات بالظن؟! ووجد منهم من طلب أن يكون الطلاق بيد القاضي ؟! ـ كما هو في بعض دول الغرب اليوم ـ ووجد منهم من أوَّل الملائكة بأنهم قوى الخير في العالم، والجنَّ بأنهم قوى الشر فيه؟ ! ومن استدل على خلود الروح بخرافة استحضار الأرواح ـ التي هي عبارة عن حضور الجن القرناء وليست أرواح الموتى بحال من الاحوال ـ؟! ووجد منهم من أنكر حشر الأجساد في الآخرة وزعم أن النعيم والعذاب ثمت روحي؟! ووجد منهم من فسر فلق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام حتى جازه بأنه عبارة عن جزر البحر ومدِّه فهو حادث عادي؟! ووجد منهم شاعر القصائد الاسلامية القائل : أما الجنة والنار فهما حالتان لامكانان ووصفهما في القرآن تصوير حسي لأمر نفساني أي لصفة أو حال، فالنار في تعبير القرآن هي : ﴿ نَارُ اللهِ الموقَدَة الّتي تَطلّعُ على الأفْئِدَة ﴾ هي ادراك اليم لإخفاق الانسان بوصفه إنساناً، أما الجنة فهي سعادة الفوز على قوى الانحلال؟! ووجد منهم من زعم ان الجهاد في الاسلام إنما

هو للدفاع فقط، فالمسلمون الذين دخلوا أرض العدو في مؤتة في عصر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، والصحابة الذين قاتلوا الفرس والروم ابتداء بعد دعوتهم إلى الاسلام، وفتحوا العراق والشام ومصر والمغرب هم منحرفون عن فهم الاسلام في زعم أولئك، إذ أن المسلمين هجموا في تلك الوقائع جميعاً ولم يكونوا أبداً في موقف الدفاع. ووجد منهم من أباح الربا للضرورة التي يقدرها المقترض ـ لا التي يقدرها الشرع بأن لا يجد قوت يوم وليلة ـ وأباح المعاملات الربوية مع المصارف وعقودَ التأمين؟! ووجد منهم من يُسَرُّ من رجل يضع كتاباً في حياة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على غرار ما يفعل الغربيون تقريباً ويخليه من المعجزات، فيكتب في تقديمه لذلك الكتاب يقول: ولم تكن معجزة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلا في القرآن وما أبدع قول البوصيري:

لم يمتحنّا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نَهِمِ

ويكتب غيره يقول: وان الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة؟! ووجد منهم من دعا إلى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ليفلتوا من قيود الاسلام باسم رعاية المصالح واختلاف الأزمان، وهم بشهادةِ أقرانهم لا زاد لهم من علم ولا تقوى يؤهلهم للاجتهاد حتى في المسائل؟! ووجد منهم من زعم أن الاسراء والمعراج كانا رؤيا منام، كانا حلماً كسائر الأحلام، وهو الذي تبناه

عبد الجليل راضي وأعلنه زاعماً أنه مما أثبته العلم الحديث؟! [1].

وأنا ـ كما قلت ـ لا أتهم جملتهم بقصد الانحراف عن الاسلام، لكن انحرافهم قد وقع، وردّة بعضهم عن الاسلام قد حقت، وقديماً ضل الخوارج، على حسن النية، لانحرافهم عن الجادة وتركهم التزام بعض أحكام الاسلام، حتى قال فيهم الحبيب صلى الله تعالى عليه وسلم ما ورد في الصحيحين في حديث الذي لمزه في قسمة الذُّهبية التي أرسل بها علي من اليمن وقال يا رسول الله اتق الله، قال : « إنه يخرج من ضِئضئي هذا ـ نسله أو أصله ـ أقوام يتلون كتاب الله تعالى رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد » وما ورد في الصحيح أيضاً أن عمر رضي الله تعالى عنه لما سمع لمز ذي الخويصرة في يوم حنين قال ائذن لي فأضرب عنقه، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « دعه فان له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ».

فكيف بأولئك وليس فيهم من يحقر الصحابة صلاتهم مع صلاتهم ولا صيامهم مع صيامهم؟!

---

(١) انظر : موقف العقل والعلم والعالم جـ ١، ٢، ٣، صواعق من نار، الفكر الاسلامي الحديث، حياة محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم)، نظام السلم والحرب في الاسلام، تجد جل تلك الاقوال معزوة الى أصحابها.

والحمد لله إنا في الاسلام نعرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال. وان من خرج منهم على الدليل ـ كجميع ما ذكرت ـ رُدّ قوله ولا كرامة كائناً من كان مفتياً كان أو قاضياً، شاعراً أو شيخ اسلام. وتلك لعمري مزية لا نجدها إلا في الاسلام، أن لا يُنظر إلى من قال، وانما ينظر الى ما قال، وإنَّ رأي الشرع وحكمه هو وحده الرأي والحكم ولا عبرة بمن خالفه بحال.

لماذا ينكرون المعجزات الحسيّة :

١ ـ أنكر جل المعجزات الحسية بعض أولئك الذين تصدَّوا لعرض الاسلام والدفاع عنه وقيادة الجماهير اليه، بقصد تقريب الاسلام إلى أذهان الملاحدة ومن بهر بهم من قومهم، وأوّلوا ما ثبت منها بالقرآن الكريم وصحيح السنة بما يشبه الانكار، لأنهم سمعوا بعض الجاهلين يقولون: ان المعجزات الحسية غير معقولة ولا ممكنة، ومع أن أولئك العلماء يعلمون أن المعجزات الحسية معقولة ممكنة وغاية ما فيها انها مخالفة للعادة بدون أسباب العادة، إلا أنهم سايروهم ليكسبوهم. إن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة تصديقاً له في دعواه، يظهره على يده دون أسباب ومقدمات عادية مع ادعاء النبوة. . وإنسان اليوم قد استطاع أن يأتي بكثير من خوارق العادات السابقة باتخاذ الأسباب، لقد استطاع أن يكلم أخاه باللاسلكي وأحدهما في اعالي الجو والآخر في قاع البحر وبينهما مئات الاميال، واستطاع

أن يرتفع إلى الفضاء الخارج عن جاذبية الأرض ويبقى ثمة أياماً واستطاع أنَ يدخل النار بثياب البلاستيك ولا يحترق، واستطاع باذن الله تعالى أن يشفي بعض الأمراض المستعصية قديماً، واستطاع أن يجعل من الذرة الصغيرة سلاحاً يدمّر به الشيء الكبير.

وجميع ما يفعله الانسان باتخاذ الاسباب العادية لا يسمَّى معجزة ولا كرامة، لكن يسمى تقدماً علمياً واختراعاً جديداً. أما المعجزة فهي خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام واطلاقها على غيرهم معصية وكذب. ومن نظر الى المعجزات الحسية الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة لمس أنها معقولة ممكنة لكنها خلاف العادة التي اعتادها الناس في اتخاذ الأسباب.

٢ ـ أنكر بعض أولئك المتصدين لعرض الاسلام المعجزات الحسية أو تأوَّلوها بما يقارب إنكارها، لأنهم سمعوا بعض الجاهلين يقولون : إن الله تعالى قد نفى في القرآن الكريم أن تكون له ﷺ معجزات، ومع أنهم يعلمون أن القرآن الكريم ما نفى ذلك، لكن نفى أن تكون المعجزة من صنع الرسول ﷺ نفسه، إلا أنهم سايروا الجهال ليكسبوهم.

إن أعظم شُبه الجهال في هذا المجال قوله تعالى في سورة الاسراء: ﴿ وَقالوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتَّى تفْجُرَ لَنا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً. أو تَكونَ لَكَ جَنّةٌ مِن نَخِيل وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهارَ خِلالَهَا تَفْجيراً. أو تُسْقِطَ السَّماءَ كما زَعَمْتَ عَلَيْنَا كسفَاً أوْ تَأتِي باللهِ وَالمَلائِكةِ قبيلاً. أوْ

يَكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقى في السَّماء وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيك حَتَّى تُنزِّلَ عَلَيْنَا كِتاباً نَقْرَؤهُ، قُلْ سُبْحانَ ربِّي هَلْ كُنْتُ إلاَ بَشراً رَسُولاً﴾. مع أن الآية التالية تفسر الآية السابقة كما تفسرها المعجزات الواقعة لكن في عقول البعض عماء. قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مال هذا الرَّسول يَأكُل الطّعامَ وَيَمْشِي في الأسْواق لولا أنزِلَ إليه مَلكٌ فيكونَ معه نذيراً. أو يُلقى اليه كنزٌ أو تكونَ له جنَّةٌ يأكلُ منها، وقال الظَّالمون إن تَتَّبعون إلاّ رجلاً مَسْحوراً. أنْظرْ كيفَ ضرُبوا لك الأمثالَ فضَلوّا فَلا يَسْتَطيعونَ سبيلاً. تبارك الذي إن شاءَ جَعَلَ لك خيراً من ذَلك جنّات تَجري من تحتها الأنهارُ ويجعلْ لَكَ قُصوراً. بل كذَّبوا بالسَّاعة وأعتدْنا لمن كذَّب بالساعة سعيراً. .وقال الَّذينَ لا يرجونَ لقاءَنا لولا أنزِلَ عَلَيْنا الملائكة أو نَرى ربَّنا، لقد استكبروا في أنْفُسِهِمْ وَعَتَوا عُتواً كبيراً. يَومَ يرونَ الملائكةَ لا بُشرى يَومئذٍ للمجرمينَ ويقولون حِجْراً مَحْجوراً﴾.

٣ ـ أنكر بعض أولئك المتصدِّين لعرض الإسلام المعجزات الحسية أو تأولوها بما يشبه إنكارها، لأنهم سمعوا بعض الجاهلين يقولون : إن المعجزات الحسية خروج على سنن الله تعالى في الكون وذلك محال لأن الله تعالى هو الذي يقول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تحويلاً﴾. ومع أنهم يعلمون أن المقصود بسنن الله تعالى التي لا تتغير إنما هي سننه سبحانه في تأييد

المرسلين وأتباعهم وخذلان المشركين والظالمين وأعوانهم، لكنهم سايروهم ليكسبوهم في سائر حقائق الاسلام.

وإليك ما قاله بعض المفسرين في قوليه تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَد أَرْسَلْنَا قَبْلَك مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسنَّتِنا تَحْويلاً.. فَهَل يَنظُرُونَ إلا سُنَّةَ الأوّلِين فلَنْ تَجِدَ لسُنّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَةِ اللهِ تَحْويلاً﴾ من سورتي الإسراء وفاطر.

قال الآلوسي: «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا».. وهي أن لا ندع أمة تستفز رسولها لتخرجه من بين ظهرانيها تلبث بعده إلا قليلا، فالسنة لله عز وجل وأضيفت للرسل عليهم السلام (جـ ١٥ ص ١٣١).

وقال ابن كثير: «سنة من قد أرسلنا..» قيل نزلت في كفار قريش هموا بإخراج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من بين أظهرهم فتوعدهم الله تعالى بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد اشتداد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ولهذا قال تعالى: ﴿سنة من قد أرسلنا..﴾ الآية. هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا مالا قبل لأحد به، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْت

فِيهِمْ ﴾ (جـ ٣ ص ٥٣) ومثله الفخر الرازي (جـ ٥ ص ٢٢٦).

قال الآلوسي: « فهل ينظرون إلا سنة الأولين. . » أي ما ينتظرون وهو مجاز يجعل ما يستقبل بمنزلة ما ينتظر ويتوقع « سنة الأولين » أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً » بأن يضع سبحانه غيرهم موضع العذاب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ بأن ينقل العذاب من المكذبين الى غيرهم (جـ ٢٢ ص٢٠٦).

وقال ابن كثير: ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره، ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذَا أرَاد اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد. (جـ ٣ ص ٥٦٢) ومثله في الفخر (جـ ٧ ص ٥٣).

٤ ـ لو أن إنساناً صعد إلى القمر واتخذ فيه منزلاً وانتقل الى المريخ زائراً، ثم نزل الى الارض بجناحين أثبتهما في يديه لما أنكر وقوع ذلك أشد الناس إنكاراً لمعجزات الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الحسية، واذا قيل له في ذلك أجاب: أن الانسان قد وصل إلى ما وصل بأسباب وآلات، لكنكم تقولون: أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عرج به الى السموات فما فوقها دون اتخاذ أسباب وآلات معتادة! كأنّه لا يكفيه أن المعجزة هي فعل الله تعالى ذلك لرسوله، أو يعجز الله تعالى أن يصنع دون الاسباب

المعتادة لرسله الكرام ولرسوله صلى الله عليهم وسلم عجائب وخوارق وهو القادر على فعل ما يريد ولا يعجزه شيء؟ بلى إنه لقادر وقد فعل ذلك مرات ومرات.

ان قدرة الله تعالى مسلَّم بها عند المؤمنين، فإذا صح الخبر الوارد بما يدخل في دائرة قدرته تعالى فلا يسع المؤمن الا التصديق والقبول مع تمام الرضا وانشراح الصدر به.

الاسراء والمعراج كانا بالروح والجسد.

ان الاسراء والمعراج كانا حقيقة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقظة لا مناماً، وواقعاً لا خيالاً، جسداً وروحاً لا روحاً فقط. ذلك :

١ - لأن الأصل في كلام العقلاء أن يؤخذ كما هو دون تأويل أو تحريف فكيف كلام الله تعالى؟

٢ - ولأن قدرة الله تعالى تتعلق بالممكنات جميعها - كما قال علماء التوحيد - والإسراء والمعراج بالجسد ممكن مقدور.

٣ - ولأن الله تعالى قد أعلن كون ذلك بالجسد والروح لمن ألقى السمع وهو شهيد، في قوليه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مَن الْمَسْجِدِ الحرام الى المسجد الأقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ البَصِير﴾ [1] ﴿والنَّجْم إذا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوَى، ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى. وَهُوَ بِالأُفُقِ الأعلى. ثُمّ دَنا

---
(١) الاسراء : ١

فَتَدَلَّى فَكانَ قَابَ قَوْسَينِ أو أَدْنى. فَأوْحَى إلى عَبده ما أوْحَى. ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ [1].

٤ ـ ولأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما خاطب قريشاً بما كان من الاسراء لم يقل لهم ان ذلك كان رؤيا وما ظنوا أن ذلك كان رؤيا، لذا بادروا يسألونه عما يدل على صحة ما رأى. قال ابن كثير في تاريخه : . . وذلك أن أبا جهل ـ لعنه الله ـ رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في المسجد الحرام وهو جالس واجم، فقال له : هل من خبر؟ قال :نعم، فقال:ما هو؟ فقال : إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس. قال إلى بيت المقدس؟ قال نعم. قال: أرأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتني به؟قال: نعم. فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك، وأراد رسول الله ﷺ جمعهم ليخبرهم بذلك ويبلغهم، فقال أبو جهل : هيا معشر قريش، وقد اجتمعوا من أنديتهم فقال : أخبر قومك بما أخبرتني به. فقص عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خبر ما رأى وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلى فيه، فمن بين مصفق وبين مصفّر تكذيباً له واستبعاداً لخبره وطار الخبر بمكة. . وفي الصحيح أن المشركين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ـ أي وصف بيت المقدس ـ قال : فجعلت أخبرهم عن آياته فالتبس عليّ بعض الشيء ـ إذ جاءه ليلا ـ فجلىّ الله لي بيت المقدس حتى جعلت أنظر إليه دون دار عقيل وأنعته لهم. . قال ابن اسحق فأقام الله عليهم الحجة واستنارت

(١) النجم : ١ ـ ١١

لهم المحجة فآمن من آمن على يقين من ربه وكفر من كفر بعد قيام الحجة عليه، كما قال الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا التي أرَيْناك إلا فِتْنَةً لِلنّاسِ ﴾ (١) أي اختباراً لهم وامتحاناً. قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. (جـ ٣ ص ١١٣).

حديث البخاري في المعراج

روى البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنهم، أخبرنا أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: «بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعاً إذ أتاني آت فقدَّ، قال وسمعته يقول شقّ، ما بين هذه وهذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني به؟ قال من ثغرة نحره إلى شِعرته، وسمعته من قَصِّه إلى شِعرته، فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حُشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحُملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا؟ قال جبريل قيل ومن معك؟ قال محمد قيل وقد أرسل اليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت فاذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلّم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد

(١) الاسراء: ٦٠

حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسل اليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يحيي وعيسى وهما ابنا الخالة، قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردًا، ثم قالا : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسل اليه؟ قال نعم قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا يوسف، قال هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرّد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسل اليه؟ قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إلى ادريس قال هذا ادريس فسلّم عليه فسلمت عليه، فردّ ثم قال : مرحباً بالاخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسل اليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فاذا هارون، قال هذا هارون فسلّم عليه فسلمت عليه، فردّ ثم قال : مرحباً بالاخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي حتى آتى السماء السادسة فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد، قيل وقد أرسل اليه؟ قال نعم، قيل مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما

خلصت إذا موسى قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرّد ثم قال مرحباً بالاخ الصالح والنبـي الصالـح، فلما تجـاوزت بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من امته أكثر من يدخلهـا من أمتـي [1] ثم صعـد بي إلى السماء السابعة فاستفتـح جبـريل قيل من هذا؟ قال جبـريل قيل ومـن معك؟ قال محمد قيل وقد بعث اليه؟ قال نعـم، قيل مرحبـاً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت إذا ابراهيم قال هذا أبوك ابـراهيم فسلّم عليه فسلمت عليه فردّ السلام، ثم قال مرحباً بالأبن الصالح والنبي الصالح، ثم رُفعت إلى سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران، ونهـران باطنـان، فقلـت ما هذا يا جبـرائيل؟ قال أمـا الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات [2]، ثم رُفع لي البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون الف ملك ثم أتيت باناءِ من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فاخذت اللبن، قال هي الفطرة التي أنت عليها وأمتُك، ثم فُرضت عليّ الصلوات خمسين

---

(١) لم يكن هذا من موسى عليه السلام حسـدا معـاذ الله بل أسفـا على ما فاته من الاجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من قومه من المخالفـة المقتضية لتنقيص أجورهم المقتضية لتنقيص أجره لأن لكل نبي مثل أجر من اتبعه.

هـ العيني على البخاري جـ ١٧ ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) قال الطيبي النيل والفرات من أصلها « أي اصل سدرة المنتهى » ثم يسيران حيث أراد الله تعالى ثم يخرجان من الارض ويسيران فيها وهذا لا يمنعه شرع ولا عقل وهو ظاهر الحديث فوجب المصير اليه، ا هـ نفس المصدر.

صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال بم أمرت؟ قال أمرت بخمسين صلاةً كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لامتك فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فامرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله فرجعت فامرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت؟ قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل أشدّ المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لامتك، قال سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلّم، قال فلما جاوزت نادى مناد أمضيت فريضتي وخفّفت عن عبادي).

دفع شبه علمية :

قال قائلون ان الاسراء وقع لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مناماً لا يقظة بدليل ١ ـ حديث شريك الذي رواه عنه البخاري وفيه : واستيقظ وهو في المسجد الحرام.

٢ ـ وبقول ابن اسحق : حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تقول ما فقد جسد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه.

٣ ـ وقوله أيضاً : حدثني يعقوب بن عتبة أن معاوية كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله صادقة.

الجواب:

١ ـ الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس وفيه: (بينا أن في الحطيم وربما قال قتادة في الحجر... فناداني مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي) ولم يرد في غير رواية شريك (ثم استيقظ) لذا تكلم العلماء في رواية شريك. فمن قائل أن رواية شريك فيها تقديم وتأخير، قال الامام مسلم بعد سياق السند: « .. إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام وساق الحديث بقصته نحو حديث ثابت البناني « الذي رواه مسلم أيضاً كالبخاري وأوله أتيت بالبراق.. » وليس فيه ثم استيقظ وقدم فيه شيئاً وأخر وزاد ونقص، يعني شريكاً » [1]

ومن قائلين أن رواية شريك شاذة إذ خالف فيها الرواة الثقاة والمعروف في علم الحديث أن الزيادة الشاذة مردودة. قال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكر رواية ثم استيقظ (هذا الحديث بهذا اللفظ رواية شريك بن أبي نمر عن أنس وقد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى حديث الاسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والأئمة المشهورين

---

(١) مسلم على هامش القسطلاني ج ٢ ص ٦٢.

كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث) [1] وقال أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى : في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رأى الله عز وجل يعني قوله ثم دنا الجبار - وهي في رواية شريك - فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. قال : وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل أصح، قال ابن كثير وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله تعالى في هذه المسألة هو الحق فان أباذر قال يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال نور أنى أراه، وفي رواية « رأيت نوراً » أخرجه مسلم، وقوله ثم دنا فتدلى إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين وعن ابن مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا [2] وعقد القاضي عياض في الشفاء فصلاً لرد دعوى كون الاسراء وقع مناماً، فقال رحمه الله تعالى : فصل في ابطال قول من قال إنها نوم بقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ فسماها رؤيا. قلنا قوله : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ يرده لأنه لا يقال في النوم « اسرى » وقوله : ﴿فتنة للناس﴾ يؤيد انها رؤيا عين واسراء شخص إذ ليس في النوم فتنة ولا يكذب

---

(١) نفس المصدر.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣

به أحد لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة. ثم قال : وما روي بينا أنا نائم في الحطيم. . وذكر شق البطن ودنوّ الرب الواقعة في هذا الحديث إنما هي من رواية شريك عن أنس رضي الله تعالى عنه فهي منكرة من روايته إذ شق البطن في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صغره عليه الصلاة والسلام وقبل النبوة، ولأنه قال في الحديث قبل أن يبعث والاسراء باجماع كان بعد المبعث، فهذا يوهن ما وقع في رواية أنس عنه.

قلت نقل القاري في شرح الشفاء عن ابن حجر رحمهما الله تعالى ما ملخصه: إن شق البطن وقع ثلاث مرات له صلى الله تعالى عليه وسلم، حين كان صغيراً في بني سعد، وعند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، وعند إرادة العروج إلى السماء كما في الصحيح.

٢ ـ هذا غير ثابت أصلا لأنه من رواية ابن اسحق بلفظ حدثني بعض آل أبي بكر، فمن هو هذا البعض؟ وأين ابن اسحق المتوفى في منتصف القرن الثاني من ادراك زمن عائشة، ففي السند انقطاع لا يصح به شيء.

٣ ـ وهذا أيضاً غير ثابت عن معاوية للانقطاع بين شيخ ابن اسحق يعقوب بن عتبة وبين معاوية لأنه توفي سنة ١٢٨ وأين هذا التاريخ من وفاة معاوية في سنة ستين؟ فلا يصح التعويل على مثل تلك الاخبار المنقطعة في ادعاء ان الاسراء روحاني فقط أو في حالة النوم

فقط [١]. قال ابن كثير في تاريخه بعد نقله قولي ابن اسحق: وقد توقف ابن اسحق في ذلك وجوّز كلاً من الأمرين من حيث الجملة، ولكن الذي لا يشك فيه ولا يتمارى انه كان يقظاناً لا محالة [٢].

ملاحظات

١ ـ لعل الحكمة في الاسراء والمعراج بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بعد موت نصيريه من البشر، خديجة رضي الله تعالى عنها، وأبي طالب، ليكون ذلك ترويحاً له صلى الله تعالى عليه وسلم وتسلية، وليظهر فضله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه المعجزة التي انفرد بها بين المرسلين، وليكون جواباً على الكفار الطالبين منه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرقى في السماء على قصد التندر، ولتفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمسة في السماء وبذلك يعظم شأن الصلاة عند المؤمنين إذ فرضت وحدها في السماء من بين سائر الفرائض والتكاليف، وفي الحق ليريه ربه سبحانه من آياته الكبرى في أرضه وملكوته الأعلى، ولم يكن ذلك معاذ الله ليقرب من ربه قرباً مكانياً فهو سبحانه يتعالى عن أن يحتاج إلى مكان أو يحيط به زمان، قال الكوثري رحمه الله تعالى: وهذا العروج ليس للتقرب منه تعالى لأن القرب منه لا يكون بالمسافة، قال تعالى: ﴿ واسْجُد واقْتَرِبْ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم: « أقرب ما يكون العبد من

---

(١) مقالات الكوثري: ص ٤١٩

(٢) تاريخ ابن كثير ج ٣ ص ١١٤

ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» رواه مسلم وأبو داود. **واحتجاج** إمام الحرمين على تنزه الله سبحانه عن الجهة بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تفضلوني على يونس بن متى » وحمله على معنى انه صلى الله تعالى عليه وسلم عند وصوله إلى سدرة المنتهى ما كان أقرب إلى الله من يونس وهو في بطن الحوت، مما ذكره القرطبي في تذكرته رواية عن أبي بكر بن العربي، وروى ناصر الدين بن المنير عالم الثغر الاسكندري العلامة المشهور مثل ذلك عن الامام مالك إمام دار الهجرة رضي الله تعالى عنه في كتابه (المقتضى في شرف المصطفى). وتنزيه الله سبحانه عن المكان والمكانيات والزمان والزمانيات هو عقيدة أهل الحق [1] قال أبو حنيفه رضي الله تعالى عنه: من قال لا أعرف ربي في السماء أو في الارض فقد كفر، قال السمرقندي في تعليقه: لأنه بهذا القول يوهم أن يكون له تعالى مكان فكان مشركاً [2].

٢ ـ الجمهور على أن الاسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة، وانهما وقعا بالروح والجسد معاً يقظة، ولا محيد عن ذلك بعد صحة الخبر وتمام الاعتقاد بقدرة القادر الحكيمة الشاملة لكل ممكن. قال ابن اسحق: (.. ولكنه صلى الله تعالى عليه وسلم أصبح واجماً يخشى

---

(١) مقالات الكوثري ص ٤٢٠

(٢) الفقه الابسط لأبي حنيفة شرح السمرقندي ص ٤٩

إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه فتلطف باخبارهم أولاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة . . الخ)[1]

٣ ـ قيل ان الاسراء والمعراج كانا في السنة الحادية عشرة من المبعث، وعن ابن حزم دعوى الاجماع على ذلك ـ وما أكثر دعاويه تلك ـ وجزم النووي في الروضة ان ذلك كان في ربيع الأول، والمشهور بين العامة ان ذلك كان في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب.

٤ ـ السماوات السبعة أجرام لها أبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة، فليست هي الكواكب السيارة السبعة وليست طبقات هوائية وليست طبقات نجوم كما زعم مؤلف (التوفيق العلمي بين الحضارة والاسلام) وقدرة الله تعالى وخلقه أعظم من أن يدرك كنههما أو يحيط بهما مخلوق، وشأن المؤمن التسليم بكل ما جاء من عند الله تعالى عن طريق صحيح.

٥ ـ لم يرد في السنة تحديد عناصر السموات السبعة وان أولاها من دخان والثانية من حديد والثالثة من نحاس، والرابعة من فضة بيضاء والخامسة من الذهب الأحمر والسادسة من ياقوته خضراء والسابعة من درة بيضاء، كما ورد في رسالة المعراج المنسوبة إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وتلك الرسالة لم تصح نسبتها اليه رضي الله تعالى عنه وممن أشار إلى ذلك السيوطي في تدريب

---

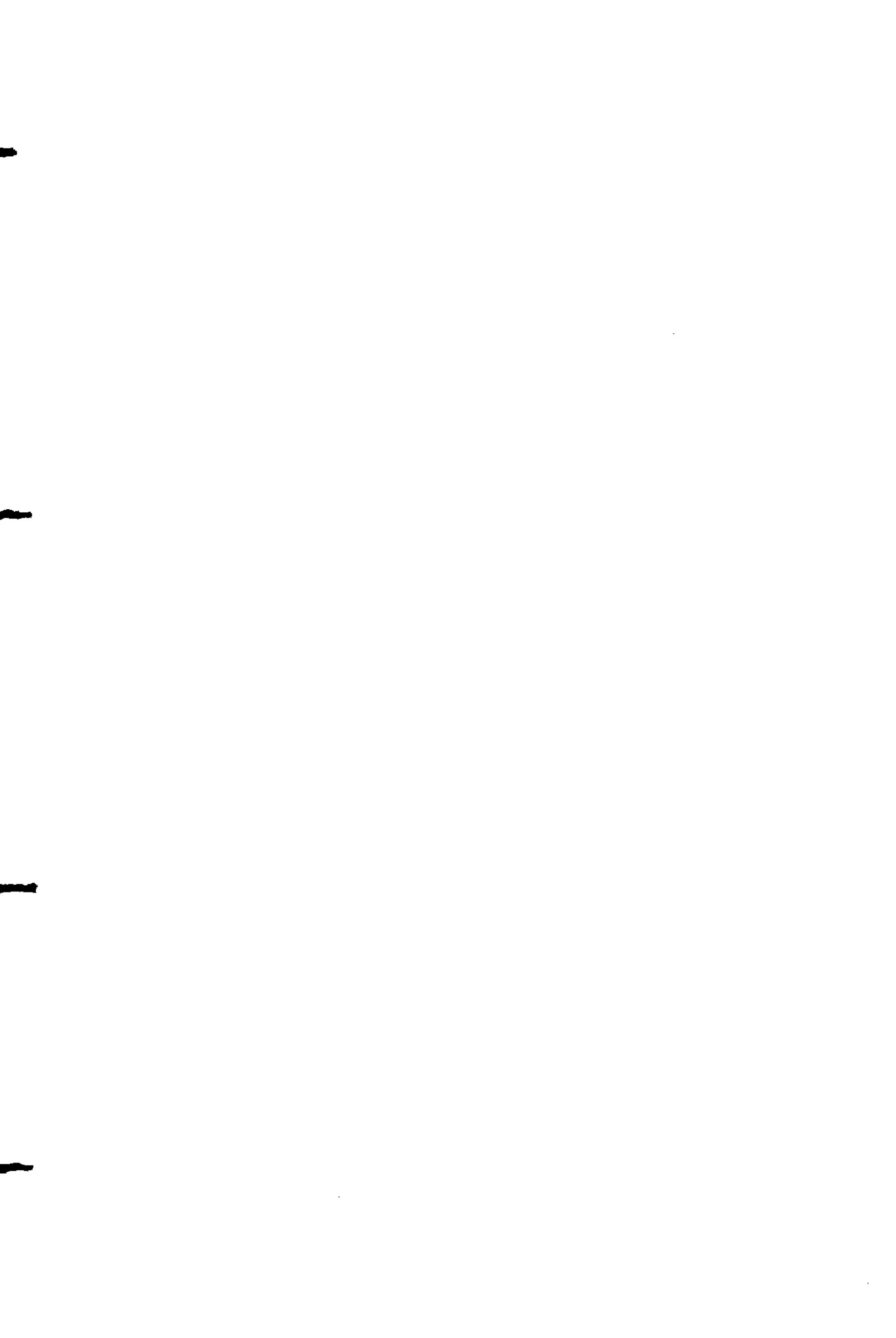
(١) ابن كثير ص ١١٣ ج ٣

الراوي. فيا حبذا لو استصدر المفتي العام قراراً بمنع تداول تلك الرسالة المحشوّة بالأكاذيب والخرافات العجيبة التي تسيء إلى الاسلام وتلحقه بالأساطير الباطلة وتدفع بعض العوام في الثقافة الاسلامية إلى إنكار الأمر بالكلية، ويا حبذا لو تكلف كلية الشريعة طالباً من طلابها الذين يعدون الرسالة الجامعية أن يجعل موضوعها تبيان كذب تلك الرسالة شكلاً وموضوعاً، وبذلك يُخدم الاسلام خدمة جليلة والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

٦ ـ حقيقة الايمان التصديق بكل ما جاء من عند الله تعالى وصح به الحديث سواء كان مما يدرك بالعقل والحس أولا، قال سبحانه: ﴿الٓمٓ. ذٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيبَ فيه هُدىً لِلمُتّقين. الذِينَ يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصّلاةَ ومِمّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقون﴾ فيجب دراسة علم التوحيد ضماناً لسلامة العقيدة وصيانة لها عن الزيغ والضلال التي لا تنفع معها طاعة بحال من الاحوال معاذ الله.

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين



الحسن البصري

نموذج للعالِم العامِل

للأستاذ

علي الطنطاوي

رجب ١٣٨٣

مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي لم يدع حجة لضال حين أنزل القرآن هدى للناس، وابتعث أكرم خلقه يقوم بأعظم شرح له، وقيَّض في كل عصر، من أجلاء عبيده من يقوم بأجل تطبيق. وصلى الله وسلم على رسوله الكريم، الذي بين بتربيته لأصحابه أهم أعمال العمل للاسلام، بالتربية العملية للدعاة اليه.

وبعد: فإن الطنطاوي معروف، والحسن أعرف، ولكن ما نراه من التقصير يحتاج من مثله إلى مثل هذا التذكير.

لجنة المسجد

الحسن البصري

نموذج للعالِم العامِل

نحن اليوم مع عَلم من الاعلام الشوامخ وإمام من الأئمة الكبار، ونادرة من نوادر الزمان، مع رجل ملأ في زمانه القلوب والعيون والاسماع، ولا يزال وقد مرَّ عليه ثلاثة عشر قرناً يملأ الاسماع والعيون والقلوب. مع رجل كان في الورع والتقوى آية ظاهرة، وكان في العلم بحراً زاخراً وكان في الفصاحة والبيان علماً مفرداً، وكان أعظم وعاظ الاسلام في تاريخه كله هو سيد التابعين، الحسن البصري.

وكان الوعاظ يُدْعَون القُصَّاص، وكان أكثرهم ممّن يتخذ الدينِ حرفة، والتقوى صناعة، يأكلون بها الدنيا، ويجمعون بها المال يمخرقون على العامة باللفظ الجميل والمظهر الخداع، والخشوع الكاذب، يتكلمون من ألسنتهم لا من قلوبهم، لذلك منع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القصَّاص من دخول المسجد في البصرة ولم يستثن إلا الحسن البصري، لأنه كان يقول الحق، ويروي الحديث الصحيح، لا يسرد الاسرائيليات ولا ينقل الموضوعات. ولأنه كان يتكلم من قلبه، يزهّد الناس في الدنيا وهو أول

الزاهدين فيها، لا يزهدهم فيها، ليخالفهم اليها ويزاحمهم عليها، ولا يأخذ منهم أجراً، ولا يقبل منهم هدية، ولا يتّخذ جاهه وسيلة إلى الحظوة عند الملوك، والقرب من السلاطين.

وكان الحسن نفسه حرباً على هؤلاء القصاص من علماء السوء الذينَ يدعون للآخرة ويطلبون الدنيا. ولقد قال فيهم كلمة الحق التي أُثِرت وحفظت:

دخل المسجد مرة ومعه فرقد، فقعد إلى جنب حلقة، فأنصت يستمع حديث أهلها وهم يتكلمون في الدين والزهد، ثم أقبل على فرقد فقال: يا فرقد، والله ما هؤلاء إلا قوم مّلو العبادة، وصعب عليهم العمل وقلَّ ورعهم، فوجدوا الكلام أهون عليهم، فتكلموا!

* * *

هو الحسن بن يسار البصري، وكان أبوه في الاصل عبداً مملوكاً من سبي ميسان، وكانت أمه كذلك، ولكن الله أراد لهما ولذريتهما الخير، وإذا أراد الله الخير لأحد، هيأ له أسبابه، فصار أبوه مولى زيد بن ثابت أحد أئمة الصحابة وعلماء الصدر الأول وصارت أمه خيرة مولاة لأم المؤمنين، وزوجة الرسول ﷺ أم سلمة، وكان من تمام حظه أن أمه كانت تغيب فيبكي فتعطيه أم سلمة ثديها، فربما در عليه اللبن من حنانها، فهل في التكرمة أكثر من أن يلتقم ثدي أم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ ؟!

وعاش بين الصحابة، فأقبل على العلم، ونشأ على التقوى وكان من الفصاحة والبيان في منزلة قل من بلغها من الأدباء. وقلما قرأت كلاماً أكمل ولا أجمل ولا أنبل من كلامه، ولقد شبهوه من قديم بكلام الانبياء وشهد له شيخ العربية وإمام أئمتها أبو عمرو ابن العلاء، بأنه كان هو والحجاج أفصح الناس،، قيل له فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

والعجب إن مناهج الادب في المدارس لم تعن بدراسة هذا النمطمن الكلام العالي المطبوع، وانما اشتغلت بالمتكلف المصنوع الذي خلّفه أمثال ابن العميد والصاحب (ابن عباد) من صفافي الكلام الخالي من الروح، الفارغ من المعنى، وتركت مثل ابن السماك الذي لا أكاد أعرف كلاماً أحلى وأبلغ من كلامه والعتابي وابن الجوزي في صيد الخاطر وتوقيعات بلغاء الخلفاء، وكتابات أدباء العلماء...

وهاكم طائفة من كلام الحسن البصري، لترؤا لوناً من ألوان البلاغة المطبوعة في كلام ملىء بالدين والعلم، والنظر السديد، والرأي الصائب، لا كمثل رسائل الصاحب في سخفها ورقاعتها وتكلفها ومجانبتها سبيل البلاغة الواضحة.

هذه كلمة له فيها من المعاني ما يُشرح في كتاب ويصلح منهجاً للحياة الخلقية الكاملة، ونتيجة لدراسة نفسية شاملة، في أقصر لفظ، وأوضحه وأجمعه للمعاني، حتى لكأنها من جوامع الكلم.

سئل عن الرجل الكامل الرجولة، والبطل الظاهر البطولة،

فقال: هو من يملك نفسه عند الرغبة والرهبة، وعند الشهوة وعند الغضب.

وانظروا إلى تعريفه الانسان في قصر عمره، وأنه يضيعه بغفلته وجهله. قال: ابن آدم، إنما أنت أيَّام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك. وانظروا إلى هاتين الصورتين البيانيتين، يرسمهما هذا العبقري البيِّن، بألفاظ معدودة، كما يرسم المصور اللوحة المعبِّرة بالخطوط القليلة. صورة في وصف أهل الخير والكمال من صحابة رسول الله ﷺ وصورة لعلماء السوء الذين يتخذون مظهر الدين، وزي التقى، سلماً، لنيل الأموال والحظوة عند الامراء.

أما الاولى فقد قال له بعض القوم، اخبرنا عن صفة أصحاب رسول الله ﷺ، فبكى، وقال: ظهرت منهم علامات الخير في السماء والسمت، والهدي والصدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا وكرهوا، واعطائهم الحق من أنفسهم، ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسادهم، واستخفوا بسخط المخلوقين لرضا الخالق. لم يفرطوا في غضب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله في القرآن؛ شغلوا الألسن بالذكر، بذلوا لله دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم، ولم يمنعهم خوفهم من المخلوقين؛ من انفاذ حكم الخالق. حسنت أخلاقهم، وهانت مؤونتهم، وكفاهم اليسير من دنياهم الى آخرتهم.

وأما الثانية، فإنه مرَّ بباب الامير ابن هبيرة فاذا هو بالقرَّاء على الباب، فقال ما يجلسكم ههنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء؟ أما والله ما مجالسهم بمجالس الابرار، تفرقوا فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد شمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم الله، أما والله لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، لكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيما عندكم.

ووصف الصالحين فقال: إن لله عز وجل عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة خالدين، وكمن رأى أهل النار في النار خالدين، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، حوائجهم خفيفة. وأنفسهم عفيفة، صبروا أياماً قصاراً تعقب راحة طويلة، أما الليل فصافَّة أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربَّنا ربَّنا؛ وأما النهار فحلماء علماء، بررة أتقياء، كأنهم القداح، ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويظنهم خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم.

* * *

وكان الحسن صدَّاعاً بالحق لا يسكت عن إنكار منكر، ولا تمنعه منه هيبة أمير، ولا بطش ملك، وكان حيناً يعرِّض تعريضاً، وحيناً يصرح تصريحاً، فمن تعريضه بالامراء وترفهم وسرفهم، وصفه رسول الله ﷺ بقوله:

لما بعث الله محمداً ﷺ يعرفون وجهه، ويعرفون نسبه، قال:

هذا نبِّي، هذا خياري، خذوا من سنته وسبيله، أما والله ما كان يغدى عليه بالجفان (الموائد) ولا يراح، ولا تغلق دونه الأبواب، ولا تقوم دونه الحجابُ، وكان يجلس على الارض، ويوضع طعامه على الارض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار. ثم قال: ما أكثر الراغبين عن سنة نبي الله وما أكثر التاركين لها.

ثم راح يُعرِّض بعلماء السوء الذين يفتون كل حاكم بما يرضيه فقال: ثم إن علوجاً فسقة، قد أضلّهم ربي ومقتهم، زعموا أن لا بأس عليهم فيما أكلوا وشربوا، وشادوا وزخرفوا. يقولون: من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ويذهبون بها الى غير ما ذهب الله بها اليه، في كلام طويل جليل تلقونه في حلية الأولياء لأبي نعيم الاصبهاني يقول ذلك في مجلس وعظه الذي كان يحضره عشرة آلاف من الناس.

* * *

ومن صراحته أن عمر بن هبيرة لما ولي العراق، أرسل إلى الحسن والشعبي وابن سيرين، والثلاثة من أعلام التابعين وأئمة المسلمين. فقال لهم: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي في أشياء، إن أطعته فيها أغضبت الله، وإن عصيته لم آمن بطشه وغضبه، فهل ترون لي في متابعتي إياه فرجاً، فتكلم الشعبي وابن سيرين كلاماً فيه تقية ومداراة والحسن ساكت؛ قال له: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟

قال: أقول يا عمر بن هبيرة؛ يوشك أن ينـزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، وإن تطع يزيد لا يعصمك من الله، يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر اليك الله على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، نظر مقت، فيغلق باب المغفرة دونك؛ يا عمر بن هبيرة: لقد أدركت ناساً من صدر هذه الامة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة؛ يا عمر بن هبيرة إن تكن مع الله في طاعته يردُّ عنك كيد يزيد بن عبد الملك، وإن تكن مع يزيد بن عبد الملك في معاصيه وَكلك الله اليه.

فبكى عمر حتى اخضل لحيته، وزاد في إكرامه على الشعبي وابن سيرين.

* * *

وكان له مع الحجاج مواقف عظام، لم يسكت عنه يوماً؛ ولم يكن في العراق والمشرق لسان يستطيع أن يقول الحق عالياً في الحجاج إلا لسان الحسن، وسلّمه الله منه باخلاصه وابتغائه وجه الله وحده؛ وكان يطلبه أبداً واختفى منه مرة في دار علي بن جدعان سنتين، ومرة في بيت أبي محمد البزاز. وأدركه الشرط مرة فساقوه إلى الحجاج؛ وأيقن الناس أنه قاتله؛ فلما رآه قال له: أنت الحسن؟ قال: نعم. قال: أنت القائل ما بلغني عنك. قال: وما

بلغك عني قال: قولك: اتخذوا عباد الله خَوَلاً وكتاب الله دغلاً، ومال الله دولاً، يأخذون من غضب الله. وينفقون في سخط الله، والحساب عند البيدر. قال: نعم. قال: وتكني بذلك عنا؟ قال: نعم. قال: ولم قلته ويلك؟ قال لما أخذ الله ميثاق الفقهاء في الأزمنة كلها ليبيّننه للناس ولا يكتمونه.

ثم قال له: كم بينك أيها الأمير وبين آدم من أب؟ قال: كثير. قال: أين هم؟ فأطرق الحجاج ساعة مفكراً. ثم قال: يا جارية الغالية (أي الطيب) فخرجت بها. فقال: ضمِّخوا رأس الشيخ ولحيته بالطيب. ثم قال: انصرف إلى أصحابك فنعم المؤدب أنت.

وانصرف وعاد إلى ما كان عليه، حتى بلغه موته، وهو مختف منه في المسجد فسجد شكراً لله.

* * *

وبعد فإن سيرة الحسن البصري أجلُّ من أن يتسع لها حديث أو أحاديث، وكيف وهو علم الاعلام، وواعظ الاسلام الذي بلغ من خلود اسمه أنه إذا قيل الحسن فقط انصرف ذلك اليه وحده.

وأختم هذا الحديث بوصف خالد بن صفوان إياه لما سأله عنه مسلمة بن عبد الملك. قال: اخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جنبه، وجليسه في مجلسه، وأعلم الناس به، هو أشبه الناس سريرة

بعلانية، وقولاً بفعل، إن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس كلهم محتاجين اليه.

رحمة الله عليه، ورضي الله عنه، واسأل الله أن يمن على أمة محمد ﷺ فيجعل فيها علماء من أمثال الحسن.

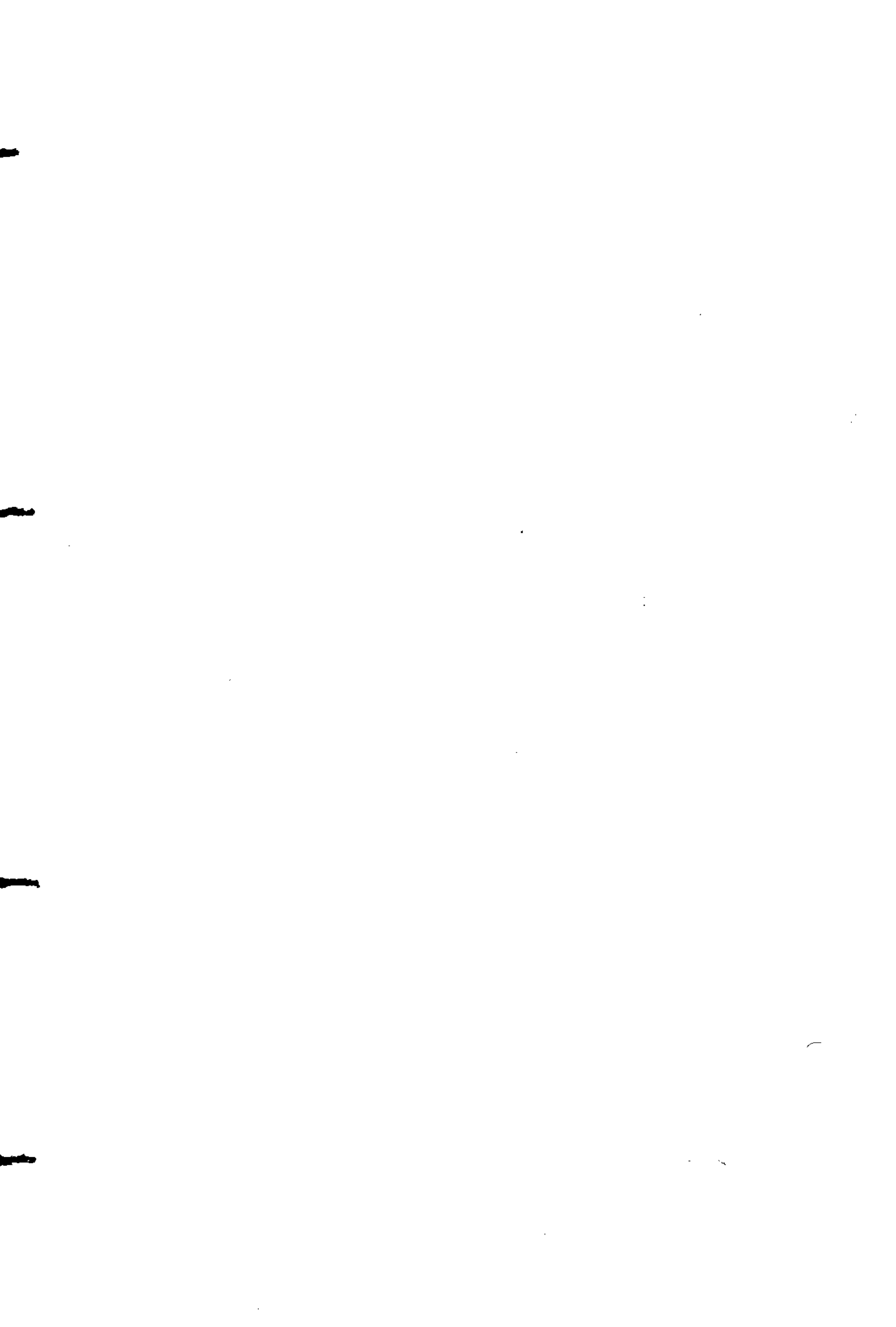
* * *

تاريخ مجيد ينتظر من يكتبه

للأستاذ

محب الدين الخطيب

شعبان ١٣٨٣



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

للاستاذ علي الطنطاوي

اللهم لك الحمد، وبك الإستعانة، ومنك التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بك . . اللهم صلي على سيدنا محمد خاتم المرسلين، وعلى خلفائه الراشدين، الهادين المهديين، وعلى آله وصحبه وبارك.

وبعد : فان مما قويت به الأمم الغربية علينا، وضعفنا به عنها، إجلالها عظماءها، وتدوينها سيرهم، واقتفاءها آثارهم، وذهابها في ذلك إلى أقصى ما يبلغ « الغرور القومي » فهي تسمو بهم . إلى ذروة العظمة، وتسلك إلى إحياء أسمائهم شتى الطرق، فتنشىء المعاهد على ذكراهم، وتفتح المدارس بأسمائهم، وتنحت التماثيل على صورهم [١]، وتؤلف الكتب في سيرهم وأخبارهم وتكثر منها حتى تخص الخُلق من أخلاق العظيم . . والصفة من صفاته، والعمل من أعماله بالكتاب الضخم، فينشأ الشاب من شبانها وقد ألمّ بسير العظماء من قومه، واستقر في نفسه ـ لطول ما

(١) أردنا من ذكر التماثيل بيان ماللقوم من عناية بعظمائهم، أو ما يحسبونه عناية، ويظنون أن فيه فائدة ونفعاً، ونحن بحمد الله مسلمون نعتقد أن نصب التماثيل حرام في ديننا . . وأن كل ما يقال في تجويزه هراء لا طائل تحته، وأن انفاق المئات من الدنانير على نحت صنم في أمة لا تزال تعوزها المدارس والمصانع ضرب من الجنون . .

سمع من الثناء عليهم بالحق وبالباطل ـ أنهم عظماء الدنيا، وأبطال العالمين.

أما الشاب العربي، فانه ينشأ نشأة يكاد يجهل معها عظماء أمته، لا يدري ما خبرهم، لأن أخبارهم متفرقة في بطون « الكتب القديمة » وقد نشَّؤوه على احتقار هذه الكتب، والزراية عليها، والانصراف عنها، ثم علّموه تعظيم « الكتب الجديدة » والاقبال عليها، والايمان بكل ما فيها.. فقرأها وآمن إيماناً لا شك فيه، بأن العظمة والعلم والخير كله إنما هو الذي يأتي من هناك.. وأن الضعة والجهل والشر كله إنما هو الذي يأتي من هنا. وأفهموه أن تاريخ نابليون ولويس الرابع عشر، هو تاريخ الانسان الراقي المهذب. وأن تاريخ الصِّديق والفاروق هو تاريخ البداة المتأخرين المتوحشين. فعرف من تاريخ نابليون أو لويس الرابع عشر كل صغيرة وكبيرة، وقرأه مفصلا ومختصراً، وحفظه وأعاده وناقش فيه.. وهو لا يعرف بعد، سيرة سعد بن أبي وقاص، ولم يسمع قط باسم القعقاع بن عمرو.

هذه الحال المخزية التي لا يصبر عليها مسلم، ولا تبلغها أمة إلا أوشكت أن تبلغ حافة القبر، الذي تدفن فيه تاريخها ومجدها وحياتها.. هي التي ستدفع الشاب المسلم، بعون الله، إلى الرجوع الى تاريخه، ليعيه ويكتبه من جديد ثم يكون امتداداً لهذا التاريخ كما يقول الاستاذ محب الدين الخطيب.

لجنة المسجد

تاريخ مجيد ينتظر من يكتبه

الحمدلله ، وصلى الله على واسطة عقد الانسانية سيدنا محمد ، وعلى القائمين برسالته من خلفائه وأوليائهم وأنصارهم والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فان تاريخ الأمة هو الأمة . وكل جيل من أجيالها حلقة من حلقاتها الممتدة بين الأزل والأبد . والجيل المعاصر إحدى هذه الحلقات ، وسيكون له تاريخ ، وسيكون تاريخه فصلاً من تاريخ أمته ، وسيكون من تاريخه علمه بتاريخ أمته ووفاؤه لها أو جهله به وبغيه عليها .

وكما ينبغي للمرء أن يعرف نفسه وما مرّ به من يسر وعُسر ، ينبغي للجيل كذلك أن يعرف ماضي أمته وما صدر عنها من خير وشر ، وما قامت به للحق والفضيلة من نصرة أو تقصير . لأن الجيل امتداد لأمته ، وهو منها وقبيح به أن يجهلها ، كما أنه قبيح بالمرء أن يجهل نفسه . وتاريخ كل أمة فيه الأمجاد والفضائل وما تثمره من أسوة وقدوة وفيه الأخطاء والزلات وما تفيده من عظة وعبرة . والمؤرخ هو مربي الجيل الرفيق به الذي يحسن تنبيه الجيل إلى مواطن الأسوة والقدوة من رسالة أمته وسننها وأمجاد عظمائها وفضائلهم ، ويترفق بايقاظه للاعتبار بأخطاء الماضي وزلاته والاتعاظ بها .

حدثني القائد العسكري الكبير عزيز علي المصري في إحدى

زياراته لدار المطبعة السلّفية ومكتبتها لمّاً كانت في شارع خيرت بالقاهرة قبل نحو ثلاثين عاماً قال : لقد لاحظت عجباً في هذه الكتب العربية التي دوّن فيها المؤرخون تاريخ أمتنا، إنهم يختلفون كل الاختلاف عن مؤرخي الأمم الأخرى. لقد قرأت كثيراً من كتب التاريخ الفرنسية والألمانية والانكليزية؛ فرأيت المحققين من مؤلفيها يلتزمون الحقيقة غالباً في عرض الوقائع؛ غير أنهم يحيطون أخطاء الماضي بالظروف التي أدت إلى وقوع تلك الأخطاء، حتى ليكاد القارىء يعذر المخطئين فيما صدر عنهم، ثم يستنتجون العبرة من ذلك ليستفيد الخَلف من أخطاء السَلف فيتفادوا تكررها ويجتنبوا الوقوع في أمثالها، ويخرج المؤلفون والقراء من مثل هذه المواقف بالاحترام التام لسلفهم حتى عندما يكونون مخطئين. وإنما جنح الغربيون إلى التزام هذا الأسلوب في كتابة تاريخهم لأنهم يعتبرون أنفسهم جزءاً من الامة التي يدوِّنون تاريخها، إن لم يكونوا جزءاً من الانسانية التي يصفون أطوارها وأحوالها. فالمحققون منهم لا يخرجون عن مقتضى الأمانة في تسمية الصواب صواباً والخطأ خطأ، غير أنهم يحسنون عرض الصواب فيراه القارىء بجماله الرائع، ويدرسون ظروف الخطأ ونواحي العذر فيه لمن صدر عنهم، كما يُدلون بأعذارهم لو كانوا هم المخطئين، وبهذا تستفيد الاجيال العبرة، وبهذا يؤدِّي التاريخ مهمته.

وأحب أن يعرف شباب الجيل أن الامة العربية الممتازة بصفاء فطرتها وجَودة مداركها وكريم معدنها، وأن الملة الاسلامية التي

تحمل أكمل رسالات الله وأصدَقها وأسماها، لم يُكتب تاريخها بعد.. ولكن من نعم الله علينا نحن الخلف لذلك السلف، أن المادة الجيدة النقية ـ التي سنشعر بالحاجة إليها عند تدوين تاريخ أمتنا وملتنا ـ موجودة ولله الحمد في تضاعيف كتب الاخبار، وفي تحقيقات أئمة السنّة وعلماء الحديث، وفي كل منها سِمة جَودته، ونورٌ من الله يرشد إليه.

غير أن مما يؤسف له كون هذه المادة الجيدة من مواد تاريخنا مشوبة بغيرها من سقيم الاخبار، وبالأكاذيب المفتراة على عظماء الأمة الذين صنعوا التاريخ ونشروا الإسلام، وأوجدوا هذا العالم الاسلامي الذي نعيش فيه ونحن المسلمين إذا تحدثنا في خطبنا ومحاضراتنا ومقالاتنا عن صدر الاسلام نعترف جميعاً بأنه معجزة من معجزات التاريخ الانساني، وأن أهله نشروا دعوة الحق وحرّروا الانسانية من عبوديتها للارباب المخلوقة، والاوهام الزائفة، وطغيان الحكم، وطغيان المال، وطغيان البغي بكل أنواعه، وأنهم جددوا شباب العلم والمعرفة، وأقاموا معالم العمران، ووطدوا دعائم العدل، وعمموا التعامل بالاخلاق الحسنة والفضائل. كل هذا نذكره ونتغنى به في مجامعنا وجمعياتنا ومنشوراتنا، لكننا إذا أردنا أن نتحدث عن شخصيات التاريخ التي صنعت ذلك كله، كالشخصية التي تمت هذه المعجزة على يدها في مصر [1]، والشخصية التي أنشأت الاسطول الاسلامي

(١) عمرو بن العاص رضي الله عنه.

الأول [1] لنشر دعوة الحق في ظل الشراع بحراً، كانتشارها في ظل اللواء براً، والشخصيات التي توغلت جيوشها في إسبانيا وإيطاليا وفرنسا غرباً، وفي فارس والسند والقفقاس وما وراء ذلك شرقاً، فاننا ننسى حينئذٍ أن هؤلاء هم الذين صنعوا المعجزة التي كنا نتغنى بها، وننسى أنهم هم الذين ترك لنا التاريخ في تضاعيفه أصدق الثناء عليهم في المادة الجيدة النقية التي عليها نورٌ من الله يرشد إليها، فنعرض عن هذا كله، ونتعلق بسقيم الاخبار، وبالأكاذيب المفتراة على هؤلاء العظماء، فنكوّن منها صوراً لهم في أذهاننا لا تمثل حقيقتهم، ولا تتفق مع أخلاقهم وعدلهم وبطولتهم وآثارهم الماثلة أمام أنظارنا في دنيا الواقع.

إن الذين صوّروا لنا شخصيات صدر الاسلام في الكتب التي بين أيدينا، والذين رووا لنا أخبارهم أو دوَّنوها، ينقسمون إلى أصناف متعددة. منهم الاخيار الذين عاصروا الصدر الأول وكانوا يرون أبا بكر وعمر هما المثل الأعلى للحاكم المسلم، فحكموا بالتقصير على من قصرَّت سيرته عن سيرتهما ممن جاء بعدهما، مع أن هؤلاء الذين جاؤوا بعد أبي بكر وعمر هم الذين صنعوا المعجزة التي نتغنى بها، وهم الذين نشروا دعوة الاسلام، وهم الذين جددوا للانسانية شبابها بالاسلام، وهم الذين حملت أساطيلهم وجيوشهم راياته فخفقت في آفاق أوروبا غرباً، وأعماق

---

(١) معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

آسيا شرقاً، وأرست قواعد الرسالة المحمدية في العالم الاسلامي الذي نعيش فيه. والذين يناقضون أنفسهم منا في مدح المعجزة وذم أصحابها قد خدعتهم الأخبار المكذوبة التي بُثت في تضاعيف الروايات لغرض مذهبيّ، أو تملقاً لمقامات سياسية كانت تشجع على ذلك. فصرنا إذا رأينا إمام السنة سليمان بن مهران الاعمش ـ وكان يسمى « المصحف » لصدقه ـ يثني على معاوية في صدر دولة بني العباس ويقول « إن معاوية كان والله أعدل من عمر بن عبد العزيز » نتعجب من هذا القول إذا سمعناه، لأنه يخالف الصورة المزيفة التي كوّناها في أذهاننا لمعاوية ولكثير من الشخصيات التي تمت على أيديها معجزة تكوين هذا العالم الاسلامي.

والآن وقد أصبح التاريخ حاجة من حاجات الثقافة القومية والمِلِّيَّة للعرب والمسلمين، فقد آن لعلمائنا أن يعيدوا النظر فيه، لينشؤوه، من جديد إنشاءً منزَّهاً عن الاغراض المذهبية والملق السياسي، ويتفق مع نتائج الاحداث، وحسن التقدير لمقوّماتها، والوفاء لكل من أحسن تمثيل دوره في إقامة بنيان الحق، وحمل نصيبه من رسالة الاسلام وأخلص النصيحة للانسانية بتعميم دعوة الحق والتقدم بها إلى أقصى الآفاق.

ومما امتاز به أعلام الاخبار بين قدماء علماء المسلمين إيراد الاخبار معزّوه إلى رواتها، وقد التزموا ذلك فيما يتعلق بأحداث صدر الاسلام على الاخصّ، غير أنهم أوردوا روايات أهل النزعات والمشارب المختلفة، فمن الواجب على من يتخصصون

بعد الآن في بعث التاريخ الاسلامي أن يستقصوا الروايات فيما يتعلق بكل حادث، ثم يدرسون مكانة رواتها من الصدق والامانة واحداً واحداً، وهل لقي كل واحد منهم الراوي الذي يدّعي انه تلقى هذا الخبر عنه، وهل كانت سنه وظروفه التاريخية والجغرافية تؤيده في ذلك. وتقارن هذه الاخبار بعضها مع بعض، وترجَّح منها روايات أعلام المحققين من الرجال الذين يثق بهم علماء الحديث النبوي ويأتمنونهم على ما يروونه منه. وبذلك تمحص تراجم عظماء الامة وقادتها الذين تمت الاحداث على أيديهم. ومتى خرجنا من هذه الدراسات بتنظيف ماطرأ على سير هؤلاء العظماء من دسائس المغرضين بدوافع مذهبية أو سياسية على قاعدة «أنَّى لك هذا؟!» أمكننا أن نستعين بهذه التراجم النظيفة على تدوين حوادث التاريخ الاسلامي العام بأمانة وطمأنينة وتحقيق كما لو كنا معاصرين لها.

ومما ينبغي لنا الاعتراف به من مظاهر تقصيرنا في الوفاء لمن نحن الآن مسلمون بسببهم، أننا ـ بقدر إهمالنا لبقعة الفسطاط التي ظهر منها نور الاسلام في مصر، والتي منها انتشر هذا النور إلى ليبيا وتونس وما وراءها حتى دخل أوروبا، فبلغ من إهمالنا لهذه البقعة أن تحولت إلى جيَّارات ومقابر للارمن والروم واليهود ـ قد أهلمنا بقدر ذلك وبأكثر منه معرفة أقدار العلماء الذين أقاموا مدينة الفسطاط وحملوا إليها دعوة الاسلام، ثم نشروا منها هذه الدعوة في مصر وشمال أفريقيا، وكان من تمام عظمتهم أن تمكنوا من إحداث

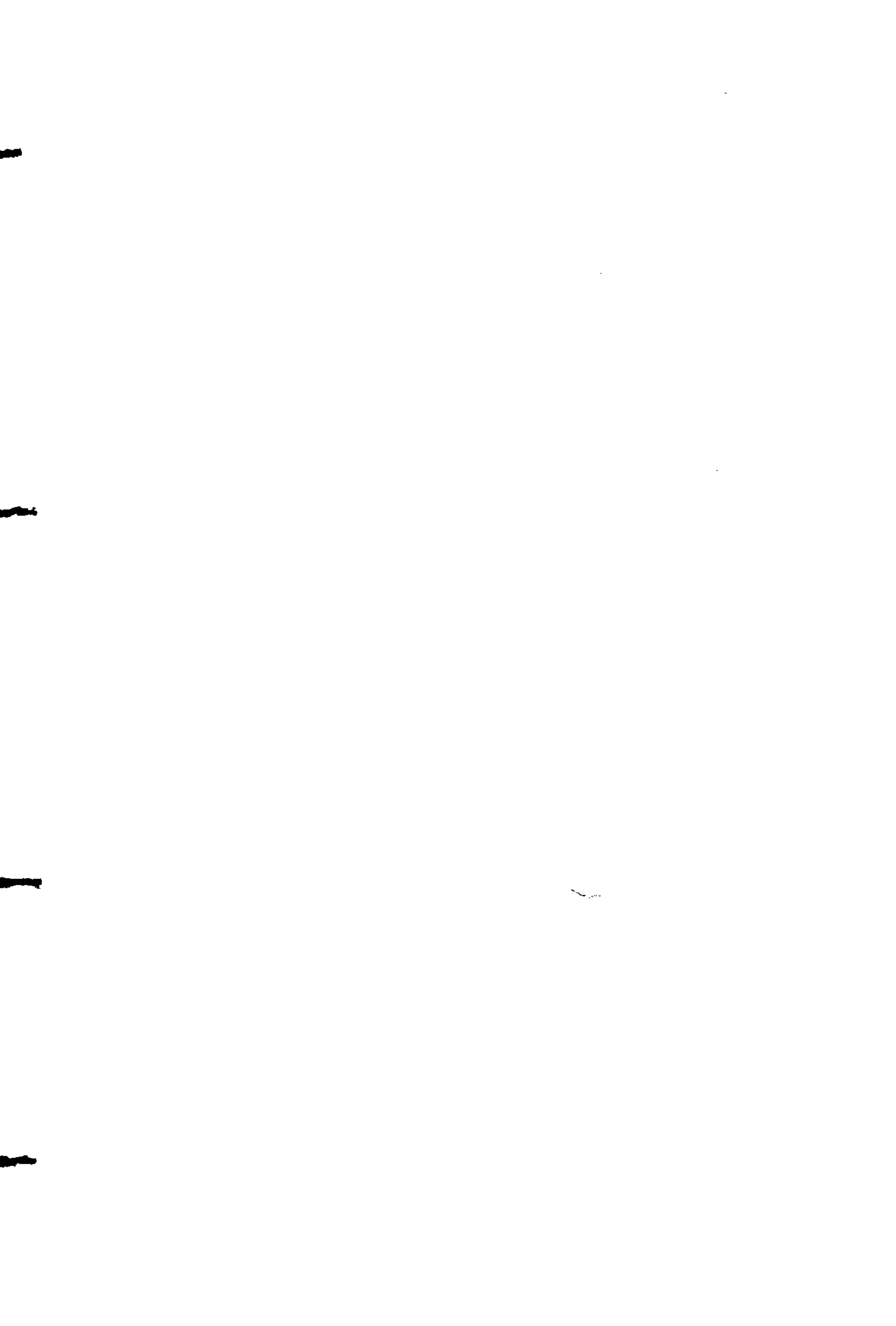
أعظم انقلاب اجتماعي في قومية مصر ولغتها وأدبها ونظام حياتها، ولو لم يفعلوا إلا هذا لكان هو بنفسه معجزة تستحق أن تقيم له مصر حفلات التذكير السنوي باليوم الذي صارت فيه مصر بمكان القلادة من وطن العروبة والاسلام. فتقصيرنا في معرفة أقدار العظماء الذين صنعوا ذلك هو الذي أدَّى بنا إلى بقاء تاريخنا كالجثة الميتة، فبقينا بعده كالأموات، لأن بعثنا متوقف على بعثه، فاذا عرفناه عرفنا من نحن وعرفنا طريقنا إلى المستقبل.

يقول هادينا الاعظم ﷺ: « خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم » والذين صنعوا أعظم مفاخر التاريخ الانساني هم ولاة أمر المسلمين من الصحابة والتابعين والتابعين لهم باحسان. وتاريخ هؤلاء العظماء كُتب مشوهاً، ودُسّ فيه ما أفسد عظمته. وفي تضاعيف كتبنا من الحقائق ما نستطيع أن نصلح به هذا الفساد باخراج كتب في سير أعلام الاسلام وتراجمهم ترد الحق إلى نصابه.

ان التعليم الاستعماري كان يعلم أن بعث التاريخ الاسلامي على حقيقته في مدارس الاوطان الاسلامية سيترتب عليه البعث الحقيقي للاسلام وسننه وأهدافه في نفوس المسلمين، ولذلك كان حريصاً على أن يحول بين المسلمين وبين بعث تاريخهم.

فهل آن لنا أن ندرك هذه الحقيقة، وأن نتحرر من هذا الكيد الاستعماري؟

أظن أنه قد آن لنا ذلك، وأرجو أن نفعل.



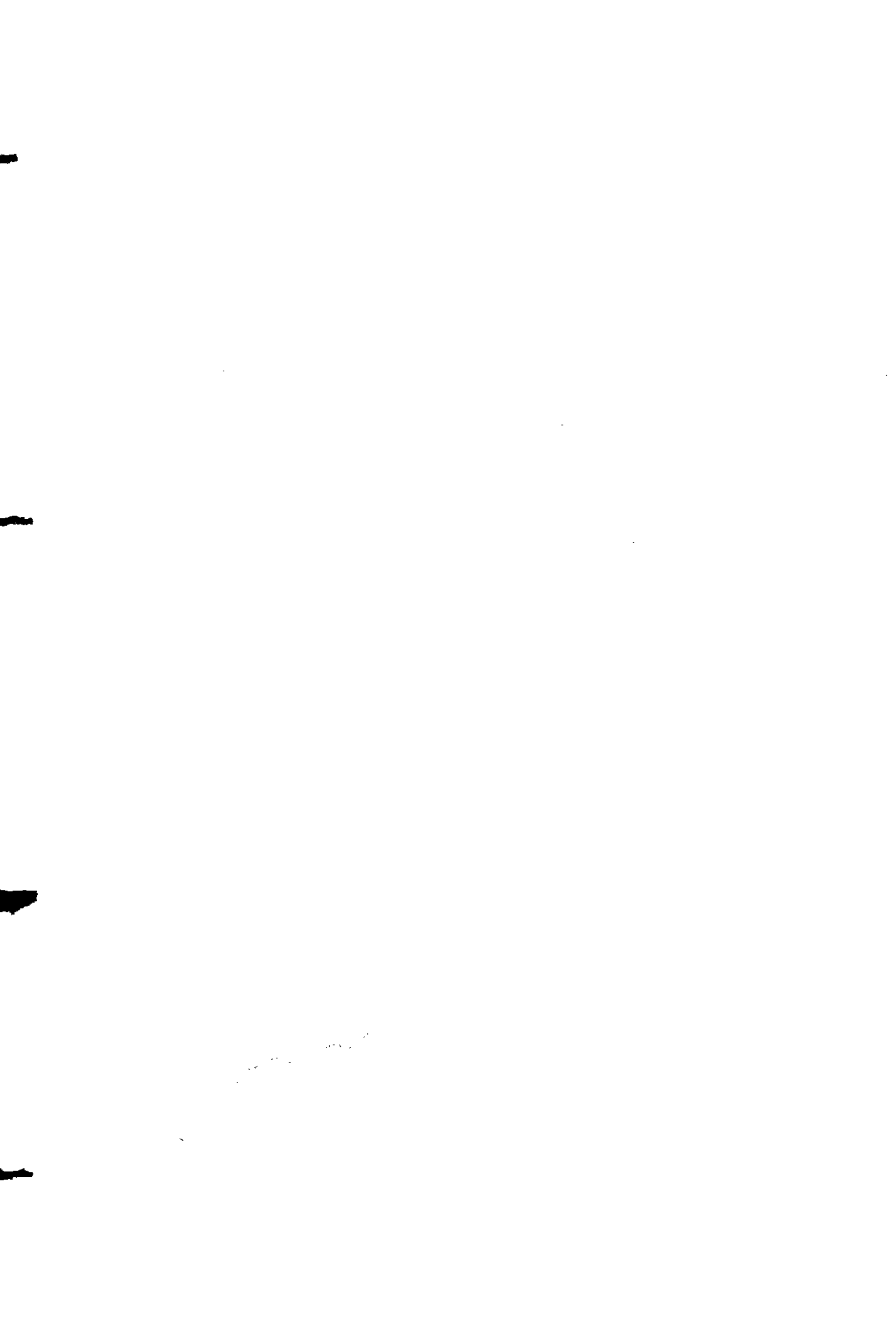
الليث بن سعد

جمع بين الدين والدنيا

للأستاذ

علي الطنطاوي

شعبان ١٣٨٣



مُقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أقام للحق دعائمه وأركانه، ونصب للخير دعاته وأعلامه. وصلى الله وبارك على نبيّه الكريم الذي بعث من دنيا الجهل والضعف والفساد، أمّة الخير والعزة والهدى، وربّى من أصحابه من قام بهم ذلك الجيل المثالي الذي لم تر الحياة قبله مثله ولن ترى الدنيا بعده مثله!

وبعد، فان الأمة، ليست باتساع أرضها، ولا بكثرة أفرادها، ولا بثرائها وغناها، ولا بعمرانها ولا بمصانعها ولا بجيوشها، وإنما قيمة الأمة برجالها الممتازين، الذين تؤهلهم نفوسهم الكبيرة، وشخصياتهم القوية، وعلمهم الغزير، وفكرهم العميق، وخلقهم الرفيع، ونشاطهم العظيم، وإخلاصهم وصدقهم وصبرهم ومجاهدتهم وجهادهم، ليكونوا السادة القادة، الدعاة الهداة..

القرآن العظيم يأمر بهذا ويدفع اليه، والرسول الكريم يبيّن ويحضّ عليه، وأعلام الإسلام في جميع العصور والأمصار، حجة على الضعفاء الخاملين، والأذلة الخانعين، وحث للشباب المتحرر من الدنيا وسفاسفها، والنفس ووساوسها، المصمم على الجد

والجهاد، كي يتجه إلى الخير فلا يصدف عنه، ويعرف قيمة الجنة فيسعى لها سعيها وهو مؤمن.

ولعل في سيرة الليث مذكر لمن رغب عن حياة الجِراء، ورغب في حياة الأشبال..

لجنة المسجد

الليث بن سعد

جمع بين الدين والدنيا

علَمٌ شامخ من أعلام الاسلام، وإمامٌ من أئمة الفقه الكبار، أصحاب المذاهب المتَّبعة، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاءً، ونبلاً ورفعة، وسخاء وكرماً، أجمعوا على أنه نظير الإمام مالك في الفقه، وعديله في الاجتهاد، وأنه كان لمصر مثل مالك للمدينة، لا مفتي ومالك في المدينة، ولا مفتي وهو في مصر، وهو أعظم جاهاً من مالك، وأكثر مالاً وأوسع ديناً، بيد أن الله قيّض لمالك مَن دوَّن علمه، وكتب مسائله وحرر مذهبه فصار أحد المذاهب الأربعة الباقية، وذهب مذهبه هو فيما ذهب من المذاهب التي كانت يوماً معروفة متبعة مقلدة، وكاد ينسى اسمه فلا يعرفه إلا العلماء، على حين يعرف أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد كلُّ مسلم.

فهل عرفتم الآن من هو؟

هو الذي جمع الله له الدنيا والدين، والجاه والتقى، وكان سيد مصر، أمرُهُ قبل أمر الولاة، وحكمه فوق حكم القضاة، وكان دخله من أملاكه ما بين عشرين وثمانين ألف دينار في العام - ثمانين

الف ليرة ذهبية ـ ولم تجب عليه زكاة قط. . لأنه لم يكن يحول عليه الحول وعنده منها شيء.

هو الامام العالم الليث بن سعد

ولد في قرية مصرية سنة ٩٤ للهجرة، أي قبل نحو ألف وثلاثمئة سنة، ولم يشغله غنى أهله عن طلب العلم والرحلة به، لا كما يرحل أكثر الطلاب الآن إلى أوروبا وأميركا، بل كما يرحل السلف، يرحلون ليتلقوا العلم، ويتلقوا قبله الدين والتقى والسلوك الاسلامي، ويجتمعوا بالعلماء العاملين، الصالحين المصلحين، وقد أخذ عن علماء مصر، ثم حج ولقي ائمة الحجاز عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة بن الزبير، وقتادة، وأمثالهم. ثم رحل إلى العراق فأخذ عن علمائه.

وهاكم قصة من قصص دراسته :

حج هو وابن لَهيعة، قاضي مصر ومحدثها، ولقيا العلماء معاً، وكان من علماء الحجاز نافع. . ـ مولى ابن عمر ـ فرآه الليث فعرفه، ولم يكن يعرفه ابن لَهيعة فتبعه حتى دخل وكان علّافاً، فسلم عليه، فقال له : من أنت؟ قال : من قيس. قال : ابن كم؟ قال ابن عشرين. قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين، ثم قعد معه فحدثه أحاديث وأذن له أن يروي هذه الأحاديث عنه. فرآه ابن لهيعة، قال : من هذا؟ قال : مولى لنا ـ وتعرفون أن المولى في اللغة من أسماء الأضداد، فالسيد مولى، والتابع مولى ـ فأوهم ابن لهيعة لئلا يشاركه الرواية عنه.

فلما رجعا إلى مصر، صار الليث يقول، حدثنا نافع عن ابن عمر، فأنكر عليه ذلك ابن لهيعة، وقال : أين لقيته؟ فضحك وقال : أما رأيت العبد الأسود الذي كان في دكان العلاف؟ هو ذاك.

* * *

وبلغ منزلة في الحديث والفقه شهد له فيها أكابر العلماء :

قال الشافعي : الليث أفقه من مالك، ولكن أصحابه لم يقوموا به - أي لم يدوّنوا علمه فضاع مذهبه واندثر- . . وقال أحمد ابن حنبل : ما في المصريين أثبت من الليث، وكان يقول : الليث ابن سعد، ما أصح حديثه! . .

. . وروى عنه مالك ولم يصرح، وكل ما كان من الموطأ من قوله (وأخبرني من أرضى من أهل العلم) فإنما يعني به الليث بن سعد. . وكان الشافعي يقرأ في درسه مسائل الليث، فمرت مسألة فقال أحد الحاضرين : أحسن والله كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهيب : بل كأن مالكاً يسمع الليث يجيب فيجيب هو. والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أفقه من الليث.

وعرض عليه المنصور ولاية مصر فأبى وأصر على الإباء، فقال : دُلني على رجل صالح، فقال : عثمان بن الحكم الجذامي. أفتدرون بما كافأه عثمان؟ لما جاءته الولاية كرهها وتألم منها وسأل : من دل أمير المؤمنين علي، قالوا : الليث. . فحلف

ألا يكلمه أبـداً. . لأنه سبب له هذا الأذى، يعني ولاية مصر يا أيها القرَّاء. .

هكذا كانت اخلاق علمائنا وصلحائنا.

* * *

وقال يعقوب وزير المهدي : قال لي أمير المؤمنين لما قدم الليث بغداد : الزم هذا الشيخ فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه.

ومعنى ذلك بعـرف العصر، أن الخليفـة أمـر وزيره الأكبـر، بمرافقته بنفسه، أيام زيارته (العاصمة)!

وكان له مع الخلفاء حوادث طريفة، منها أنه جرى بين هارون الرشيد وبين بنت عمه (زوجته) زبيدة كلام فقال لها : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة.

ثم ندم فكتب إلى البلدان، فجمع علماءها إليه، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم، فاختلفوا. وبقي الليث لم يتكلم فسأله، فقال إذا أخلى أمير المؤمنـين مجلسـه، فصرفهـم، فقـال : أتكلـم على الأمان؟ قال : نعم. فأمر باحضار مصحف فأحضر. قال اقرأ يا أمير المؤمنين سورة الرحمن فقرأها حتى وصل الى قوله تعالى « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَان »

قال : أمسك يا أمير المؤمنين، قل : والله. .

فصعب على الرشيد أن يحلِّفه، فقال الشرط يا أمـير المؤمنـين.

فحلّفه بأشد الايمان، أنه يخاف مقام ربه. فلما حلف، قال: هما جنتان يا أمير المؤمنين لا جنة واحدة.

فسمع التصفيق وصياح الفرح من وراء الستر.

وسأله: ماذا تطلب، قال: يا أمير المؤمنين، أما لنفسي فقد أغناني الله بفضله، ولكن أطلب صلاح بلدنا، وصلاحه بإجراء النيل، وصلاح أميره.

فأمر أن يكون والي مصر وقاضيها تحت أمره، وكان إذا رابه من أحد شيء كتب فيه فيعزل.

من ذلك أن قاضي مصر اسماعيل بن اليسع لا يرى لزوم الوقف [1] فكتب فيه: « إنا لم ننكر عليه شيئاً ولكن له رأياً في الوقف لا نرضاه ».. فورد كتاب الخليفة بعزله.

فلما جاءه العزل، قال له: يا أبا الحارث. لقد أتعبت نفسك، والله لو أمرتني بالخروج لخرجت!

* * *

وكان له كل يوم أربعة مجالس، مجلس يأتيه فيه الوالي ونوابه يسألونه ويسترشدون برأيه، ومجلس لأصحاب الحديث ومجلس للفقه، ومجلس لأصحاب الحاجات.

وكان يعيش معيشة الملوك، وقد قُوِّمت ثيابه مرة ودابته بثمانية عشر ألف درهم، أي بألف دينار ذهبي وكان لبَّاساً.

(١) أي أنه يرى جواز رجوع الواقف إن شاء. وذلك مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

وكان إذا رحل، رحل بثلاث سفائن : سفينة له ولأضيافه وتلاميذه، وسفينة لعياله، وسفينة لمطبخه وخدمه.

وقال كاتبه (سكرتيره) عبد الله بن صالح : صحبت الليث عشرين سنة، فكان لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس ولا يأكل إلا الألوان الكثيرة باللحم الوافر، وكان كل من جاءه من التلاميذ يأكل وينام وينفق على حسابه، لا يكلفه من ماله شيئاً، وإذا أراد السفر، أعطاه نفقته وزاده!

وكان يتخذ الفالوذج والحلوى لأصحابه، ويضع فيها الدنانير، ليرغبهم بذلك في الأكل ويغنيهم!

وكانت له موائد عامة للناس، يطعمهم فيها الهرايس بعسل النخل وسمن البقر في الشتاء، وباللوز والسكر في الصيف.

وكان يعطي العلماء رواتب دائمة، منها مائة دينار للامام مالك، وكتب اليه مرة أن عليه ديناً فبعث اليه بخمسمائة دينار، وكتب مرة أخرى : « أني أريد أن أزوج بنتي فابعث لي بشيء من عِصْفِر ». وكان يومئذ غالياً، وكانوا يصبغون به الثياب ويسمونها المُعَصْفَرات فبعث اليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً، فصبغ منه لابنته وباع منه بخمسمائة دينار، وبقيت عنده فضلة...

ولما حج أهدى اليه مالك طبقاً فيه رطب، فأخذه ورد الطبق وفيه الف دينار!

ولما احترقت دار ابن لهيعة أعطاه الف دينار، ووصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار!

وأتاه مرة سائل فأمر له بدينار، فأبطأ الغلام فجاء سائل آخر، فقال له الاول -: اسكت، فسمعه الليث؛ فقال : مالك وله! دعه يرزقه الله، وأمر له بدينار آخر.

قال منصور بن عمار (القاضي) : كنت يوماً عند الليث فأتته امرأة ومعها قدح فقالت : يا أبا الحارث زوجي مريض وقد وصف له العسل، قال : اذهبي الى الوكيل فقولي له يعطيك. فجاء الوكيل يسارُّه فقال : اذهب فاعطها مطراً (أي مئة وعشرين رطلاً) إنها سألت بقدرها فاعطيناها بقدرنا.

واشترى منه قوم ثمرة بستان له ثم ندموا واستقالوه (طلبوا الرجوع عن البيع) فأقالهم، ثم استدعاهم فاعطاهم خمسين ديناراً، وقال : إنهم كانوا أمّلوا ربحاً فأحببت أن أعوضهم.

* * *

لقد كان الليث بن سعد يا أيها القراء، نموذجاً لطراز من العلماء، نتمنى أن نعود فنرى أمثاله في هذا العصر. أن نرى علماء يكون لهم مثل هذا العلم، وهذه الامانة في نقله، وهذا العقل الكبير، وهذه الكياسة في معاشرة الملوك، وهذه المنزلة وهذا الجاه، وأن يكون لهم (خاصة) مثل هذا المال الذي يستغنون به [1]، المال

---

(١) والإسلام لا يحارب الغنى ان كان من حلال، ولا يحرم جمع المال. . والغني إن أدى زكاة ماله ما لم يكن ممن يكنز الذهب والفضة، ولم يكن عليه عقاب.

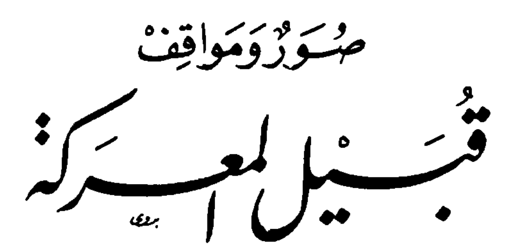
الذي يحصلونه بجدهم وكدهم، لا الذي يجمعونه بمد أيديهم إلى الناس، وأن يكون لهم مثل هذا الاحترام.

* * *

وتوفي الليث يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٧٥ وعمره إحدى وثمانون سنة على التمام.

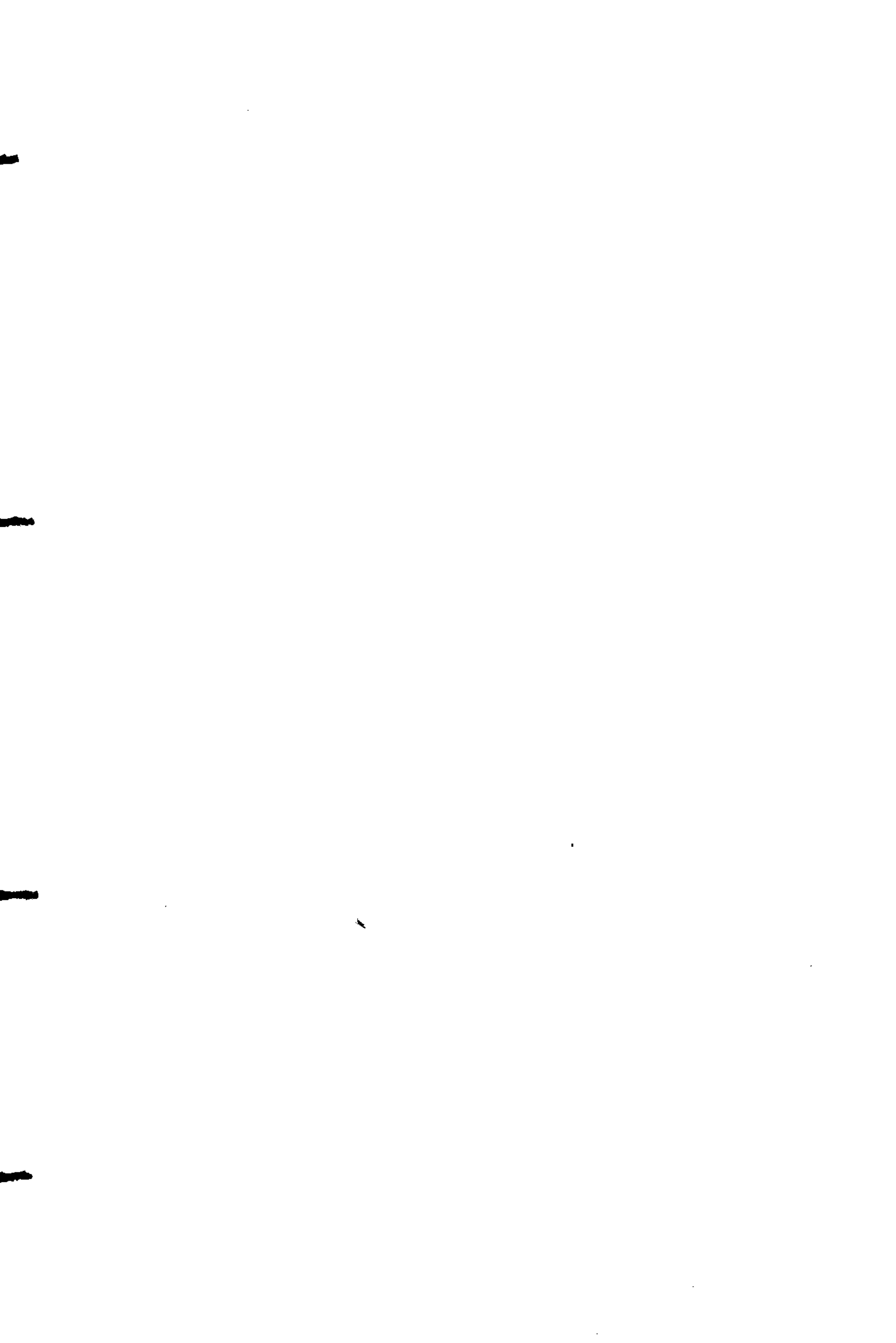
قال خالد بن عبد السلام الصدفي : شهدت جنازة الليث مع أبي، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها، ولا أظن أنه سيكون أعظم منها أو أكثر من أهلها، ورأيت الناس كلهم في جنازته سواء في الحزن يعزي بعضهم بعضاً ويبكون.

قلت : يا يا أبت : كأن كل واحد من هؤلاء هو صاحب الجنازة! فقال : يا بني كان عالماً كريماً، كبير العقل، كثير الافضال، يا بني ، لن ترى مثله أبداً.



للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

صور من بدر قبيل بدر

الحمد لله الذي أمر عباده بالدعوة إليه، وأمر بإعداد القوة لحياطة دينه والمحافظة عليه. وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الكريم الذي كان، في جميع الأمور، يخوض المعارك الفاصلة، ليسير المسلمون على نهجه فيكونون أقوياء أعزاء، قادة سادة، أباة هداة. وبعد:

فإن كتابَ الله عزّ وجلّ المنبعُ الثرّ للهدى والحق والخير، وسيرة رسول الله ﷺ وسير أتباعه، هي السجلّ الخالد للبطولات والأمجاد. فيهما يجد المسلم النور الذي يضيء له الطريق، ومنهما يفوز بالقوة التي تحفزه إلى الخير، وتعصمه من الزلل، وتمنعه من الانحراف، وتدفعه للتغلب على الصعوبات التي تقوم بينه وبين بلوغه الجنة. وما فاز من فاز إلا منهما وبهما، ولا خسر وهلك إلا من غفل عنهما وتركهما.

وبدر هي الفيصل بين عهدين، وفيها من الصور المثيرة والمعاني الرفيعة ما يتعذر حدّه وحصره..

- ١ -

ومن أوائل الصور التي نصادفها فيها، صورة الكتيبة المؤمنة،

يزيد أفرادها قليلاً على ثلاثمائة، ليس لهم إلا سبعين بعيراً، يعتقبونها فكان رسول الله ﷺ هو وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنهم يعتقبون بعيراً. أبى عليه الصلاة والسلام إلا أن يواسي أصحابه بنفسه، ويكون فيهم كأحدهم، حتى يبين الشكل الصحيح للأمير الأمين في المجتمع السليم.

- ٢ -

ونسير مع كتيبة الإيمان فنرى رسول الله ﷺ لما أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، يستشير الناس ويخبرهم عن قريش، فيقوم أبو بكر الصديق فيقول فيحسن، ثم يقوم عمر بن الخطاب فيقول فيحسن، ثم يقوم المقداد بن عمرو فيقول: يا رسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبّك فقاتلا إنا هَهُنا قاعِدُون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فيقول رسول الله ﷺ خيراً ويدعو له به. ثم يقول: أشيروا علي أيها الناس! إنما يريد الأنصار، الذين كانوا معظم الجيش، يتعرف إلى نواياهم أيَرَوْن نصرته في كل وجه وكل مسير، أم يقتصرون في نصرهم له على الدفاع عنه أمام من يدهمهم في المدينة؟ والجيش الذي يعتمد عليه في المعركة هو الذي يؤمن أفراده بهدفهم ويندفعون إلى بذل نفوسهم في سبيله، لا أن يساقوا سوقاً ويدفعوا إليه دفعاً.

وينتبه سعد بن معاذ ـ حامل راية الأنصار ـ لهذا فيقول: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله! قال: أجل. قال: فقد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبرٌ في الحرب صُدق في اللقاء لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينُك فسر بنا على بركة الله.

فيُسَرّ رسول الله ﷺ بقول سعد وينشّطه ذلك فيقول: سيروا وأبشروا فان الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم.

ـ ٣ ـ

ونترك هذا المشهد الذي رأينا فيه الاهتمام بنفسية الجنود، وجليل أهمية تحميسهم وإثارتهم بكلام المندفعين الصُدق منهم. نترك هذا المشهد لنرى رسول الله ﷺ يركب بنفسه مع أبي بكر الصديق ليتحسس أخبار العدو..

ويرى شيخاً من العرب، يقال إنه سفيان الضَّمْري، فيسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فيجيب الشيخ لا أخبرُكما حتىٰ تخبراني ممن أنتما، فيقول رسول الله ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، ويستقصي الشيخ فيقول: أوَ ذاك بذاك؟ فيجيبه: نعم.

فيقول الشيخ .فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به قريش، فلما فرغ من خبره قال: فمن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء، ثم انصرف عنه، ويأخذ الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

ونعجب ممَّ نعجب؟ أمن مواساة الرسول الكريم ﷺ لأصحابه بنفسه، إذ يذهب هو والصديق لتسقط الاخبار، لا يخلد إلى راحة، ولا يجد الفزع إلى قلبه طريقاً، أم من هذا الجواب المحكم الذي أجاب فيه الرجل ـ دون اللجوء إلى الكذب ـ عما سأل، بغير أن يعرّض المسلمين إلى الخطر، بكشف أمرهم، وتسرّب خبرهم إلى قريش، فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب . . وجوه الإعجاب كثيرة، إلا أن مما يدفع إلى الوقوف عنده ملياً، وتَعَلم الدرس العظيم منه، هو المهمة الأولى للمسلم، الدعوة! فرسول الله ﷺ ، حتى في هذه الآونة الحرجة، لا يغفل عن الدعوة، فتكون الكلمات الثلاث التي كانت جواباً صادقاً للرجل، وتعمية حكيمة عن أمر المسلمين، تكون في نفس الوقت دعوة رفيقة للتفكير والتبصرّ، لينظر ممّ خُلق، فيزول عنه الكبر، ويرى قدرة الخالق العظيم، وإذا زال ذاك وحصل هذا، فقد انفتح الباب، واستوى الطريق!

ولا يكتفي الرسول الحكيم بهذا، فيعلمنا كيف نعدّ للأمور عدتها، ونستقصي في ذلك جهدنا، ونستفرغ وسعنا، وذلك حين يبعث في أمسية اليوم ذاته، عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه. ويطيع هؤلاء النفر الأبطال، بدون تردد، وبغير مناقشة، فيجدون على الماء غلامين لقريش، يقال لأحدهما أسلم، وللآخر عريض، أبو يسار، أرسلوهما ليحملا إليهم من الماء. فأتوا بهما، وسألوهما - ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فهذا من الإعداد أيضاً، بل من أهّم الإعداد - فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان - للقافلة التي خرجوا في طلبها، ليوهنوا بأخذها قريشاً ويرهبوهم، ويقووا المسلمين بها على حربهم - فضربوهما، فلما اشتدّوا في ضربهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما! فلما أنهى رسول الله ﷺ صلاته، وسلّم قال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؟ صدقا والله، إنهما لقريش، أخبراني عن قريش »، قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى. فقال لهما رسول الله ﷺ: « كم القوم؟ » قالا: كثير. قال: « ما عدّتهم؟ » قالا: لا ندري. قال: « كم ينحرون كل يوم؟ » قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً. فقال رسول الله ﷺ: « القوم فيما بين التسعمائة والألف ». ثم قال لهما: « فمن فيهم من

أشراف قريش؟ » قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البَخْتَري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحرث ابن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عديّ بن نوفل، والنضر بن الحرث وزمْعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونُبيه ومُنَبّه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ...

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ».

* * *

ونعود إلى هذه الصورة، فنقرأ فيها ونعيد، ونجلس حول الرسول الكريم، ﷺ، وهو يصليّ، ومع ذلك يرى ما لا يرون.

(كما يقول أعشى قيس:

نبي يرى ما لا يرون، وذِكره
أغار لعمري في البلاد وأنجدا)

فيزيدنا هذا معرفة بشأن الصلاة وأثرها، لا جرم أنه النبيّ الملهم، ﷺ، علّمه الله ما لم يعلمناه، وأطلعه على ما لم يطلعنا عليه، إلا أن الصلاة مع ذلك هي الصلاة، تزيد المؤمن نوراً وصفاء وفهماً « وما تقرَّب إليَّ عَبدي بشيءٍ أحَبّ إليَّ مِمَّا افْترضتُه عَليْه. وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتقرَّبُ إليَّ بِالنَّوافِل حَتَّى أحِبَّه. فَإذَا أَحْبَبْته، كنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ به.. » ولعل هذا مما زاد الرسول البرّ الشكور حرصاً على الصلاة، وحثّاً لنا على الاقبال

عليها والتقرب بها. فإن الصفاء الذي تتركه الصلاة الكريمة في النفس النبيلة، يجعل للحق في الأذن جَرْساً يميّزه عن الباطل، ويُري العينَ للحَسَن ضياءً لا يكون للسّيء، وكلما مال الإنسان مع هواه، كلما فتح باب الكدر في هذا الصفاء فغام وتعكّر، فإذا حلت الدنيا في القلب محل الآخرة، فقد انطمس الصفاء ودرس. والصحابة رضوان الله عليهم، مع رفيع ما وصلوا إليه، لّما مالوا إلى ما استحلَوْه من اغتنام القافلة، فمالوا عما استثقلوه من التحام مع جيش قريش، فرغبوا في العير دون النفير، هنالك اختلط الأمر عليهم فجعلوا يضربون الغلامين حتى يجيبا بما به يرغبون. والانسان إذا رغب في شيء غفل عما سواه:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

فلما أتى عليه الصلاة والسلام من الصلاة حلّ الصفاء وساد الضياء وبان الباطل، وظهر الحقّ.

ودرس في هذا أيضاً عظيم، أن الانسان محدود النظر، قد يرى ولكن في إطار، ويفكر إلا أنه لا يخرج عن نطاق، فلا يجد إلا التوكل على الله، إذ عسى أن يكره شيئاً وهو خير له، وعسى أن يحبّ شيئاً وهو كره له:

وربّ مشتاق إلى مورد
والموت، لو يعلم، في وِرْدِه

وقديماً قال الشاعر الجاهلي:

وما أدري إذا يمّمت أمراً
أريد الخير، أيّهما يليني:
أألخير الذي أنا مبتغيه
أم الشرّ الذي هو يبتغيني

والشافعي في ذهابه إلى مصر يقول:

لقد أصبحت نفسي تتوق إلى مصر
ومن دونها قطع المهامه والقفر
فوالله ما أدري أللخير والغنى
أساق إليها أم أساق إلى قبري؟

والصلاة من أروع ما يساعد على إزاحة رغبات الدنيا، ويعين على الرضا بقضاء الله.

ولا نجد متّسعاً لنقف أمام الفطنة الرائعة، والحزر البارع لعدد الجيش الذي لم يره، وتعذّر تقديره على من كان فيه..

لن نقف هناك، وإنما نتمهل قليلاً هنا، عند «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

وكأنَّ معنى هذا: لا تستهينوا ولا تتهاونوا فقد جاءكم سروات الناس وفرسان قريش وأبطال مكة، فاحذروا وتهيّئوا واستعدّوا.

وكان معناه أيضاً هذه مكة التي وجدتم فيها الأذى، ولاقيتم العذاب، وأرهقكم صناديدها، قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها،

فخذوا ثأركم، واشفوا غيظكم، وعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، فقد أذن الله بالقتال.

وقد يكون معناه: هذه قوة قريش، وبهؤلاء يرون منعتهم فإذا ذهبوا، فلا قوة لهم ولا منعة، فاصدقوا الله فيهم، وأخلصوا النية في قتالهم.

- ٥ -

وكان بَسْبَس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء رضي الله عنهما، قد مضيا حتى نزلا بدراً، فأناخا بعيرهما إلى تل ٍ قريب من الماء، ثم أخذا شَنّاً - وهو الزق أو القربة - لهما يستقيان فيه، ومجديّ بن عمرو الجُهنى على الماء. فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحي تختصمان على الماء وإحداهما تقول للأخرى: إنما تأتي العير- أي القافلة، قافلة أبي سفيان - غداً أو بعد غدٍ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك، قال مجدي صدقتِ، ثم خلّص بينهما. وسمع ذلك عدي وبسبس - والمسلم حذِر فطِن، ولاسيا حيال العدوّ وآن المناجزة - فجلسا على بعيرهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا. لم يتصرفا من عند أنفسهما وإنما ردوه إلى الله والرسول. وهكذا تكون الدقة والطاعة والنظام.

وأقبل أبو سفيان بن حرب، حتى تقدم العير حذراً، حتى ورد الماء. فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً؟ فقال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل،

ثم استقيا في شَن لهما ثم انطلقا. انتباهٌ من مجدي وملاحظة دقيقة، واهتمامٌ من أبي سفيان وقيامٌ لحيطة القافلة بنفسه، ولكن ليس هذا فحسب، بل إن أبا سفيان يأتي المكان الـذي أنيخ به البعـيران، فيأخذ من أبعار بعيريهما، فيفته فإذا فيه النوى، فيقـول : والله هذه علائف يثرب!.

هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله ﷺ! لم يقاتل أغراراً سذّجاً، بل قوماً يستدل أحدهم على البعير بالبعرة، بل يعرف بلد النخل، وما أكثر النخل في جزيرة العرب، لا من النخل ولا من التمـر، ولكن من النوى بعدما أكلته الجمال وخرج في البعر!.

ولكن هؤلاء الذين كانت لهم أحلام كالجبال، وجدوا أمامهم في رسول الله ﷺ، والجيل الذي ربّاه، ما هاض جناحهم، وخضد شوكتهـم، وملأهـم رهبـةً وإعظامـاً، جعـل أبـا سفيان لما قال مستعـظماً فزِعـاً: والله هذه علائف يثـرب، يرجـع إلى أصحابـه سريعاً، فضرب وجه عيره عن الطريق، فتوجه بها نحو الساحل، وترك بدراً بيسار، وانطلق حتى أسرع.

- ٦ -

وهذا موقف يبينّ فيم جرت هذه المعركة، وماذا استهدف من قام بها، آلله والحق، أم البغي والعـدوان؟ وكيف يستمطـر النصر بالبغي؟ والبغي - كان يقول قيس بـن زهير - مرتعه وخيم..

فإنّ أبا سفيان لما رأى أنه قد أحرز عيرَه ونجا بالقافلة، أرسل

إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجَّاها الله فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام ـ صوت الكبر والحقد والجهل ـ : والله لا نرجع حتى نرد بدراً = وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام = فنقيم عليه ثلاثة أيام، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان = أي تغني الجواري = وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

ومع هذا فلا يخلو أن يرتفع صوت بالحكمة والإنصاف والعدول عن العدوان، كالأخنس بن شريق الثقفي ـ وكان حليفاً لبني زهرة ـ الذي قال، وهم بالجحفة: يا بني زهرة، قد نَجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جبنها. وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَيعة، لا ما يقول هذا، يعني أبا جهل، فرجعوا، فلم يشهد بدراً زهريّ واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً.

ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس، إلاّ بني عدي لم يخرج منهم رجل واحد، وإلا بني زهرة هؤلاء، فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد.

ـ ٧ ـ

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً = كثير الرمل ناعمه = فأصابَ رسولَ الله ﷺ منها ماء لبَّدهم الأرض، ولم يمنعهم السير،

وأصاب قريشاً منها ماءٌ لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

ولقد كنت أقرأ قول الله عزّ وجل: ﴿وَينزِّلُ عَليْكم مِنَ السَّماء ماءً ليُطهِركم بِهِ وَيذهِبَ عنْكْم رِجْزَ الشَّيطانِ وَليرْبطَ على قُلوبِكم، وَيُثَبِّتَ به الأقدامَ﴾ [1].

ولم أكن أفهم معنى تثبيت الأقدام بنزول المطر، حتى إذا يسرَّ الله تبارك وتعالى لي، في حج ١٣٨١، زيارة بدر، وسرت في الوادي، وعانيت من رماله ما عانيت، لما كانت قدمي تغوص في الرمل الناعم اللين، ففهمت حينئذ كيف يكون المطر الخفيف على هذه الرمال، نعمة يتفضل عز وجل بها على عباده، إذ تنقلب رخاوة الأرض صلابة تثبت تحت الأقدام، فيسهل فيها السير، كما حدث في البقعة التي كان فيها الرسول ﷺ وأصحابه، فإذا اشتد المطر أكثر من ذلك، لم يقف الأمر عند تمهيد الأرض، ولكن الرمال تصبح عندئذ أخف وطأة وأيسر شأناً من الوحول التي يتعذر فيها على جيش أن يتقدم أو يتحرك، وهو ما حدث في الناحية التي فيها قريش.

فسبحان من قدرته تجعل الشيء نعمة إذا أراد، وبلاء حين يريد، ويجعل زيادة النعمة أذىً إذا شاء، ويسخِّر وسيلة الضرر للنفع متى أحبّ.

---

(١) الأنفال: ١١.

جعل المطر نعمة على قوم ووبالاً على آخرين، كما جعل العقل هداية لفئة واضلالاً لأخرى:

أفضل ما في النفس يغتالها فنستعيذ الله من جنده

- ٨ -

وهذا موقف الذكاء والفطنة والرأي من المسلمين، مع الأدب والطاعة والنظام، والخلق الكريم والتواضع والانصاف من الرسول الكريم مع المشورة والتشجيع والإحكام، حين نزل رسول الله ﷺ أدنى ماء من بدر، فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال : يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي ادنى ماء من القوم فننزله ثمّ نعوّر ما وراءه من القُلُب = أي نفسد ما خلفه من البِرَك = ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرتَ بالرأي ». فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار، حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقُلب فعوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

وحبذا لو وقفت معي قليلا، بل طويلا، أمام هذه الكلمة الرائعة من الحُباب : أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا

نتأخر عنه. هذا الأساس العظيم الذي قام عليه بناء المسلم فيما مضى، من الطاعة المطلقة لكل ما أمر الله، لا تردد ولا تلكأ ولا تجمجم، ولا مساومة ولا تسويف، ولا نقول أنه ثانوي أو أساسي، أو لبّ أو قشور، ولكن إذا أمر الله بهذا، فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، مهما أبدى لنا هوانا البليد وأعاد، ومهما رأينا من سخيف المصلحة ورقيع الحكمة، فلا مصلحة ولا حكمة ولا هوى بعد امر الله. بل الطاعة والانقياد والخضوع، بكل حسم وعزم. فهو الرأي الحكمة والمصلحة.

- ٩ -

يقول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أولٌ، وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرَّة
بلغت من العلياء كل مكان

وقد اجتمعا لنفس حرة، وأيّ نفس، نفس سعد بن معاذ - يسرّ الله لنا تقديم رسالة عنه وأعان - الذي قال لرسول الله ﷺ: يا نبيّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوَّنا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد

لك حباً منهم، ولو ظنّوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه.

أجل، لم يقتصر سعد على البطولة والبسالة والاقدام، وهي خلال فيه واضحة بارزة، وإنما كان همّه هذا الاسلام، واهتمامه بهذه الدعوة، يفكر دائماً فيها، كيف تقوم، وكيف تحاط وتصان، وماذا تحتاج، بعد أن وطن نفسه أن تكون حياته ودمه أول ثمن!

ولن نترك العريش ـ وقد صليت في المسجد الذي أقامه السيد حسن الشربتلي في موضعه، وأرجو أن ييّسر الله للقرّاء الصلاة فيه ـ قبل أن نستمع إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يسأل أصحابه وهو في جماعة من الناس: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين قال: أما إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس أبو بكر: لما كان يوم بدر، جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً وقلنا: من يكون مع النبي ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين؟ فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً السيف على رأس رسول الله ﷺ.

- ١٠ -

وها نحن أيضاً في موقف جديد، نرى فيه فراسة المؤمن، وصفاء نظر النبوة، وآثار الصلاة في النظر إلى الأمور، في ذلك الموقف الذي ظهر فيه الاصرار على البغي، والتعنت فيه، ومغبة ترئيس

الجهلة البغاة، وسوء المنقلب في طاعتهم واتباعهم. وذلك حين ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ، تنحدر من الكثيب، قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذِّب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحِنْهُم الغداة» ورأى رسول الله ﷺ عتبةَ بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر، فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير، فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

وقد كان أيماءُ بن رَحضَةَ الغِفاريُّ بعث إلى قريش - حين مروا به - إبناً له بجزائر = أي إبلاً مذبوحة - أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. فأرسلوا إليه مع ابنه: أن وصلتك رحم، قد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة.

فلما نزل الناس، أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ، فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك فحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجَّاني من يوم بدر.

ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجُمحيَّ فقالوا: احزِر لنا أصحاب محمد = أي قدر لنا عددهم = فاستجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع اليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلا أو

ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعَة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتَل رجلٌ منهم حتى يقتُل رجلا منكم، فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيِّدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال : وما ذاك يا حكيم؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - الذي رماه واقد بن عبدالله في سرية أميرها عبدالله بن جحش رضي الله عنهما - قال : قد فعلت، أنت عليَّ بذلك، إنما هو حليفي فعلي عقْلُه = أي ديته = وما أصيب من ماله فأتِ ابن الحنظليَّة = أي أبا جهل = فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس = أي يثير بينهم الفتنة والشجار = غيره. ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه، لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر اليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فان أصابوه

فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك، ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثَل درعاً له من جرابها = أي أخرجها منه = فهو يهيِّئها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة قد أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سَحْره = أي رئته وما حولها، يعني خاف وفزع = حين رأى محمداً واصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه فقد تخَوَّفكم عليه.

ثمّ بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانْشُد خُفرَتك = أي عهدك = ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرميّ فاكتشف ثم صرخ: واعمراه!! واعمراه!! فحميت الحرب، واشتد الأمر، وأجمع الناس على ما هم عليه من الشرِّ فأفسِد على الناس الرأي الذي دعاهم اليه عتبة.

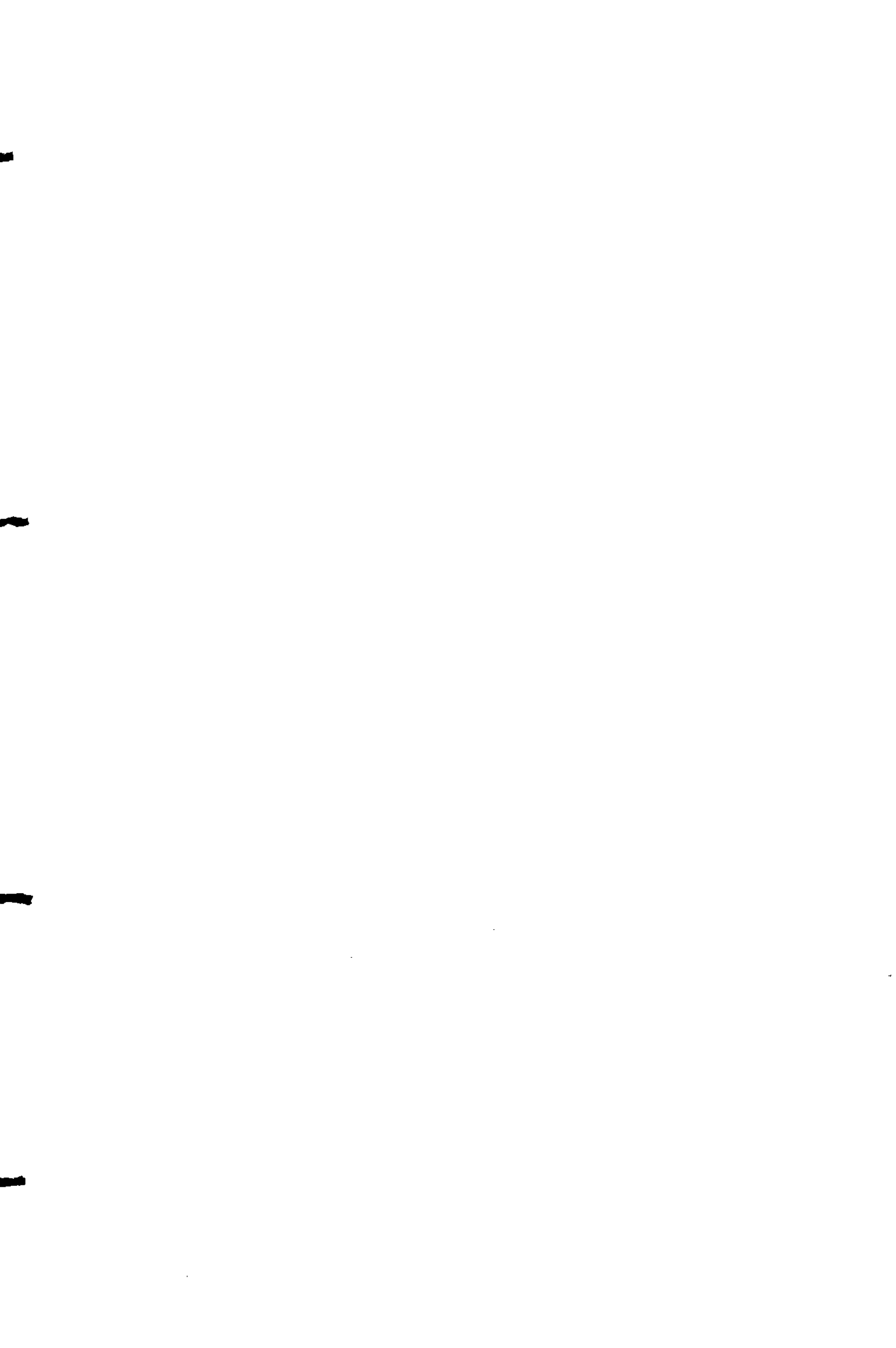
* * *

هذه صور خاطفة، لبعض المواقف، التي سبقت المعركة الفاصلة، وقعة بدر، والتي موعدنا معها رمضان القادم إذا يسر الله لذلك ووفق وأعان. ولله الفضل والمنّة وعلى رسوله وأنبيائه الصلاة والسلام.

النظام الاقتصادي في الإسلام

للأستاذ

أبي الأعلى المودودي



مُقدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي وهب عباده ما وهب، وافترض عليهم ما افترض، وصلى الله وسلم وبارك على الرسول الكريم الذي دلَّ على الطريق، في كلٍّ جانب من جوانب الحياة، وبشر بمزايا اتِّباعه، وحذر من مغبَّة مخالفته والانحراف عنه.

وبعد، فهذه رسالة أخرى للمودودي، والمودودي - فرَّج الله عنه وسدَّد خطى جماعته، لا يحتاج إلى تعريف فكتاباته تنبىء عنه، وأعماله تعرف به، ولا تقتصر الجماعة الإسلامية التي يرأسها على حدود لاهور، وإنما لها فروعها في كثير من مدن باكستان وبلدان الهند. وكثير من الشباب في عديد من أقطار الإسلام، ودول البلاد الأخرى قد اطلعوا على كثير مما نشرت من كتب ورسائل باللغات العربية والأرديَّة والأوروبية..

ورسالته اليوم في جانب هام، جانب الاقتصاد، وإن كانت على الجوانب هامة، لأن أمور الحياة متشابكة وجوانبها متصل بعضها ببعض، ولأن الإسلام يبين فيها جميعاً الوجه السليم الأمثل الأفضل، فأحكام الإسلام وآدابه في أي أمر من الأمور، جزء من

الاسلام، وكل أجزاء الإسلام طيب عظيم جليل. إلاَّ أن أمور الاقتصاد تحتل لدى كثير من الناس مكانها من الأهمية في هذه الأيام التي سادت فيها المادية، وطغت الدنيا، وحطم السيل الغربيّ معظم ما تبقى لدى الناس من قيم للروح ومعاني للآخرة.

إن أمور الاقتصاد جزء من أمور الحياة، ولا يمكن أن تُفهم هذه الأمور بمعزل عنها أو على غير القاعدة الصحيحة لفهم الحياة كلها وما فيها.

إن الإنسان الغربي ـ وكذلك أذنابه في غير بلاد الغرب ـ يقيم حياته في هذه الايام ـ فيما يتصل بالاقتصاد وغير الاقتصاد ـ على الاعتقاد بأن هذه « الطبيعة » ـ كما يسميها ـ لا أنها أزلية فحسب، لم تحتج إلى ايجاد، وإنما على أنها توجِد أيضا وتخلق وتهب، فيقولون « الطبيعة فعلت هذا » و« الطبيعة تهب ذلك » و« من نِعم الطبيعة » وما إلى ذلك.. لا يخجلون من سخفهم وتناقضهم. وكأنما يدفعهم كرههم للدين ـ بعد أن حرّفه رهبانهم وبدَّلوا فيه وحذفوا منه وألصقوا فيه ما ليس منه، فمجّته نفوس الناس هناك، ومقتوه حين مقتوا رجاله ـ كأنما يدفعهم هذا الكره، إلى إحلال شيء ما، مهما كان، محل الإيمان الذي فقدوه، والذي يشعرون بحاجتهم اليه، فابتدعوا هذه الطبيعة ـ التي أخطؤوا في معناها ومبناها ـ ونسبوا اليها صفات الخالق الذي أنكروه، تعالى الله عما يقول المشركون علوّاً كبيراً.

ويعتقد الإنسان الغربي أيضاً ـ تبعاً لغفلته عن الله ـ أنّ

استخدامه لما في هذه الأرض، إنما هو بقوته وحذقه وقدرتـه، لا يعتقد أنه أصاب في ذلك عوناً من الله، ولا أن لله سلطاناً على ما في هذه الدنيا. كما يعتقد ـ تبعاً لغفلته عن الآخـرة ـ أن له الحـرية الكاملة في أن يستخدم ما يشاء في هذه الأرض كما يحب وفيما يريد، لا مسؤولية ولا حساب!

أما المسلم، فلا ينظر إلى أمور الاقتصاد، هذه النظرة الجزئية، ولا إلى الحياة هذه النظرة السخيفة المضحكة، وإنمـا يقيم شؤون الاقتصاد على الاسس العامة، من النظر إلى الكون نظـراً سليماً، ومن فهم الحياة فهماً صحيحاً. وهو يعود في هذا ـ وفي أي أمر آخر ـ إلى كتاب الله عزّ وجل ـ الذي لا هدى إلا منـه، ولا حق إلا بميزانه ـ فيقرأ فيه: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيْعَاً ﴾

فيؤمن أن ما كل ما يجده في هذه الأرض، إنما خلقه الله القادر الحكيم، ليست هذه الأشياء أزلية، ولم تخلق نفسها، إذ هي قبل الخلق عدم، ولم تخلقها الطبيعة ـ فطبيعة الانسان طبعه وما فطـر عليه، أما بالمعنى الذي يزعمون فالطبيعة هي هذه الاشياء ذاتهـا التي تُرى في الأرض ـ ولم يخلقها إنسان، فالطبيعة والانسان، قد خُلقا فكيف يكونان قد خَلقا؟

كما يؤمن أيضاً أن خلق هذه الأشياء، إنمـا كان لأمـر عظيم، فليس خلقها عبثاً، كما يظنّ بعض الحمقى، فما في خلق الله تعالى من عبث، وإنما هو التدبير الحكيم، والحكمة البالغة.

ويؤمن أيضاً أن الله عزّ وجـلّ خلـق هذه الاشياء لنـا (خلـق

« لَكُمْ » ما في الارض « جميعاً ») ولولا ذلك لشد ما كان أضعفنا وأعجزنـا عن استخـدام أي شيء أو استعمالـه. ولهـذا فكل ما نستخدمه إنما هو مما خلق لنا، أمَّا ما سواه فلن يصل إليه أحد، ولو اجتمع عليه النـاس والـدول. نقـرأ هذا جلياً واضحـاً في كتاب الله تعالى: ﴿ يَا أيها النَّاسُ ضرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَه: إنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُون مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَه، وَإنْ يَسْلُبْهُم الذُّبَـابُ شَيْئـاً لا يَسْتَنْقِـذُوهُ مِنْـه، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمطْلُوب ﴾[1] فاستعمالنا الأشياء في هذه الأرض، إنمـا هو انقياد الأشياء لله عزّ وجل، سخَّرها لنا فتسخَّرت « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا في البَرِّ وَالبَحْر ».

ولما لم يكن لنا قوة نسخِّر نحن بها الأشياء، ولم يكن لنا عند الله تعالى حق، ليكون هذا التسخير لنا مقابـل ذلك الحـق، كما أن العبـث لا يتصـور ولا يكون في صنـع الله، وإذن فليس هذا التسخير اعتباطاً، وإنما هو نعمة أخرى من النعم التي أعطيناها، لتساعدنا على أداء المهمة التي خلقنا لحملها، والتي سنسـأل يوم القيامة عنها.

ومعنى ذلك أن نهتم كل الاهتمام بهذا التسخـير، فلا نسخـره لأهوائنا وشهواتنا، ولا كما نحب ونشتهي، وإلا صرنا أحمـق من الموظف الذي كلَّفه سلطانه بمهمة في بلد آخر يسافر إليه، وأعطاه ما يحتـاج إليه في ذلك من دابـة ونفقـة وجهـاز، فظـن لغبائـه، أن التكليف هزل، وأن له التصرف في مال السلطان كما يحبّ، فتمتع

(١) الجمعة: ٧٣.

به فترة، وأنفقه في الترهات، ثم عاد إلى سلطانه وقد أهمل المهمة وأضاع المال!

إذا فهم المرء هذا، وآمن أن مصير الإنسان، وما يكون عليه في الآخرة مترتب على وجه استعماله لما سخَّرهُ الله له في هذه الدنيا، كان عليه حينئذ أن يفهم أن ما كلف به يكون أحياناً على شكل معين عليه أن يؤديه عليه وليس له أن يحيد عنه، كما أن الأمر يكون أحياناً أخرى هدفاً نؤمر به، إلا أن الخيار في الاسلوب الذي نتبعه، والسبيل الذي نسلكه إليه، إنما بشروط يجب أن تتوفر، وصفات يحرص على أن توجد. ويعرض هنا أمر « المباحات » التي منها ينتج أكثر التفاوت بين الناس، ذلك أن منهم من يرى المباح، تخلصاً من قيد ثقيل، وعبء كريه، ويظنّه وسيلة للذّة والترفه في هذه الدنيا، التي ملأ قلبَه حبها. فلم يفكر في سواها، ومنهم من يرى في المباح فرصة تغتنم، وأداة للربح تسنح، فلا يضيِّعها في لذة عاجلة مزيفة، فقد احتقر في جنب نعيم للآخرة كلّ ما يرى في دنيا القذارة والتفاهة من نعيم. وتضاءلت عنده الدنيا أمام الآخرة التي يذكرهافلا ينساها ويعيش في حقائقها فلا يغفل عنها، فتعود الدنيا أمامه صغيرة ضئيلة، وتصبح هي وما فيها، أهون عنده من جناح البعوضة.

ثم إن ما سخّره الله عز وجل لنا لنستعمله في هذه الحياة، ليس على درجة واحدة للجميع، فإن الأشياء واحدة، ولكن القوة على التسخير التي وهبت للعبد، والأذن في حصول هذاالتسخير،

يختلفان من إنسان إلى آخر، فهذا وهبه الله دائرة واسعة يسخر ما فيها. وذاك يعجز عن استعمال ما زاد على نطاق ضيق معين. لكن إذا ذكرنا أن المسؤولية ليست لجميع الناس على درجة واحدة، وأنها تتناسب مع ما حبا الله به العبد من مزايا وقوى ومواهب، أدركنا من ذلك أن ذاك التفاوت ليس في حقيقته تفاوتاً، لأن الميزة تعقبها كما قلنا مسؤولية، فليست الميزة ميزة في نفسها، وإنما على ضوء مسؤوليتها. ولما كانت المسؤولية تتفاوت بين الناس، وتتناسب مع ما أعطوا، فيقود التباين إذن إلى التساوي حينما ننسب الأمر إلى النتيجة التي يستهدفانها فصاحب الميزات الكبيرة يحمل المسؤولية الكبيرة، أما ذو المسؤولية الضئيلة فقسطه من الميزات ضئيل وبهذا تخرج الميزة عن أن تكون ميزة، كالمحاسب في دائرة صغيرة، بها عدد من صغار الموظفين مجموع رواتبهم ثلاثة آلاف ليرة، والمحاسب الآخر في دائرة واسعة تضم عدداً من الموظفين رفيعي الدرجة، مجموع رواتبهم سبعون ألفاً، والمحاسبان متماثلان في الدرجة ومرتبهما واحد، ثلاثمائة مثلاً. أمَا يكون من الحماقة أن يشعر الأول بالتعاسة والفقر والشقاء؟ وأليس من الغباء أن يحس الثاني بالرفاهية والغنى والرخاء؟ إن الأول يقبض في أول الشهر ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ولكن عليه أن يدفع، في نفس اليوم، ثلاثة آلاف. والثاني يقبض سبعين ألفاً وثلاثمائة، ولكن لا بد أن يدفع بعد ساعات سبعين ألفاً منها.

وشيء آخر يحسن الإشارة إليه، لا في حدود الأمور الاقتصادية

فحسب، وإنما في كل أمور الحياة، شيء يتعلق بالتقيد والتحرر، خالفه كثير من الناس، مخالفة على شكلين مختلفين، فأخطآ وضلاّ جميعاً، تحرر بعضهم من كل قيد، وسار كما يحب ويهوى، وقيد بعضهم نفسه، بقيود اصطناعية، اصطنعها هو، نسجها من أهوائه، أو تقبلها من أعراف المجتمع الفاسد، أو خضع لها من جائر القوانين. . كلاهما زلّ وانزلق، مَنْ خلع قيداً أصيلاً، أو خضع لقيد مزيف.

وإنما نسأل نحن الله عز وجل أن يوفقنا لالتزام ما قيدنا به من قيود، والتحرر من كل ما عداها من قيود، وأن يمدَّنا بهدى وعون من عنده، وأن يفرِّج عن المسلمين في آفاق الأرض، وأن يختم لنا جميعاً بخاتمة السعادة.

والحمد لله رب العالمين.

لجنة المسجد

النظام الاقتصادي في الإسلام

إن الإسلام قد صاغ بعض القواعد وشرع حدوداً معينة بقصد الحياة الاقتصادية للفرد على طريق الحق والعدل، حتى يتسنى لنظام الانتاج وحركة الثروة كله، أن يجري وفق الحدود المرسومة له. والإسلام لا يصرف همه إلى طرق إنتاج الثروة وصور حركتها وتوزيعها، فان مثل هذه الطرق تتطور مع كل عصر وتتغير مع تقدم المدنية والثقافة، وتثبت تلقائياً وفقاً للضرورات والظروف الانسانية. ولكن ما يهدف اليه الاسلام هو أنه مهما كانت الصورة التي تأخذها شؤون البشر الاقتصادية على اختلاف العصور والظروف، فانه ينبغي أن تشغل المبادىء التي ينشرها الإسلام مكانها الخالد فيها، كما أنه يتحتم أن تقتبس وترعى كل حدوده التي شرعها.

إن الله قد خلق للناس الأرض وما فيها جميعاً ـ هكذا تقول وجهة النظر الاسلامية ـ ومن ثم يخول (حق المولد) لكل فرد أن يسعى لينال رزقه من هذه الارض التي خرج اليها. وكل البشر شركاء في هذا الحق على السواء، ولا يجوز أن يجرد من هذا الحق أحد الناس كما لا يجوز أن يفضل فيه أحد على الآخر. والشريعة

الإسلامية تتجه إلى عدم السماح بإقامة أي عقبة في طريق فرد أو جنس أو طبقة يكون من شأنها أن تحرم بعض الناس من حقهم في الافادة من وسائل معينة للعيش، أو تغلق في وجوههم أبواب اية مهنة. كما أن القانون لا يقر أي تمييز يؤدي إلى تمكين طبقة أو جنس أو سلالة بعينها من احتكار وسيلة من وسائل العيش. فان حق البشر جميعاً على السواء أن يكدحوا ويلتمسوا ما في وسعهم من وسائل كسب القوت التي أتاحها الله لعباده على أرضه وينبغي أن تبقى الفرص مباحة متكافئة لكل فرد من الأفراد من أجل هذا الكفاح.

ولقد أباح الشارع دون مقابل كل ما قام في الطبيعة دون أن ينفق في إعداده أو في تهيئته للانتفاع منه جهد أو طاقة. وكل فرد مخول في أن ينتفع من مثل هذه الاشياء إلى الحد الذي تستلزمه حاجاته. فمياه الانهار والينابيع، وأخشاب الغابات، وثمار الأشجار الفطرية، والعشب والعلف الطبيعيان، والهواء والماء، وحيوانات الآجام، والمناجم التي على ظهر الارض؛ كل ذلك وما في حكمه لا يمكن لفرد أن يحتكره، كما لا يجوز أن توضع أية عوائق لا يتمكن الناس معها من الوفاء باحتياجاتهم من غير أن يدفعوا شيئاً. غير أنه من الطبيعي أن يطالَب من يبغون الانتفاع من هذه الأشياء على نطاق واسع بقصد التجارة بأن يدفعوا ضريبة على ذلك للدولة.

وليس من صواب الرأي أن تدخل أشياء خلقها الله لنفع الناس

كافة في حيازة البعض ثم تبقى على حالها دون انتفاع. فاما أن ينتفع الانسان بنفسه منها، وإما أن يتركها لنفع الآخرين. وعلى أساس هذه القاعدة تنص الشريعة الاسلامية على أن أحداً لا يستطيع أن يضع يده على أرض دون أن يفلحها أكثر من ثلاثة أعوام، فاذا لم يستغلها في الزراعة أو العمارة أو يستفد منها بأية طريقة أخرى، فإن هذه الأرض تعامل بعد مدة ثلاث سنوات معاملة الارض المهجورة. وكل من يستعملها آمن من التعرض في المستقبل لمأخذ قانون، كما أنه ليس للحكومة الاسلامية حق تسليمها لسواه [1].

وكل من يجوز شيئاً من كنوز الطبيعة عن طريق مباشر ويجعله صالحاً للانتفاع فانه يكتسب حقوق تملكه، فإذا ما كانت هناك أرض غير مزروعة مثلاً، لا يملكها أحد وحازها شخص آخر وشرع في استغلالها لمقصد حلال، فان هذه الأرض لا يمكن أن

---

(١) يروي الامام أبو يوسف رحمه الله في كتاب الخراج عن طاووس هذا الحديث (عادي الارض لله وللرسول ثم لكم من بعد فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين) ويروي الامام عن الزهري عن سالم بن عبدالله أن عمر أثناء خلافته قد نادى في الناس من فوق منبر المسجد (ومن أحيا أرضاً ميتة فهي له وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين).

(المودودي) : وعادي الارض ما تقادم ملكه، وسبب خطبة عمر أن رجالا كانوا يحتجزون من الارض ما لا يعلمون.

تنتزع منه [1]. وإنما تنشأ حقوق التملك على هذه الطريقة طبقاً للنظرية الاسلامية. فحين ظهر البشر لأول مرة على هذه الأرض، كان كل شيء في متناول كل إنسان، وكل من حاز شيئاً مباحاً وهيأه للانتفاع بأية طريقة صار متملكا له، وبعبارة أخرى حصل على حق استعماله خصيصاً لصالحه الفردي وحق تحصيل عوض من الآخرين مقابل استعماله إن شاؤوا. وهذا هو الأساس الطبيعي للشؤون الاقتصادية المتعلقة بالنوع الانساني وينبغي أن يصان هذا الاساس سليما. وحقوق التملك التي يتأتى لكل فرد أن يحصل عليها في هذا العالم عن طريق مشروع مباح، حقوق جديرة بالاحترام في أي حال. وإنما يمكن أن يثور الجدل بصدد ما إذا كان التملك في حالة بعينها سليما من الناحية القانونية أم لا، فاذا ما كان التملك غير صحيح من هذه الناحية تحتم أن يوضع له حد دون جدال. ولكن ليس للدولة أو لسلطة التشريع فيها أن تتجاوز ذلك إلى الملكيات الصحيحة قانونا فتجرد أصحابها منها أو تتدخل في حقوقهم الشرعية، فانه لا يجوز أن يقوم نظام يطيح بالحقوق التي كفلتها الشريعة بدعوى العمل للصالح العام للجماهير. وإنه لمن

---

(١) (قال أبو يوسف معنى هذا الحديث عندنا ـ أي عند السادة الحنفية ـ على الارض الموات التي لا حق لأحد فيها ولا ملك، فمن أحياها وهي كذلك فهي له : يزرعها ويزارعها ويؤاجرها ويكري منها الأنهار ويعمرها بما فيه مصلحتها). والمزارعة هي معاقدة على الزرع بين صاحب الارض والمزارع فيقسم الحاصل بينهما بالحصص التي يتفقان عليها وقت العقد ـ وكري النهر حفره ـ.

الجور أن ينتقص من الحدود التي حفظت بها الشريعة حقوق التملك الفردي في سبيل الصالح العام للمجموع، تماماً كما لو زيدت هذه الحدود والقيود. وإنه لمن واجب الدولة الاسلامية أن تحمي الحقوق الشرعية للافراد، كما تراقب أداءهم لالتزاماتهم التي فرضتها عليهم الشريعة.

إن الله جل جلاله لم يشأ التسوية بين الخلق في نعمه وعطاياه، ولكنه قدر بواسع حكمته أن يفضل بعض الناس على بعض. فلم يهب الجميع على حد سواء جمال الصورة وعذوبة الصوت وصحة الجسم وسلامة البنية، ولم يستووا في المواهب والميول، ولم يتحدوا في البيئة التي خلقوا فيها إلى غير ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة لوسائل المعيشة، فالطبيعة الانسانية كما برأها الله من شأنها أن يتباين الناس في معاشهم.

أما المساواة التي يؤمن بها الاسلام، فإنما تكون فيما يتعلق بفرص الكفاح لكسب العيش. فالاسلام لا يريد وجود عوائق في المجتمع ـ سواء كانت نتيجة العرف أو القانون ـ من شأنها أن تعرقل الفرد في كفاحه للمعاش بقدر ما في وسعه من كفاءة ومقدرة، والاسلام لا يريد كذلك قيام فوارق من شأنها أن يصبح الثراء الموروث لطبقات أو أجناس أو أسرات بعينها إلى حصانات أو احتكارات مستديمة تحميها القوانين!! فكل من هاتين الطريقتين، إقامة العوائق وإقامة الفوارق، تعمل ـ متعسفّة ـ على أن تقيم تفرقة مصطنعة بين الناس تحل محل التباين الطبيعي بينهم. ومن ثم يهدف الاسلام إلى

إزالتهما تماما، ويضع النظام الاقتصادي للمجتمع على أساس طبيعي غير متكلف، تكون فيه فرص الكفاح في متناول الجميع. ويكون ذاك النظام أقرب ما يكون إلى الطبيعة - وهي التي فيها يدور التنافس في الكفاح في الميدان الاقتصادي - حين يتمشى مع ظروف كل فرد ودوره في الحياة فكلٌ ميسر لما خلق له. فهذا الذي ورث سيارة ينبغي أن يكدح مجهزاً بسيارته، وذلك الذي لم يوهب غير ساقيه عليه أن يسعى على قدميه، في حين يجب على العاجز أيضاً ألا يتخلف عن العمل بآخر وسعه. وينبغي لقوانين المجتمع ألا يكون من شأنها أن تفرض احتكاراً دائماً لصاحب السيارة على سيارته أو أن تجعل من المستحيل على العاجز أن ينال مثل هذه السيارة، كما ينبغي ألا يكون من شأنها في الوقت نفسه أن تقسر صاحب السيارة والآخر العاجز على البدء في سباق الكفاح من نقطة واحدة في ظروف واحدة تلزمهما الارتباط معاً إلى نهاية الشوط!! بل على العكس من هذا ينبغي للشرائع أن تكون بحيث تتيح للعاجز أن ينال السيارة بكفاءته ومقدرته في حين أنه قد يتخلف صاحب السيارة إذا أعوزته الكفاءة والمقدرة.

وإن الإسلام لا يبغي مجرد قيام السباق الإقتصادي في الحياة الإجتماعية على أساس تكافؤ الفرص وعدم التحيز فحسب، ولكنه يريد ألا يكون المتسابقون متظالمين أو متقاطعين، إن عليهم أن يكونوا متعاطفين متعاونين. لذلك نرى من ناحية أن الاسلام يرمي خلال وصاياه الخلقية إلى خلق عقلية بين الناس يستعينون بها على

تدعيم رابطتهم الواهنة التي تمزقها الاهواء. ومن ناحية أخرى يطالب الاسلام بقيام نظام دائم واجب في أي مجتمع [1]، يضمن العون والمساعدة للعاجزين الذين تعوزهم الوسائل اللازمة للوصول إلى القوت الضروري. فمن لم يستطع المشاركة في المنافسة الاقتصادية وجب أن ينال حظه من رعاية المجتمع. كما أن الذين يحتاجون إلى العون كي يتمكنوا من العمل والإنتاج الاقتصادي لا بد أن ينالوا بغيتهم عن طريق هذا النظام. ومن أجل هذه العناية سنّ الاسلام في شريعته أن تجبى (زكاة) بنسبة ٢،٥٪ سنوياً على الثروة المكدسة في البلاد وعلى رأس المال المتداول في التجارة سواء بسواء. ويجمع مقدار ٥٪ أو ١٠٪ من الانتاج الزراعي للأراضي العشرية [2] جميعها، كما يجمع من إنتاج بعض المناجم بنسبة ٢٠٪ كذلك تجبى هذه الضريبة السنوية بنسبة

---

(١) يحاول بعض المغرضين تشويه صورة نظام الزكاة جهلا أو تجاهلا مغفلين الصورة التي وردت في القرآن الكريم بقوله تعالى « وفي أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم » فليس ما يأخذه الفقراء مِنَّةً وتفضلا من الأغنياء.

(٢) الأرض الزراعية من حيث الضريبة الواجبة فيها نوعان : أرض يجب فيها عشر ما يخرج منها أو نصف عشره وتسمى الأرض العشرية، وأرض يجب فيها مقدار يعين عليها باعتبار مساحتها أو الخارج منها يسمى الخراج وتسمى الأرض الخراجية، ومرجع هذا التقسيم إلى صفة اليد الموضوعة على الأرض ابتداء وقت فرض ضريبتها فان كانت اسلامية كانت الأرض عشرية، وان كانت غير اسلامية كانت الأرض خراجية ـ راجع رسالة الخراج ـ النظم الاسلامية.

خاصة على الماشية التي يملكها أي فرد إذا زادت عن حد أدنى مقرر يتمتع بالاعفاء (النِّصاب). وحصيلة هذه الجباية كلها يجب أن تنفق لمساعدة الفقير واليتيم والمسكين. والزكاة بهذه الصورة أسلوب في تحقيق الضمان الاجتماعي، في ظلها لا يتأتى أن يعيش واحد في المجتمع الاسلامي بغير ضرورات الحياة. ولا يمكن أن يجبر عامل تحت ضغط الجوع على الرضوخ لشروط العمل التي يمليها صاحب المصنع أو مالك الارض. ولن يكون الفرد عرضة لانهيار قواه عن أدنى مستوى يمكن صاحبه من أن يدلي بدلوه في الكفاح الاقتصادي.

ويهدف الاسلام لاقامة ميزان بين المصالح المتقابلة للفرد والجماعة كي يرقى بذاتية الفرد وحريته الشخصية، على أن يضمن في الوقت نفسه ألا تكون هذه الحرية ضارة بمصالح المجموع، بل ينبغي حتما أن تنتفع الجماعة منها. فالاسلام لا يؤيد تنظيما سياسياً أو إقتصادياً يرمي إلى إذابة الفرد في المجموع وتجريده من الحرية الضرورية لنمو شخصيته على أساس سليم. فإن النتيجة المحتومة لتأميم كل وسائل الانتاج في قطر من الاقطار هو تعجيز الجماعة للأفراد جميعاً، فيتعذر استمرار كيانهم الفردي وتقدم هذا الكيان إلى حد كبير، إن لم يصر هذا مستحيلاً تماماً؛ فإن الحرية الاقتصادية ليست أقل ضرورة للفرد من الحرية السياسية والاجتماعية بل هي لازمة إلى أبعد مدى. فإذا كنا لا نقصد إلى استئصال شعور الفرد بكيانه وإنسانيته تماما، فإن علينا أن نفسح

له في حياتنا الاجتماعية المجال الكافي ليزاول حريته في كسب عيشه حتى يثبت في نفسه حرية الضمير.ويغدو وفي وسعه أن ينهض بمواهبه الخلقية والعقلية وفقاً لميوله الذاتية. وهيهات لمن يعيش على حصة مقررة، تقديرها في أيدي الغير، أن يكون سعيداً بحالة مهما كانت حصته هذه وافية كافية، لان تعويق السمو الخلقي والروحي الذي يؤدي إليه هذا الوضع المهين لا يمكن أن يعوض أو يعادل بمجرد صحة البدن ووفرة الثروة !!

وكما أن الاسلام لا يرضى عن مثل هذا النظام فإنه لا يعلن رضاه أيضاً عن نظام اجتماعي يعطي للأفراد حرية اقتصادية واجتماعية مطلقة العنان، ويمنحهم (إذناً على بياض) ليحققوا مصلحتهم الفردية ويرضوا رغائبهم ولو على حساب مصالح الجماعة بأسرها وهكذا يختار الاسلام طريقة الوسط بين الإفراط والتفريط، فيدعو الفرد نفسه أولا ليقبل قيوداً والتزامات معينة في سبيل مصالح الجماعة، ثم يدعه بعد ذلك حراً يدبر شؤونه الخاصة. وليس هذا مجال الافاضة في بيان كل هذه الالتزامات والحدود فقد يغني هنا أن نعرض لهذا في إجمال.

ولنتناول أولا قضية كسب العيش : إن العناية الدقيقة التي تحراها الاسلام في التمييز بين الحلال والحرام في الكسب لا تتأتى لأي قانون قائم في العالم. فهو قدَّ عد من الكسب غير المشروع كل وسيلة يرتزق منها الانسان بالنيل من مصالح غيره من الناس، أو مصالح المجتمع كوحدة، سواء من الناحية الأخلاقية أو المادية.

فشريعة الاسلام تحرم بتاتاً صناعة الخمرة وسائر المسكرات وتجارتها، كما تحرم الزنا واحتراف الرقص ولعب الميسر. . . والمضاربة وأنواع (اليانصيب)، كذلك تحرم الصفقات الوهمية والاحتيالية والصفقات التي تحمل في طبيعتها جراثيم النزاع بين أطرافها والمعاملات التي يكون الربح لجانب فيها مضموناً أكيداً بينما يتأرجح الجانب الآخر في مهب الريح مفتقداً الثقة والطمأنينة والضمان، وشريعة الاسلام تحرم أيضاً التلاعب بالأسعار عن طريق الامتناع عن بيع ضرورات الحياة، إلى غير ذلك من أمثال هذه الصفقات التي تضر مصالح الجماعة. وإذا ما أمعنت النظر في هذا الجانب من قوانين الاسلام الاقتصادية فلسوف تعرَّض لقائمة طويلة من الوسائل التي حرمها الاسلام، والتي لو وجدت لها مكاناً لأتاح معظمها للكثيرين الفرصة كي يتربعوا على الملايين في ظل الرأسمالية القائمة. لكن الاسلام يحرم هذه الوسائل كلها في شريعته ويكفل حرية الكسب في حدود الوسائل الكريمة وحدها التي يستطيع الفرد خلالها أن يقدم للجماعة خدمة حقيقية نافعة، ومن ثم يكون له بعدها أن يطالب بعوض عنها عادل صحيح.

والاسلام إذ يقرر للفرد حقوقه في تملك ثروته التي كسبها عن طريق حلال، فانه لا يدع هذه الحقوق المقررة بلا حدود. فهو يدعو الفرد لينفق ماله الحلال في وجه حلال وبكيفية مشروعة. وقد وضع من القيود على الانفاق ما يحجز به المرء عن تبديد ثروته في الملاذ الكمالية في الوقت الذي يعيش فيه المعيشة اللائقة. فإبراز

المكانة والاعتداد بالنفس من الأمور التي لا ينبغي لإنسان أن يتجاوز فيها الحدود حتى يقيم من نفسه إلهاً فوق البشر. ولقد حرِّمت بعض صور الانفاق بوضوح وجلاء، أما بعضها الآخر فلئن لم يمنع صراحة إلا أن الدولة الاسلامية قد منحت من السلطة ما تحجز به الناس عن إنفاق الثروات في المحرمات.

ويباح للفرد أن يجمع من الثروة ما يتخلف عن نفقاته المشروعة والمعقولة ، وله أن يستثمر هذه الثروات في إنتاج المزيد، ولكن لا يترك الاسلام كنز المال أو تنميته دون قيود. ففي الحالة الأولى عليه أن يدفع زكاة ما يتجمع لديه من مال يربو على النصاب المقرر في كل عام بنسبة ربع العشر (٢،٥٪). أما إذا رغب في استثمار ثروته في أحد المرافق فله أن يفعل ذلك ولكن في حدود المباح من الأعمال المشروعة. فمن المباح للشخص أن يباشر عملا مشروعاً بنفسه، أو أن يشترك في الربح والخسارة مع غيره مقابل تقديم ما لديه من رأس مال قد يكون في صورة مال أو عقار أو قد يكون في صورة أدوات وخصائص لازمة لحرفة من الحرف، وفي هذه الحدود ما على الواحد من جناح في نظر الاسلام إذا ما بلغ به عمله إلى ذروة الغنى بل إن هذا أحرى أن يعتبر من الله فضلا عظيما. ولكن الاسلام يشترط هنا على الفرد أمرين في سبيل مصالح الجماعة كوحدة : أول الأمرين أن يؤدي زكاة بضائعه التجارية وعشر غلة انتاجه الزراعي [1]. وثاني الأمرين هو إلزامه بالقسط في المعاملة مع

(١) وقد يؤخذ منه أكثر من ذلك إذا اقتضته الحاجة العامة لجماعة المؤمنين ولم تقم =

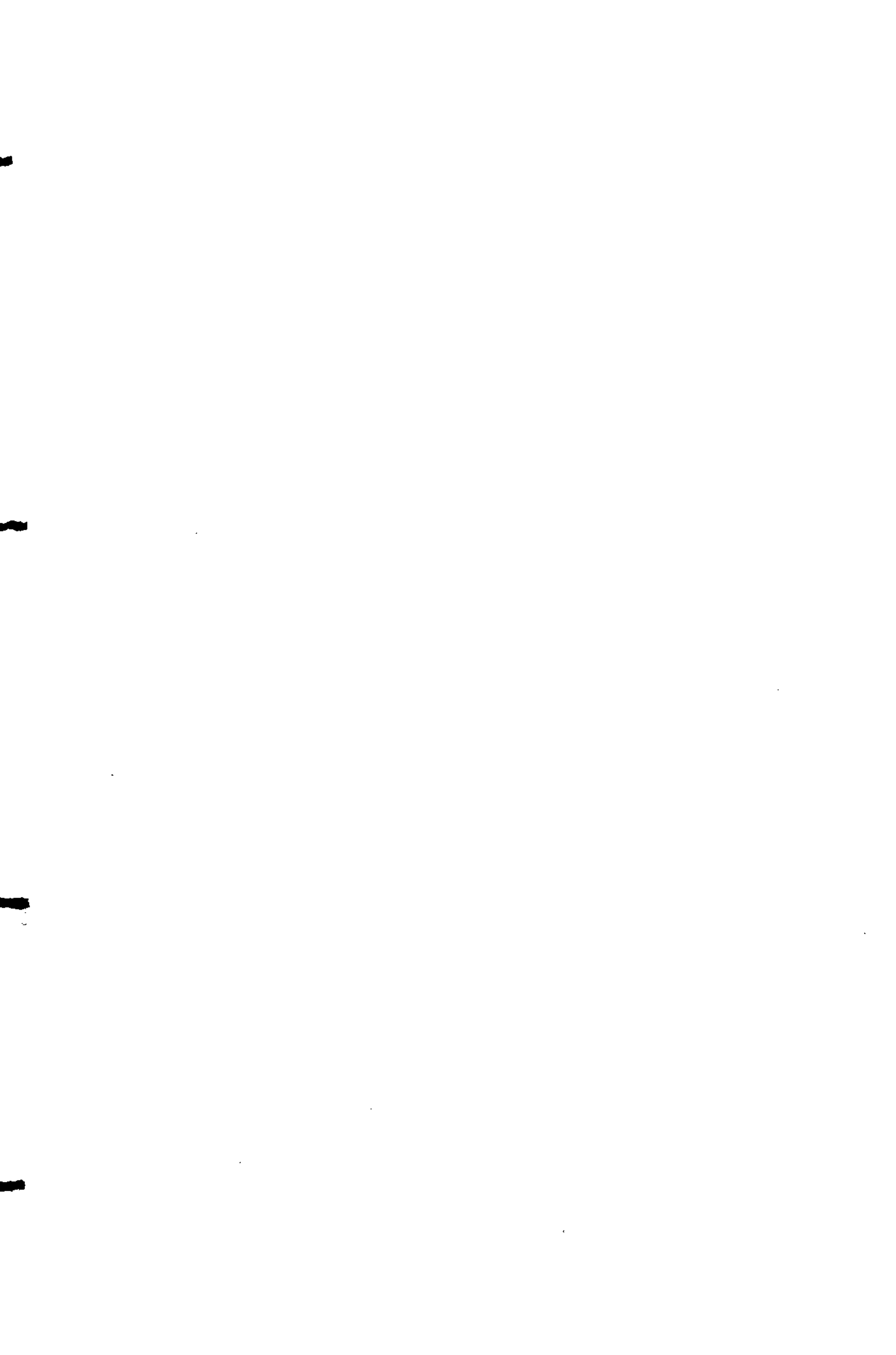
شركائه في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، ومع من يعملون تحت يده. وإذا لم يلتزم فرد واجب العدل من تلقاء نفسه فإن الدولة الاسلامية تجبره على ذلك.

وبعد هذه الحدود الشرعية في موارد المال ومصارفه لا يدع الإسلام الثروة المتجمعة بعد إنفاذ هذه التعاليم مركزة في يدٍ واحدة لأمد طويل. فعن طريق شريعته في الميراث ينشر الإسلام تلك الثروة من جيل إلى جيل. واتجاه الإسلام في هذه الناحية مخالف لاتجاه شرائع العالم الأخرى.

فجميع هذه الشرائع تعمل على أن تبقى الثروة التي تجمعت يوماً مَركزة جيلاً بعد جيل. أما الإسلام فيصوغ شريعته على عكس ذلك تماماً. فبمقتضى هذه الشريعة فرض على الثروة التي يجمعها الشخص مدة حياته أن تتوزع بين أقاربه الأقربين فور وفاته. فإذا لم يوجد هؤلاء جاء دور الأقارب الأباعد في الميراث وفقاً لما قررته الشريعة لكل واحد منهم نصيب مفروض. فإذا افتقدنا هؤلاء أيضاً خُوّل المجتمع المسلم بأسره حق الميراث. وهيهات أن يبرز في ظل هذا التشريع، أو أن يفلت منه صاحب قناطير مقنطرة أو ضياع واسعة!! فإن هذه الضربة الأخيرة كفيلة بأن تطيح بما عسى أن يكون قد مرق رغم القيود السالفة من مساوىء التجمع والتركز في الثروات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الزكاة بهذه الحاجة ففي المال حق سوى الزكاة. وسلطان الدولة الإسلامية في ذلك مطلق حتى تستوفي الجماعة حاجتها.



أمير المؤمنين في الحديث

للأستاذ
علي الطنطاوي

أمير المؤمنين في الحديث

مَن يستطيع أن يحصي الكتب التي ألَّفها علماء المسلمين؟ هذه الكتب التي أمدَّت المطابع في الشرق والغرب من مائة سنة إلى الآن، لا تزال تطبع منها، وما بقي منها مخطوطاً أكثر مما طبع، وما ضاع من المخطوطات أكثر مما بقي، وحسبكم أن تعلموا أن هولاكو لما دخل بغداد ألقى الكتب في دجلة، حتى لوَّن حبرُها ماءَ دجلة، وأن الاسبان لما استرجعوا الأندلس أحرقوا الكتب حتى صارت الليالي من اللهب بيضاء، عدا ما أضاعه التحريق والتخريق والتمزيق، فكم هي إذن الكتب التي ألَّفها علماء المسلمين؟

وبعد، فليس في هذه الكتب كلها، ما هو أشهر وأفضل، وأجلّ عند خاصَّة المسلمين وعامتهم، من الكتاب الذي جئت اليوم أحدثكم عن صاحبه. الكتاب الذي لا يفضِّل عليه المسلمون، إلا كتاباً واحداً، هو القرآن. الكتاب الذي نعدّه بعد كتاب الله عمادَ ديننا، ونجعله حجة بيننا وبين ربنا، ونقيم عليه أمر ديننا وآخرتنا. أما عرفتموه؟ أيُّ كتاب يوضع بعد القرآن مباشرة إلا صحيح البخاري؟

إنكم تعرفونه جيداً، ولكن قليلاً منكم من يعرف صاحبه محمد ابن اسماعيل البخاري، الذي خصصت به هذا الحديث.

كان البخاري مخلصاً للعلـم، وكان حافظـاً نادرة في الحفـظ، وكان كريماً أعجوبة في ا لكرم، وكان مجاهداً سباقـاً الى الجهـاد، وكان سرياً وكان غنياً، وكان صدراً في كل شيء، وكان مع ذلك من أعبد العبَّاد وأزهـد الزهَّـاد، وأشـد المتواضعـين، إنـه أحـد أعاجيب الرجال في تاريخ الاسلام العلمي.

وتاريخ المحدثين خاصة حافل بالرحلات والصبر، وبالإحاطة والحفظ، وبالتقوى والورع، وما منهم إلا من شارك في إقامة هذا البناء العظيم، الذي لا تعرف مثله أمةٌ في الدنيا، ولكن لم يبلغ أحد منهم ما بلغ البخاري، حتى ولا (المحدث الأكبر) أحمد بن حنبل.

نعم ليس لأمة علْم كعلم الحديث، وأي أمة استطاعت أن تتبع كل كلمة قالها نبيها أو زعيمها، وتبين مسراها خلال العصـور، ومن سمعها منه، ومن نقلها عنه، وما هو الطريق الذي مشت فيه، من شخص إلى شخص، لا في يوم أو يومـين، بل في القـرون الطوال، مع ما اضطرهم إليه من بحث أحـوال الرجـال، أمانـة وذاكرة، وحسن معاملة وصلاح نفس، وسيرهم وتواريخهم؟

وإذا كنا نصدق أن نابليون خطب في (استرلتـز) كذا، وأن بسمارك قال كذا، ولم نعرف من سمع ذلك منه ومن رواه عنه، ولعله أخِـذ من جريدة كاذبـة، أو مؤلف مبتـدع، فكيف نطعـن بحديث نقل هذا النقل المضبوط، بهذا السند المتصل، على قرب الزمان بين الرسول ﷺ وهؤلاء المحدثين الأولين؟ إن علم الحديث

من حيث السند ـ وهو طريق الرواية ـ قد بلغ من الكمال ، مالا زيادة عليه لمستزيد .

وأعود الآن إلى البخاري .

لقد سمعتم فيما مضى قصة فتح بخارى على يد القائد ا لكبير قتيبة ، ولم يدخل المسلمون بخارى قط، ولكن بخارى دخلت في الاسلام، ولم تمض عليها مدة قصيرة، حتى صارت معقلاً من أعظم معاقله ، وحصناً من أكبر حصونه ، وبذلك يمتاز الفتح الاسلامي . إنه ليس فتحاً للبلاد، ولا استعماراً لها ولا حماية ولا وصاية ولا انتداباً، كل هذه أشكالٌ زائلة ، ولكنه فتحٌ للقلوب وللبصائر حتى يصير أهل البلاد المفتوحة أحرص على الدين وأخلص له من الفاتحين، وهذه أسرار الأخوة الاسلامية ، وأن المؤمن أخو المؤمن . إنها (بودقة) ذات حرارة عالية ، تذيب كل عنصر وكل جنس ، مهما كان معدنه شديداً قوياً ، فتجعل من ذلك سبيكة واحدة ، هي أثمن وأغلى وأشد تماسكاً وارتباطاً ، من كل عنصر تألفت منه ودخل فيها . وقد حاولت فرنسا أن تقلد فما أحسنت التقليد ، أرادت أن تجعل الجزائريين فرنسيين ، باعطائهم الجنسية الفرنسية ، ونسيت حقيقة ظاهرة ، وهي أن العربي لا يصير أبداً فرنسياً ، ولكن الفارسي والصيني يصير مسلماً لأن الفرنسية (جنسية) و(قومية) والاسلام عقيدة ودين .

لقد ولد الإمام البخاري بعد فتح بخارى بمائة سنة ، وكان أبوه هو الذي دخل في الاسلام، ونشأ هو وأبوه من قبله ، وجده من

قبلهما، في ظلال الاسلام؛ وكان أبوه غنياً، ترك له مالاً جزيلاً، وأورثه تجارة واسعة، فكان يضارب بها، لا المضاربة في (البُرْصات) باصطلاح اليوم، بل شركة المضاربة بالعرف الاسلامي، وهي أن يدفع الغني ماله لمن يتاجر به ويكونان شريكين، هذا بماله وذاك بعمله.

وأنا محدثكم عن أسلوبه في التجارة لتروا كيف كان يطبق علمه على تجارته، ومبادئه على معاملته، لا كمن يدّعي الدين والعلم بلسانه، ويكون عمله... ما نسأل الله من مثله العافية.

جاءته تجارة، فأقبل التجار فدفع له جماعة منهم خمسة آلاف دينار ربحاً، فقال لهم، انصرفوا حتى أفكر وأعطيكم الجواب وجاءه بعدهم مَنْ دفع عشرة آلاف، قال: إني نويت أن أبيع أولئك، ولا أحب أن أنقض نيتي، وباع بربح خمسة آلاف، وترك العشرة.[1]

وكان يكرم العلماء، ويحبو السائلين ولا يرد أحداً، ثم إنه كان يبني من ماله الرباطات والحصون والمدارس ويدعو الناس الى العمل فيها، وينصب لهم الموائد، فربما تغدى على مائدته ثلاثمائة رجل.

وبلغ من الجاه والعظمة منزلة لم تبلغها الملوك، كلما نزل بلدة (وهو في رحلة دائمة) يخرج أهل البلد عامتهم وخاصتهم

---

(١) هذا ورع منه، ولو فعل الفعل الآخر ما كان حراماً.

وأمراؤهم ورعيتهم إلى استقباله من مسافة أميال ويرتج البلد فرحاً به، ويزدحم الكبار على بابـه، ويتسابقـون إلى سماع محاضراتـه والأخذ عنه.

وكان ـ مع هذا كله ـ زاهداً متقشفاً، مرض مرة فعرضوا ماءه (أي بوله) على الطبيب لفحصه، وكانت هذه طريقـة الفحص الطبي عندهم، نعم من أكثر من ألف ومائتي سنة! فقال: هذا ماء رجل لا يأتدم. فسألوه، فقال: صحيح إني ما ائتدمت = أي ما أكلت مع الخبز إداماً = منذ عشرين سنة [1]، فأصرّ الطبيب عليه، فصار يأكل مع الرغيف سُكَّرة.

أما تواضعه فكان أعجوبة، وكان سباقاً إلى كل خـير؛ ألقـى رجل وسَخاً في المسجد، فانتظر البخاري حتى إذا رأى أن الناس لا يبصرونه، قام فحمل الوسخ، وألقاه خارج المسجـد. وأغضبتـه جاريةٌ مرةً، ولم تقبل أن تترضاه، فقال: إنْ لم تترضّنـي، فأنـا أرضي نفسي. فأعتقها، وقال: الآن أرضيت نفسي.

ولدغه زنبور مرة وهو يصلي مرات كثيرة، فلم يترك الصلاة، حتى إذا انتهت، قال، انظروا أي شيء آذاني في صلاتي!

وكان مع هذا جندياً محارباً، بطلاً في الرمي، يخرج للتدريب مع تلاميذه، فلا يخيب له هدف.

تسألون الآن عن علمه؟!

---

(١) وهو الذي يغذي على مائدته الثلاثمائة!

لقد بدأ يحفظ الحديث وهو في الكتّاب ابن عشر سنين، وكان أول أستاذ له (الداخلي)، فسمعه البخاري مرة يروي عن سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقال له: ما هكذا، إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم. قال الداخلي: وما يدريك أنت يا غلام؟ قال: ارجع إلى الكتاب. فرجع فاذا هو كما قال البخاري، قال له ليمتحنه: وكيف هو؟ قال الزبير عن إبراهيم. وكان عمره إحدى عشرة سنة.

وقرأ كتب أهل الرأي مع سماعه الحديث

ثم رحل في طلب العلم؛ وإذا كان الشاب اليوم يرحل بالطيارة أو بالباخرة إلى أوروبا، فإن رحلات البخاري لو جمعت لزادت عن محيط كرة الارض مرتين. قضى حياته في رحلات دائمة، فلم يدع محدثاً ولا عالماً، إلا أخذ منه ما عنده، حتى بلغ من أخذ عنه أربعة آلاف شيخ! وكان يرحل لطلب الحديث الواحد، حتى جمع في هذه الذاكرة العجيبة ما عند المحدثين جميعاً، وكان يعيش للعلم يفكر فيه نهاره كله، ويفكر فيه ليله، يقوم في الليل يشعل السراج ويكتب شيئاً أو يعّلم على حديث، ثم ينام قليلاً، ثم يخطر له خاطر جديد، فيقوم؛ حتى أنه ليشعل السراج في الليلة الواحدة أكثر من عشرين مرة.

وقد أجمع علماء عصره على أنه الأستاذ الأكبر لعلم الحديث، وكان أساتذته يرجعون إليه، ويعرضون عليه مؤلفاتهم، وقد يفخرون بأنه نظر فيها، أو صحح لهم أخطاءها ولم يكونوا يبالون

بأن يأخذوا عمن كان تلميذهم، لأن غايتهم العلم، لاحظّ النفس ولا نيل الدنيا.

وقد تعجبون إذا سمعتم أنه حفظ مليون حديث، وتقولون: وكيف تبلغ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العدد؟

يا سادة: لقد وقع في هذا الخطأ مؤلف من أكبر مؤلفي العصر هو أحمد أمين في (فجر الإسلام)، وسبب هذا الخطأ الجهل باصطلاح المحدثين؛ إن الحديث له متن، هو الكلام المروي عن الرسول ﷺ، وسند، وهو طريق انتقاله إلينا عن فلان عن فلان وقد يكون للمتن الواحد عشرون سنداً، فيُعدُّ بذلك عشرين حديثاً، فمن هنا جاء هذا العدد الضخم.

وهاكم حادثاً واحداً يدلكم على ذاكرة البخاري العجيبة، هو أنه لما قدم بغداد في شبابه، أحب بعض المحدثين أن يختبروا حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث، فخلطوا متونها بأحاديثها، فوضعوا سند هذا لذاك، وسند ذلك لهذا، وجاؤوا بعشرة تلاميذ فحفّظوا كل واحدٍ عشراً من الأحاديث (المشوشة) ليسألوه عنها. فلما قعد في الحلقة، قام الأول فقال: أتعرف حديث كذا؟ وسرد الحديث الأول قال: لا أعرفه؛ قال: فحديث كذا. . .؟ حتى استوفى العشرة. ثم قام الثاني، وهكذا حتى سردوا الأحاديث المائة، وهو يقول: لا أعرفه؛ فلما انتهوا، قال: أما الحديث الأول فروايته كذا، وصوابه كذا. . . حتى أعاد المئة بخطئها وصوابها. . .

وهذه حادثة ثابتة، وهي من أعجب حوادث الحفظ، وليس العجيب حفظ المائة الصحيحة، ولكن العجيب (كما يقول الإمام ابن حجر) حفظ المئة المغلوطة من مرة واحدة.

* * *

عرض هذه الأحاديث كلها، ثم اختار منها أصلحها وأثبتها، فوضعه في كتابه، الذي بدأه في المسجد، وبقي في تأليفه ست عشرة سنة، والذي جمع فيه (٢٧٦١) حديثاً فقط.

* * *

هذا هو (صحيح البخاري) الذي اتفق المسلمون على أنه أصح الكتب بعد كتاب الله ـ وإن فضّل بعضُ المغاربة صحيح مسلم في حسن تبويبه وترتيبه ـ والذي اعتُنِي به أجل عناية فشرُح ثلاثة شروح كبار، أجلُّها شرح ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » ثم شرح العيني، ثم شرح القسطلاني، والذي اختُصر في مختصرات عديدة، وما زال العلماء يشتغلون به.

ولم يُدخل البخاري حديثاً فيه، إلا بعد الاستخارة وصلاة ركعتين.

وليست المنفعة بالبخاري أن يقرأ بلا فهم، أو يوضع في صدر البيت لئلا يحرق أو يسرق، ولا للتبرك به، فهذا فعل السخفاء، بل بفهمه، والاستنباط منه، والعمل به.

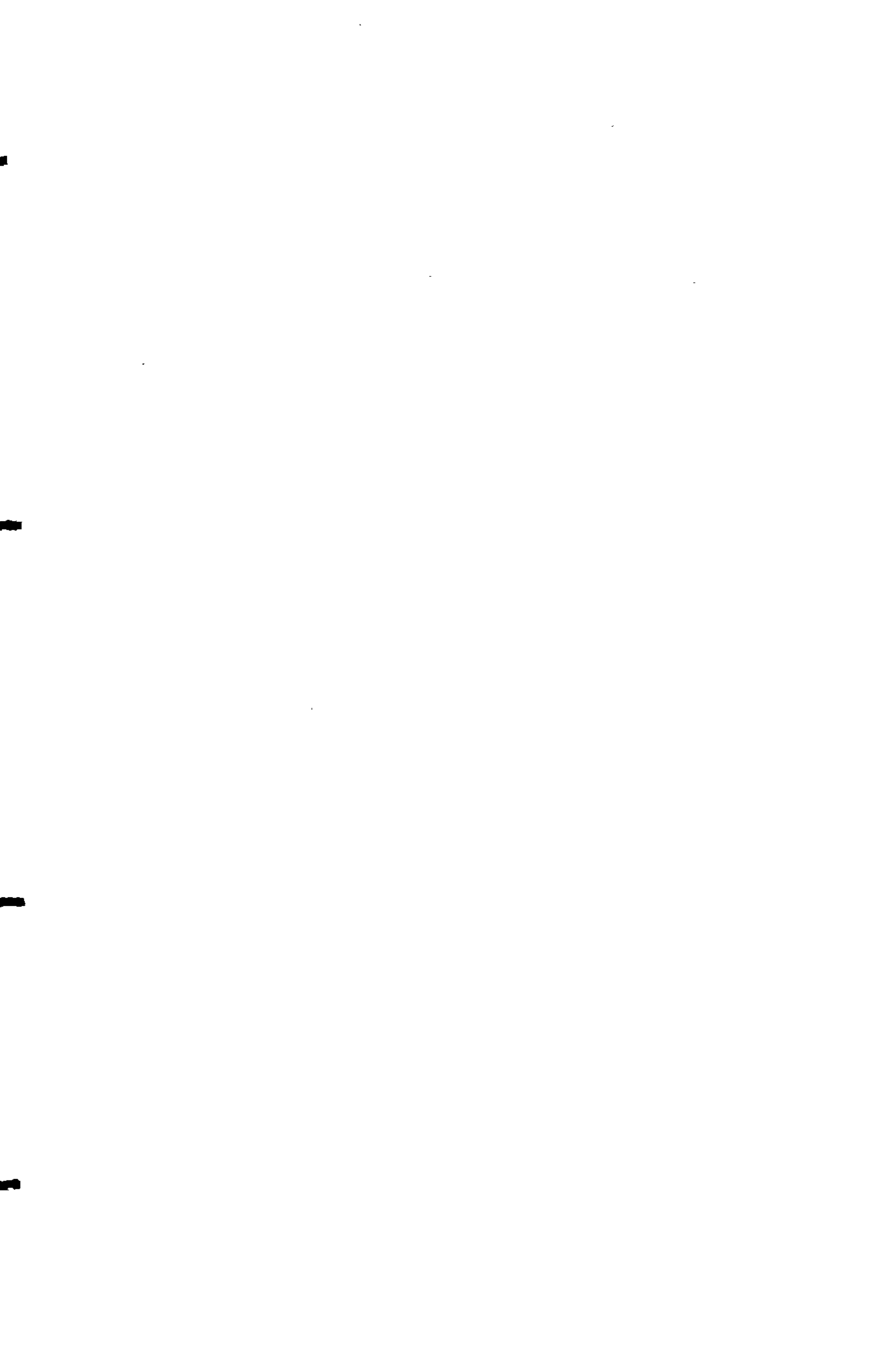
ولم ينج البخاري من (المحنة) محنة خلق القرآن، ولقد ناله منها أذى وضُرّ، وفارق من أجلها بلده، ومات في سمرقند، التي فتحها قتيبة، ليلة عيد الفطر، سنة ٢٥٦هـ .

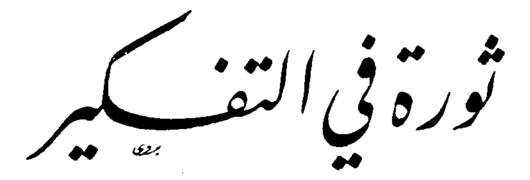
مات، ولكن لم يمت اسمه، ولم يمت كتابه، وسيظل أبداً باقياً، ما بقي على الأرض مسلمون.

جزاه الله عن حديث نبيه ﷺ أفضلَ ما يجزي العلماء العاملين.

* * *

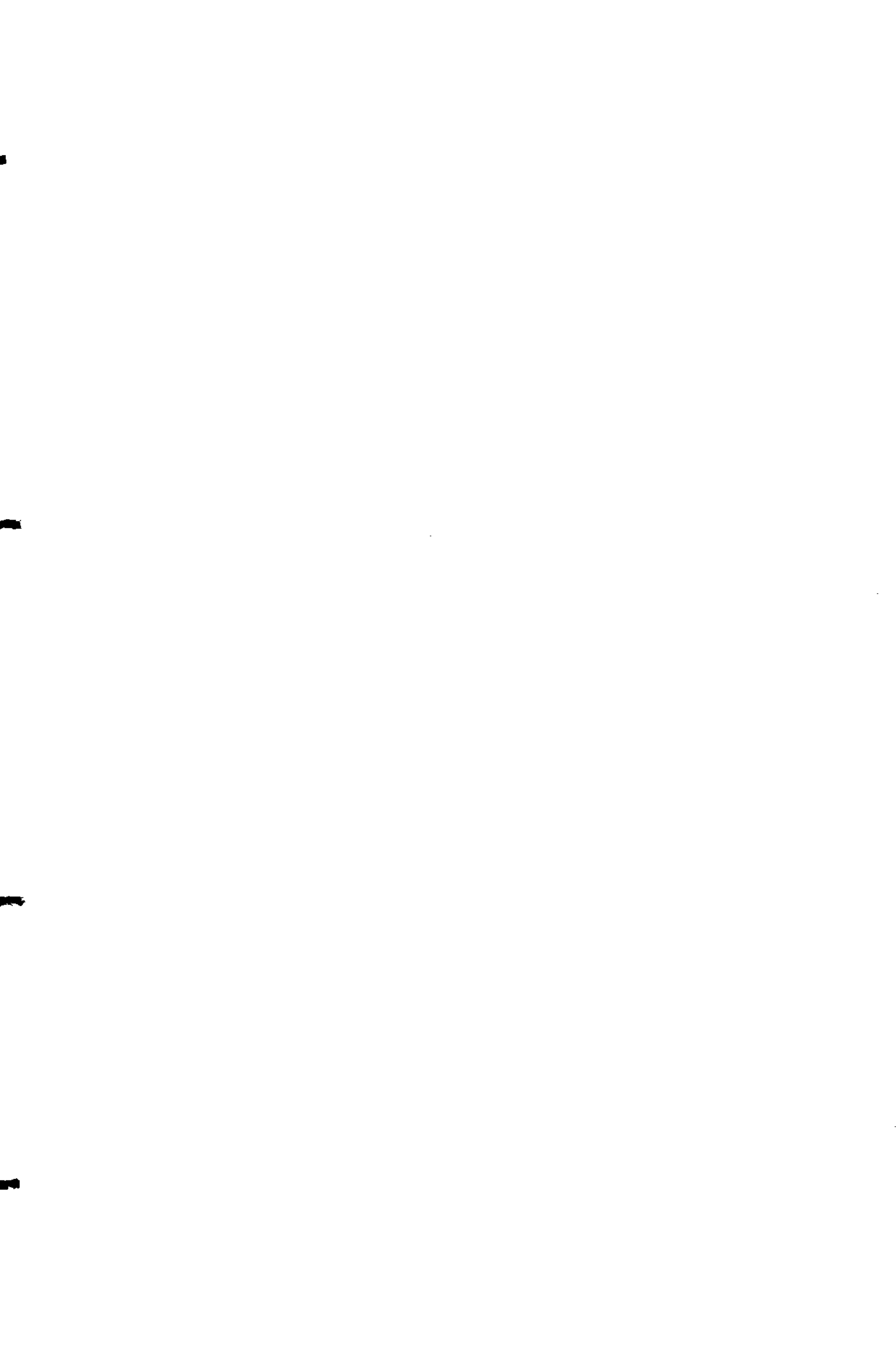
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





للأستاذ

السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي



مُقَــدِّمَة

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يقبل من عباده إلا الطيّب، وصلى الله على رسوله الكريم الذي يخسر من تنكَّب سبيله الجنّة.

وبعد، فكلنا يعرف الفساد المتشعِّب في هذا العصر، والانحرافات الكبيرة التي ينقاد فيها المجتمع، وما منّا من يجهل أن الذي يتربى في مجتمع فاسد وينشأ في بيئة وبيئة، لا بد أن يؤثر فيه - ان استسلم لها - الفساد والوباء، فيفسد ويبعد. ولا يعصمه من سريان الداء وتسلّط الوباء أن يقول أنه يكره الضلال والانحراف، ويمقت الفساد والانحطاط، لا يعصمه ذلك من ذلك، طالما بقي يعمل ويسير تبعاً لتفكيره، وتفكيره إنما ترعرع في هذه الحمأة. وإنما الذي يقيه أن ينزع قياده من يد المنحرفين، ويتأبى عن السير في الطريق الذي مشوا فيه ودعوه أن يتبعهم ويكون في ذيلهم، ثم يبحث - مع بذل الجهد وتحمل العناء - عن النظرات الصحيحة للحياة والكون، بدلاً مما لديه من نظرات أكثرها خاطىء وعن المقاييس السليمة، التي يقيس بها ما يواجهه من أحداث ويعانيه من أعمال، بدلاً من المقاييس المختلة التي أدَّتها إليه اليد القذرة لهذا المجتمع الضال.

وهذه المقاييس وتلك النظرات لا توجد إلا عند القليل النـادر من الرجال في هذا الزمن، ولعليّ لا أغالي حين أقول أنه يأتي في مقدمتهم الرجل الجليل أبو الحسن الندوي الذي عرفت علمه من كتبه، ثم عرفته في دمشـق فأكبـرت فيه الخلـق الـكريم والنفس الكبيرة، حتى إذا التقيت به في بلده وفي بيتـه في لكنـو في الهنـد كملت الصورة واستتم الفضل، واحتل مكانه في نفسي بين العديد القليل من صفوة رجال هذا العصر.

وفي هذه الرسالة إلى بعض هذا اشارة، لمن يفهم الاشارة.

لجنة المسجد

ثورة في التفكير

إننا ـ معشر المسلمين ـ في حاجة إلى ثورة: ثورة في التفكير.

منذ قرون طويلة بدأنا ننظر إلى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم، منتشرة في البلاد، ذات قوميات مختلفة ولغات متنوعة، وثقافة متنوعة، محاطة بظروف وأجواء خاصة، و« إمكانيات » محدودة، تجمع بين فروعها المختلفة وأسرها المتشتتة « وحدتان » اثنتان لا ثالثة لهما: العقيدة والخضوع للغرب، والانحصار عليه في المعيشة والسياسة.

ومنذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات « والامكانيات » وبما نملكه من الوسائل، والمواد الخام، وحواصل البلاد ومنتجاتها، وعدد النفوس، والقوة الحربية، فنرى كفتنا راجحة في إقليم، طائشة في آخر، راجحة في حين، طائشة في آخر.

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر. وآمنا بانه وضع لا يقبل التحول ولا التطور، وتجدد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة « إذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق ». [1]

---

(١) كان ذلك الجملة المأثورة الشائعة في المجتمع الاسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الاسلامي واخضاعه من اقصاه لاقصاه.

وأصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة، وإذا فكرنا في ذلك ـ على حين غفلة من العلم والدراسة والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية فاستولى علينا اليأس والتشاؤم وآمنا بأننا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع، ولنعيش على هامش الحياة، وعيالاً على الغرب مرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين.

هكذا يفكر العرب، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان وفي أندنوسيا وفي تركيا.

وهكذا يفكر الناس في اليابان وفي الصين وفي الهند وفي سيام وفي بورما.

هذا هو التفكير «السليم» وهذا هو المنطق «السديد» ـ كما يسميه ا لناس ـ وهذا هو الاستنتاج العلمي المبني على الدراسة والايمان بقوة الاسباب وطبيعة الأشياء.

ولكن هناك جماعة لا تقبل هذا التفكير، ولا تؤمن بهذا المنطق، بل تثور على هذا المنهج الفكري ثورة قوية عارمة؛ إن لها منهجاً ـ في العمل ـ مختصاً بها، وإلى هذا المنهج يرجع الفضل في أفضل الثورات وأصلحها وأقواها في التاريخ وفي تغير الأوضاع في العالم تغيراً مدهشاً وفي سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل، وصلاح المجتمع البشري بعد الفساد الطويل.

ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج، ولا مستقبل للأمم ـ

التي تؤمن بالمبادىء، وتحتضن الدعوات - إلا في هذا المنهج.

ولنفهم هذا المنهج وقوته وفضله ونتائجه الباهرة للعقول، نرجع قليلاً إلى الماضي ونستوحي « الصحف الصادقة ».

يولد موسى ﷺ في مصر، في بيئة قاتمة خانقة قد انطبقت على بني اسرائيل كل الانطباق، وسدت في وجوههم المنافذ والأبواب، حاضر شقي؛ ومستقبل مظلم، قلة عدد؛ وفقر وسائل؛ وذلة نفوس، عدو قاهر؛ وسخرة ظالمة، لا قوة تدافع؛ ولا دولة تحمي، أمة مصيرها معلوم محتوم، قد خلقت للشقاء والفناء.

ويولد موسى ﷺ وولادته وحياته كلها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ومنطق الاشياء. أراد فرعون أن لا يولد فولد، وأراد أن لا يعيش فعاش، يعيش في صندوق خشبي مسدود، وفي ماء النيل الفائض، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل، ويجدّ به الطلب القوي الساهر، فيفلت وينجو، ويأوي الى ظل شجرة كئيباً غريباً، فيجد الضيافة الكريمة والزواج الحبيب، ويرجع بأهله فيلفه الليل المظلم والطريق الموحش، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بها، فيجد نوراً يسعد به بنو اسرائيل ويهتدي به العالم، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة، فيجد النجدة والمدد للانسانية كلها، ويكرَمُ بالنبوة والرسالة.

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه، وفي مَلائِه وأعوانه، وهو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية وتوجهت اليه الدعوى، وفي لسانه حبسة وفي موقفه ضعف، فيقهر فرعون وملأه بدعوته

وإيمانه وحجته وبيانه. ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنها فناً وسحراً، فاذا بالسحرة خاضعون خاشعون يقولون: ﴿آمنَّا بِربِّ العالمين: رَبِّ موسى وهارون﴾ (١).

ويؤمَر بالخروج ببني إسرائيل والاسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة، ويتبعه فرعون بجنوده، ويصبح موسى والبحر أمامه، والعدو من ورائه ويخوض البحرَ فينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم. ويعبر موسى وقومه ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج.

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء ﴿وأَوْرَثْنا القَوْمَ الّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرْضِ وَمَغَارِبهَا الّتي بَاركْنا فيهـا، وتَمَّـت كَلِمَـةُ رَبِّـكَ الحُسْنى على بَنِيْ إسْرَائيلَ بما صَبَرُوا، ودَمَّرْنا مَا كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ومَا كانوا يَعْرِشُون﴾ (٢).

ما هي القوة التي قهر بها موسى أعظمَ قوة في عصره ومصره؟ وما سرُّ انتصار بني إسرائيل على أعدائهم؟ وما سلاحهم الذي واجهوا به العدو القاهر الكاسر، وأخضعوا به المحيط الحانق الثائر؟

اقرأ قصة موسى في القرآن ـ من جديد ـ تر أن السلاح الذي واجه به موسى فرعونَ وقومَه، وانتصر به بنو إسرائيل، وتبوَّؤوا الإمامة والزعامة في مصر وحولها هو «الإيمان» و«الدعوة إلى الله».

---

(١) الاعراف: ١٢٢ (٢) الاعراف ١٣٧.

ويتجلى هذا الإيمان وهذه الطاعة في ثنايا القصة ومطاويها. وقد تجلّى هذا الإيمان النبوي في دعوة فرعون وقومه، وبه تغلّب موسى على حِجاج فرعون ودهائه؛ هو يريد أن يشغله عن موضوعه ويثير عليه الملأ، وهو ثابت على دعوته، ثابت في إيمانه لا يتزعزع ولا يتزلزل، ولا يتحول ولا يتغير.

﴿ قال فرعون ومَا رَبُّ العالَمِين؟ قالَ: رَبُّ السَّموات والأرْض ومَا بيْنَهُماَ، إن كنتم مُوقِنِينَ. قال لِمَن حَوله: ألا تَسْتَمِعون؟ قال: ربُّكم وربُّ آبائِكم الأوَّلين. قالَ: إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكم لَمَجْنُون. قالَ: رَبُّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُماَ، إنْ كُنْتُم تَعْقِلون [1] ﴾.

ويسأله فرعون عن الأجيال التي مضت، وهو موضوع شائك وسؤال محرج، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بإيمانه الراسخ وحكمته النبوية فيقول: ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّيْ فِي كتَابٍ، لا يَضِلُّ رَبِّيْ ولا يَنْسَى ﴾ [2]. ويفيض في الحديث عن الإله الواحد ـ الذي يفر منه فرعون ـ فيقول:

﴿ الَّذِي جَعَلَ لكُم الأرْضَ مَهْدَاً، وسَلَكَ لكْم فيها سُبُلاَ، وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأخْرَجْنا به أزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى ﴾[3].

ويتجلّى هذا الإيمان في أبرز مظاهره، لما رأى موسى أمامه البحر

---

(١) الشعراء ٢٣ ـ ٢٨

(٢) طه ٥٢

(٣) طه ٥٣

المائج، ومن ورائه العدو الهائج فلا متقدَّم ولا متأخر، وهو وقومه بين طبقتي الرحى، ويناديه بنو إسرائيل في جزع وفي فزع ﴿ قَالَ أصحَابُ مُوسى: إنّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (١)، ولكنه ثابت الجأش، قوي الإيمان يعرف أن الله ناصرُ عبده ومنجزُ وعده، يقول في صراحة وثقة: ﴿ كَلاَّ إنّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٢).

ويعيش بنو إسرائيل في مصر حياة ذل وشقاء وبؤس وفقر، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد وأقسى أساليب الحكم والاستبداد، فيؤمرون بالإنابة إلى الله وتقوية الإيمان وتحسين الصلة بالله ليستحقوا نصره ويوجدوا في أنفسهم صلاحية الوراثة والخلافة في الأرض ﴿ وَأَوْحَيْنا إلى مُوسَى وأخِيهِ أنْ تَبوَّأا لِقَوْمِكُما بمِصْرَ بُيوتاً وَاجْعَلوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً وأقيموا الصّلاةَ، وَبشرِ المُؤْمِنينَ ﴾ (٣).

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى وانقياده واستسلامه للأمر الإلهي - يؤمر بالتوجه إلى أعظم ملوك عصره - وهو الثائر الموتور شديد البطش، عظيم السلطان فيقال له: ﴿ اذْهَبْ إلى فِرْعَونَ إنَّهُ طغى ﴾ (٤) ويتوجه إلى بلاط جبار يدَّعي الربوبية، فيدعوه إلى الله الواحد القهار، ويستمر في دعوته وجهاده وفي وعظه وإرشاده، حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير الفاتحين.

---

(١) الشعراء ٦١

(٢) الشعراء ٦٢

(٣) يونس ٨٧

(٤) النازعات ١٧

لقد كان الإيمانُ والطاعة والدعوة إلى الله القوة التي واجه بها موسى « مشاكل عصره » وقهر بها أعظم امبراطورية على وجه الأرض، وأرقاها مدنية، وأوسعها رقعة، وأغناها أسباباً، وأعظمها جبروتاً.

لو كان موسى - كزعيم لبني إسرائيل - يفكر تفكير الزعماء السياسيين، ويستعرض « الإمكانيات » والوسائل التي يملكها قومه، ويزن كل شيء في ميزان الواقع والحكمة العملية، ولو نظر - وهو الذي نشأ في البلاط الملكي - إلى العدد والعدة والعزة والمنعة والجنود والبنود والثروة والذخائر التي كان يملكها فرعون وقارن في ذلك بين قومه وقوم فرعون، لما جاز له - في شريعة العقل - أن يواجه فرعون بما يسوءه، ولتحتم عليه أن يقنع بحظه وحظ قومه، ويرضى بالوضع السائد، فلا إيمان ولا صلاح، ولا عدل ولا أخلاق، ولا تقوى، ولا إنسانية.

ولكنه نبي يرشده الوحي، ولكنه مؤمن يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصر الله؛ ولكنه داعية يفكر تفكير الدعاة، وإن هذا المنهج من التفكير والعمل هو الذي غيرَّ مجرى التاريخ وأتى بالمعجزات وأدهش العقول وحيرَّ الألباب.

ولو كان الرسول الأعظم محمد بن عبدالله ﷺ يفكر تفكير الزعماء ويستعرض الإمكانيات والوسائل التي كان يملكها قريش، ولو أنه نظر إلى الامبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمور، الامبراطورية الرومية، والامبراطورية

الفارسية، وما تتمتعان به من حول وطول، وقد عرف قوتهما وسعة مملكتهما ـ وهو الفقيه الواعي ـ لما جاز له ـ في شريعة العقل ـ أن يتوجه بدعوته إلى الإنسانية جميعاً، ويكتب إلى سيِّدَيْ العالم المعاصر ورئيسْي الامبراطوريتين الغربية والشرقية يدعوهما إلى الإسلام، ولَبقي الوضع الذي كان يسود من قرون، فمتى تملك هذه الحفنةُ البشرية التي آمنت به القوةَ التي تضارع قوة الامبراطوريتين، بل تفوقها حتى تهزمهما وتدحرهما؟ وإلى متى كان يجب أن ينتظر؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الانسانية لو اتجه هذا الاتجاه وفكّر هذا التفكير؟ لقد شقيت الانسانية إذن شقاءً طويلاً، وتأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق، ولكان للانسانية تاريخ غير هذا التاريخ.

ولكنه ﷺ نبيٌ يُؤمر فيَعمل ويتلقى التوجيه والإرشاد من السماء فينفذ؛ ولكنه مؤمن يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصره، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوي، والقوي بخذلانه ضعيف، ويؤمن بقوله تعالى:

﴿ إنْ يَنْصركُم اللهُ فَلا غَالبَ لَكُمْ، وإنْ يَخْذُلْكم فَمنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكم مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوكل الْمُؤْمنُون ﴾[1] ويؤمن بقوله: ﴿ كمْ مِنْ فِئةٍ قَلْيلةٍ غَلَبتْ فِئَةً كثيرَةً بإذْنِ الله واللهُ مَعَ الصَّابرينَ ﴾[2] ويؤمن بأن الله قد تكفل بنصر من ينصر دينه

(١) آل عمران ١٦

(٢) البقرة ١٤٩

وينهض لإعلاء كلمته فقال: ﴿يا أيها الَّذينَ آمَنُوا: إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ﴾[1] وقال: ﴿وَلَقَدْ سبقتْ كلمتُنَا لِعبادِنا المُرْسَلِين: إنَّهُمْ لهم المَنْصورُونَ، وإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[2] ويؤمن بأن الله قد وعد بالانتصار والغلبة والعلو والسيادة لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الإيمان وتجلت فيهم حقيقته فقال: ﴿وَلاَ تهنُوا وَلاَ تحْزَنُوا، وَأنْتُمُ الأعلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين﴾[3].

ولم يعد بشيء من ذلك ـ من النصر والفتح والظفر والغلبة والعلو والسيادة ـ على الأهواء والنزعات، والطموح والكبرياء وحب المجد ـ الفردي أو القومي ـ وشرف الدماء والأنساب والبلاد، والعصبيات والقوميات، فلم يتقدم بشيء من ذلك إلى العالم ولم يطلب به النصر، مع أنه ﷺ من أشرف الأمم وأفضل البيوتات وأقدس البلاد، إنما تقدم بدعوة دينية، ومنهج خاص للحياة لا غنى للأمم وطوائف البشر عنه على اختلاف أوطانها وألوانها ولغاتها، فخضعت له هذه الأمم وهذه الطوائف من البشر ولم تعقها عن ذلك عصبية، أو قومية، لأنه لم يكن من دعاة عصبية أو جاهلية وإنما كان داعي دين عام للانسانية، وداعي عقيدة ومبدأ ومنهج فاضل للحياة، ونَصرَه الله على قلة وضعف وفقر، ونصر كلَّ منْ قام بهذه الدعوة الدينية وبهذا المنهج الخاص

(١) سورة محمد صلى الله عليه وسلم ٧

(٢) الصافات ١٧٣

(٣) آل عمران ١٢٩

للحياة وتكفَّل بنصرهم إلى آخر الدهر فقال ﴿ أولئِكَ حِزْبُ اللهِ ، ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [1].

إنني لست ممن يدعو إلى رفض الأسباب والتوكل السلبي، ولست ممن يعيش في عالم الخيال والأحلام، ولست ممن ينكر الحاجة إلى الاستعداد وممن لم يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [2].

وقد لُمْت العالم الإسلامي ومن تزَّعمه من الشعوب والدول لوماً شديداً في كتابي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » على التقصير في الاستعداد الحربي والصناعي والتخلف عن أوروبا في ذلك ، واعتبرت ذلك سبباً من أسباب شقاء الانسانية واتجاه العالم من الرشاد إلى الضلال، ومن البناء والازدهار إلى الهدم والدمار.

ولكني أعارض هذا التفكير الذي تسلط على عقلية العالم الاسلامي في العهد الأخير، وهو النظر إلى الأمم الاسلامية - في مختلف أنحاء العالم - ككتل بشرية، شأنها شأن القطعان البشرية الأخرى التي لا رسالة لها في العالم، ولا دعوة لها للأمم، توزن في ميزان الإمكانيات والوسائل والاستعداد المادي، وتقوم بما تملكه من ثروة وذخائر، والتناسي أو الاعراض عن قوتها الكبرى « الايمان والطاعة والدعوة إلى الله ».

---

(١) المجادلة ٢٢

(٢) الأنفال ٦١

إننا يا قوم فقراء ضعفاء متخلفون في العلم والصناعة وفي الاقتصاد والسياسة، المسافة بيننا وبين الأمم الأوروبية مسافة قرون وعهود، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة، ولينل ذلك كل عنايه ورعاية.

ولكننا في وقت واحد القوة الكبرى في العالم، فعندنا دين هو حاجة البشرية كلها، وعندنا دعوة تنقذ العالم من نهايته الاليمة التي تنتظره وتدنو اليه، وعندنا الإيمان الذي يخلق الامانة والشعور بالمسؤولية في النفوس ويخلق الدوافع القوية الى عمل الخير وخدمة الانسانية، وقد حرمتها الامم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الاسباب والوسائل لعمل الخير وخدمة الانسانية، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة، بل متجهة إلى القضاء على المدنية والانسانية. وحاجة أوروبا في اقتباس هذا الايمان منا أشد وأعظم من حاجتنا إلى الاقتباس من صنائعها وعلومها، لأن هذا الايمان هو الاساس وهو الموجه وهو الضابط، وعندنا شريعة تحل جميع المشاكل والأزمات التي يواجهها المجتمع البشري في القرن العشرين. وعندنا ـ أولاً وآخراً ـ نبي أرسل رحمة للعالمين ﴿ يَهْدي بِهِ اللهُ من اتَّبَع رضوانَه سُبُلَ السَّلامِ ، ويُخْرِجُهـمِ مِنَ الـظُّلماتِ إلى النُّور بإِذْنِهِ، وَيهْديهِم إلى صراطٍ مستَقيم ﴾ [1].

ألا فلنتجه بهذه الدعوة الى أوروبا الحائرة التائهة، باخلاص

---

(١) المائدة ١٥

ونزاهة وتوجع وشفقة، وبقوة وثقة وإيمـان، وللنظـر إلى أنفسنـا كدعاة ومنقذين، مبشرين ومنذرين، ونستخدم هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالـم ولنحتـل بفضلهـا مكان الزعامـة والقيادة في ركب الانسانية ومصاف الامـم، بعـد ما عشنـا زمنـاً طويلاً في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية، ولنتجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي إما تُقبل فتَرفع وتُؤمِن، وإما ترفض فتُهلِك وتَقْهَر، بهذه الدعوة التي أوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها.

ولنتجه بهذه الدعوة إلى مجالات مهجورة وكنوز مطمورة في آسيا وفي افريقية، الى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم والصناعة والبلاد الواسعة، والعقول الخصبة والسواعد القـوية، وجهلـت الدين والغايات الصالحة والمبادىء الفاضلة وهي مستعدة لقبـول هذه الدعوة، وإذا قبلت هذه الدعوة وفقهتها وأخلصت لها تغـير مجرى التاريخ من جديد، كما تغير في العهد الاول باسلام الفرس والترك والديلم، وفي العهد الاوسط باسلام التتار والمغول.

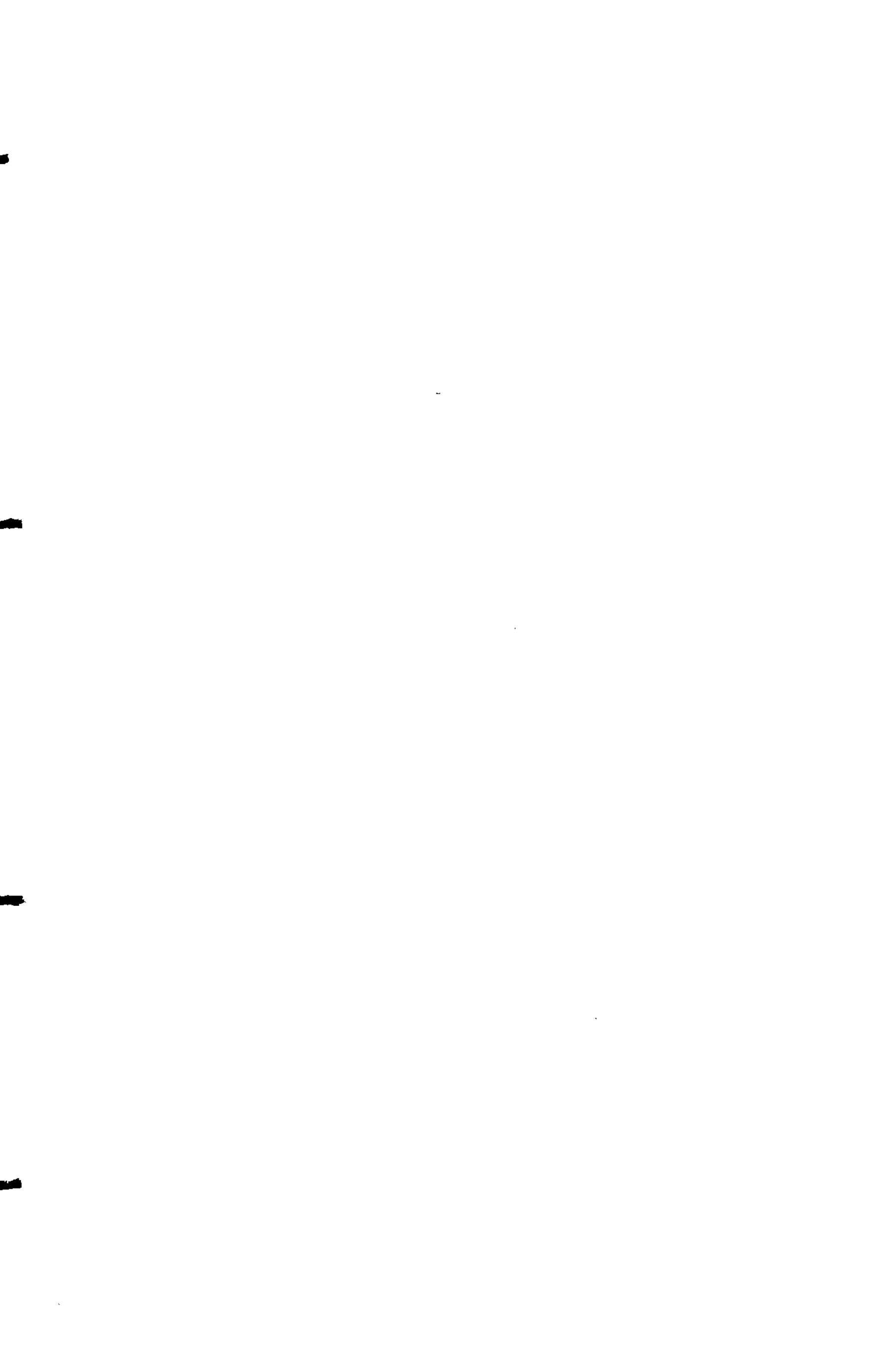
ألا إننا في حاجة الى ثورة، إلى ثورة في التفكير والمنهج.

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بقيّة الخلفاء الرّاشدين

للأستاذ
علي الطنطاوي



بقية الخلفاء الراشدين

من العظماء رجال، لم يكن لهم في غير الخط مجال، صرفوا اليه هممهم كلها حتى برعوا فيه، ومرنت أيديهم على صنع المعجب من آثاره، وخلفوا لنا لوحات لا تقل جمالاً عن أخلد الصور الفنية.

ومنهم رجال ضربوا في أودية البلاغة، وسلكوا طرق البيان، وصاروا أئمة القول، وأعلام الكلام، وتركوا لنا رسائل، هي العسل المصفى، وهي السحر الحلال.

ومنهم رجال صرفوا حياتهم، وأمضوا أعمارهم، في النظر في الأدلة، وتخريج المسائل، حتى صاروا سادة الفقهاء وصدور العلماء.

ومنهم رجال كانوا ملوكاً عباقرة مصلحين، بنوا ممالك ووطدوا دولاً، وفتحوا في الأرض شرعة السماء [1]، وكان حكمهم خيراً على الناس وبركات.

ومنهم رجال كانوا قواداً مظفرين كانوا جِنَّ الحروب ومردة المعامع، لا يخرجون من معركة إلا إلى معركة أشد منها، ينتزعون النصر من يد الهلاك، ويبنون الحياة على أشلاء الموت. لا يحاربون

(١) الشرعة والشريعة الطريق، لذلك قلت فتحوا.

للقتل ولا للتخريب ولا للاذى ولكن ليدافعوا - عن الحق والحضارة - شرٌّ من يأبى أن يقوم في الأرضِ صرحُ الحضارة، وأن يرتفع فيها لواء الحق.

ومنهم رجال كانت عظمتهم أن كرهوا العظمة واجتووها، وزهدوا في الدنيا واستصغروها، وهانت عليهم بمتعتها ولذتها، لما طمعوا بلذاذات الآخرة ومتعها، فأقبلوا على العبادة وأنسوا بالله، وتجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً يرجون رحمته ويخافون عذابه...

وهذا عظيم جمع هذا كله، فكان خطاطاً وكان شاعراً، وكان فقيهاً، وكان ملكاً عظيماً، وكان قائداً مظفراً، وكان زاهداً متعبداً.

حكم الهند كلها؛ خمسين سنة، فاقام فيها العدل، ونشر الامن، وأعز الصالحين، وقهر الطغاة الجبارين، وترك آثاراً على الارض، وآثاراً في الحكم، وآثاراً في العقول.

ملأ الهند مساجد ومشافي ومارستانات، وملاجىء للعاجزين، ومدارس للمتعلمين، وسن في أساليب الحكم سنن الخير. فنظم القضاء، وأصلح قوانين الضرائب، وترك للعلماء كتاباً من أجل كتب الفقه الاسلامي.

هو السلطان عالمكير [١]، أورانك زيب [٢] بن شاهجهان بن جهانكير بن الامبراطور أكبر، حفيد تيمورلنك.

---

(١) أي زمام العالم او قائد العالم.

(٢) اي زينة الملك

نحن الآن في الهند، في القارة التي حكمناها ألف سنة، في الدنيا التي كانت لنا وحدنا، وكنا نحن سادتها، في الفردوس الاسلامي المفقود حقاً، ولئن كانت لنا في اسبانيا أندلس فيها عشرون مليوناً، فلقد كان لنا ها هنا أندلس أكبر، فيها اليوم أربعمائة مليون - خمس سكان الأرض - . ولئن تركنا في الأندلس من بقايا شهدائنا، ودماء أبطالنا، ولئن خلفنا فيها مسجد قرطبة والحمراء، فان لنا في كل شبر من هذه القارة دماً زكياً أرقناه، وحضارة خيرة وشيت جنباتها، وطرزت حواشيها، بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات، وإن لنا فيها معاهد ومدارس، كم أنارت عقولا، وفتحت للحق قلوباً، ولا تزال تفتح القلوب، وتنير العقول. وإن لنا فيها آثار تفوق بجمالها وجلالها الحمراء، وحسبكم تاج محل أجمل بناء علا ظهرَ الارض.

ولو كنتم تعرفون من تاريخ المسلمين في الهند - ولو مثل القليل الذي تعرفون من تاريخهم في الشام ومصر - لدخلت الآن في الحديث عن اورانك زيب، ولكنكم لا تعرفون - مع الأسف - تاريخ الهند، ولا أجد بدا من أن أمهد لهذا الحديث بشيء من التاريخ.

لقد مرت بالهند أربعة عهود اسلامية: عهد الفتح العربي، ثم عهد الفتح الأفغاني، ثم عهد المماليك، ثم عهد المغول.

كان أول من حمل إلى الهند لواء الاسلام، محمد بن القاسم الثقفي، القائد الشاب الذي هجر منازل قومه في الطائف ومشى إلى

العراق في ركاب ابن عمه الحجاج، الذي ظلم كثيراً، وقسا كثيراً، وكانت له هنات غير هينات، ولكنه هو الذي أبقى العراقين، وفتح لنا المشرق كله والسند ـ فبعث المهلب العظيم حتى أطفأ نار الحرب الاهلية التي ضرَّمها الخوارج، وأرسل قتيبة العظيم حتى فتح سمرقند وبخارى وتركستان، وأوفد ابن عمه محمداً العظيم حتى فتح السند.

ولولا الايمان الذي يصنع العجائب، ولولا الهمم الكبار التي تزيح الجبال، ولولا البطولة التي وضعها محمد ﷺ في قلوب العرب... لما استطاع هذا الجيش أن يقطع خمس محيط كرة الارض، وهو ماش على الاقدام، أو معتل ظهور الابل والدواب. ما عرف قطاراً ولا سيارة، ولا رأى على متن الجو طيارة، ولما وضع ابن القاسم الحجر الأول في هذا الصرح الهائل وأدخل الشعاعة الاولى من هذه الشمس التي أشرقت في مكة الى هذه القارة، وفتح السِّند ولم تبلغ سنه سنَّ تلاميذ البكالوريا..!!

وعاد إليها لواء الإسلام مرة ثانية في القرن الرابع، عاد بالفتح على يد السلطان العظيم محمود الغزنوي، الذي خرج من غزنة = وكانت قصبة بلاد الأفغان، وهي إلى الجنوب من كابل = فاخترق ممر خيبر، المضيق المهول الذي يشق تلك الجبال الشاهقة شقاً، والذي تجزع أن تسلكه من وعورته ووحشته أُسْدُ الفلا، وجِنّ الليالي السود. ثم دخل الهند، وخاض عشرات من المعامع الحمر، التي يرقص فيها الموت، ويشتعل الدم، واجتمع عليه أمراء الهند

وأقيالها جميعاً، فطحن أبطالهم ومزق جيوشهم، ومضى حتى جاب البنجاب، واستجابت له هاتيك البلاد، فأقام فيها حكم الله، وأذاق أهلها عدالة الاسلام.

وجاء من هذا الطريق بعد أكثر من قرن، السلطان شهاب الدين الغوري، فوصل من هذا الفتح ما كان منقطعاً، وأكمل منه ما كان ناقصاً، وملك شمالي الهند، وبلغت جيوشه دهلي، فأوقدت فيها منار الدعوة الاسلامية فضوَّأت بعد الظلمة، وأبصرت بعد العمى، ودوى في أرجائها الصوت الذي خرج من بطن مكة، صوت المؤذن ينادي في قلب الهند ذات الأرباب والآلهة والأصنام، أن خابت آلهتكم، وهوت أصنامكم، إنما هو إله واحد:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

وقامت في الهند حكومة إسلامية قرارتها دهلي.

وبينما كان قطب الدين ايبك قائد السلطان الغوري يفتح المدن بسيفه، كان الشيخ معين الدين الجشتي يفتح القلوب بدعوته، فدخل الناس في الاسلام أفواجاً، وكان هذا الفتح أبقى وأخلد، وكان منه اليوم ثمانون مليوناً من المسلمين في باكستان، وأربعون مليوناً غيرهم في هندستان [1]، وسيبقى الاسلام في تلك الديار إلى آخر الزمان بإذن الله.

---

(١) هم على شر حال اليوم من الجهل فيهم وإهمال الحكام لهم. والأمل في جماعة التبليغ وفي جماعة المودودي وفي الجامعات والمدارس كجامعة ديوبند ودار العلوم لندوة العلماء في لكنو، وهي خير مدارس الهند منهجاً ومسلكاً.

وولي الملك بعد السلطان الغوري قائده قطب الدين، الـذي فتح دهلي، وبدأ به عهد المماليك، وكان منهم ملوك عظام حقاً؛ منهم قطب الدين هذا ـ باني منارة قطب مينار، التي يقف اليوم أمام عظمتها كل سائح يرد دهلي ـ وشمس الدين الالتمش وغياث الدين بَلبَان.

ثم جاء الخلج وكان منهم الملك العظيم علاء الدين الخلجي الذي عدل في الناس، وضبط البلاد، وبسط الأمـن، وأوغـل في الهند.

وجاء من بعدهم آل تُغْلق، وكان منهم الملك الصالح المصلح فيروز. ثم جاء اللودَهِيون. وكان في احمد آباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتي.

وكان للعلماء في دولة المماليك دولة أكبر منها، وكان لهم سلطان أكبر من سلطان الملوك. ولقد روى أخونا أبو الحسن علي الحسني الندوي، أن السلطان شمس الدين الالتمش الذي دانت له البلاد كلها ـ وكان في القرن السابع الهجري ـ وخضع له ملـوك الهنـد جميعاً، كان يستـأذن على الشيخ بختيار الكعـكي فيدخـل زاويتـه ويسلم عليه تسـليم المملـوك على الملك. ولا يزال يكبس رجليه ويخدمه ويذرف الدموع على قدميه، حتى يدعو له الشيخ ويأمره بالانصراف.

وإن علاء الدين الخلجي أكبر ملوك الهنـد في زمانـه استـأذن الشيخ الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن له الشيخ.

ولما مرض الشيخ الدولـة آبـادي المفسر، وأشرف على الموت،

عاده السلطان ابراهيم الشرقي، ودعا عند رأسه أن يكون هو ـ أي السلطان ـ فداءه من الموت.

وكانت زاوية نظام الدين البدايوني، أحفل بالقصاد، وأزخر بالناس من قصر الملك، وكان سلطانه الروحي أعظم من سلطان الملك المادي.

كان ذلك يا سادة، لما تجرد هؤلاء العلماء من أثواب المطامع والرغبات، وزهدوا بما في أيدي الملوك، فسعى إلى ابوابهم الملوك، ونزعوا حب الدنيا من قلوبهم، فالقت بنفسها على أقدامهم الدنيا.

وفي عهد السلطان ابراهيم اللودهي سنة **٩٣٣** هـ جاء بابر حفيد تيمورلنك من كابل، وكسر جيوش اللودهي ـ وكانت مائة ألف ـ جاء باثني عشر الفاً من فرسان المغول المسلمين، وأسس دولة المغول التي كانت أكبر الدول الاسلامية في الهند، وكان من ملوكها، الملك الصالح الذي أحدثكم عنه: اورانك زيب.

ولما مات بابر، وولى ابنه همايون، وثب عليه رجل عصامي لم يكن من بيت الملك؛ ولكن كانت له همم الملوك. فانتزع البلاد منه وأقام دولة كانت نادرة في الدول. ونظم الادارة والمالية والجيش تنظيماً لم يسبق إلى مثله، هو السلطان شيرشاه [1] السوري، ولمامات؛ عاد المُلك إلى ابن همايون، وهو الامبراطور أكبر وكان

---

(١) شيرشاه: أي الملك الاسد، أو ملك الاسود.

من أعاظم الملوك، حكم الهند كلها إلا قليلا . وطال حكمه فكفر في آخر أيامه بالله، وأكره الناس على الكفر، وابتدع لهم ديناً جديداً. وأزال معالم الاسلام. وأبطل شعائره [1]، وكان معه الجيش، وكان معه الأمراء، وكانت البلاد كلها في يده، فمن يقوم في وجهه، ومن ينصر الاسلام ومن يدافع عن الدين؟

لقد قام بذلك شيخ ضعيف الجسم، قليل المال والجاه والاعوان، ولكنه قوي الايمان بالله تبارك وتعالى، كبير النفس والقلب، قد استصغر الدنيا فهو لا يحفل بكل ما فيها من مال ومناصب ولذائذ واستهان بالحياة فهو لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، هو الشيخ أحمد السرهندي.

ولم يكن يطمع باصلاح الامبراطور، ولا يجد فيه أملا، فجعل يتصل بالقواد الصغار، وبالحاشية، ويعدُّ لا نقلاب شامل، لا لانقلاب عسكري ثوري، بل لانقلاب روحي فكري، وكان يرسل الرسائل تلتهب بالحماسة الدينية والعاطفة والايمان.

ولما مات أكبر وولى ابنه جهان كير [2]، استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي ـ ابن الشيخ السرهندي ـ أن يشرف على تربية طفل صغير، هو أحد حفدة جهانكير.

ولم يكن هذا الطفل كبير اخوته ولا كان ولي العهد ولم يكن

---

(١) ولذلك يعظمه المؤرخون من أعداء الاسلام من الغربيين ومن يقلدهم منا بلا علم ولا فهم.

(٢) اي قائد الدنيا.

يؤمل له أن يلي الملك. ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده، وبذل رعايته كلها، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية، بين المشايخ والمدرسين، فقرأ القرآن وجوّده، والفقه الحنفي وبرع فيه، والخط وأتقنه، وألمَّ بعلوم عصره، وربي مع ذلك على الفروسية، ودُرِّبَ على القتال.

ولما مات جهانكير، وولي شاه جهان، ولى كلا من أبنائه قطراً من أقطار الهند، وكان نصيب هذا الطفل وهو « اورانك زيب » ولاية الدكن.

وكان لشاه جهان زوجة لا نظير لحسنها في الحسن، ولا مثيل لحبه إياها في الحب، هي « ممتاز محل »، فماتت، فرثاها ولكن لا بقصيدة من الشعر، وخلدها ولكن لا بصورة ولا تمثال، لقد رثاها فخلدها بقطعة فنية من الرخام ما قال شاعر قصيدة أشعر منها، فهي شعر،وهي أغنية ،وهي صورة ،وهي أعظم تحفة في فن العمران.

هي تاج محل، هذا البناء العجيب الذي أدهش بجماله الدنيا، وما زال يدهشها، والذي لان فيه الرخام لهذه الايدي العبقرية، فجعلت منه أجمل بناء شيد على ظهر هذه الأرض بلا خلاف، ونقشته هذا النقش الذي لم يعرف قط نقش في مثل دقته وفنه وسحره.

هذا القبر الذي يأتي اليوم السياح، من أقصى أمريكا إلى «أكرا» قرب دهلي ليشاهدوه، ويسمعوا قصته، وهي أعظم قصص الحب على الاطلاق. لقد صدع موت هذه الزوجة الحبيبة

الامبراطور العظيم، فزهد في دنياه لأنها كانت هي دنياه، وحقر ملك الهند لأنها كانت أعظم عنده من ملك الهند، ولم يعد له أرب بعدها إلا أن يَّملص من حاضره، ويوغل بذكرياته في مآرب الماضي، ليعيش بخياله معها، يستروح رؤياها، ويستجلي جمالها، ويسمع خفي نجواها، ويحس حرارة أنفاسها، ثم استحال حبه إياها حباً لهذا القبر الذي شاده لها، فجن به جنوناً، وصار يحس في برودته حرارتها، وفي جموده خطراتها، وفي صمته حديثها، وانصرف عن الملك وأهمله، فوثب ابنه الأكبر فولي الملك إلا اسمه، وتصرف بالأمر وحده، ونازعه إخوته، وجاء كل من أمارته: شجاع من البنغال، ومراد بخش - أي مراد الله - من الكجرات، واورانك زيب هذا من الدكن، واستطاع أن يغلبهم جميعاً، وينفرد بالأمر، ووضع أباه في قصر من قصور الملك، جعل له في ما يشتهيه من الفرش والطعام واللباس والحاشية والجواري وجعل له حيال سريره مرآة أقيمت على صناعة عجيبة لا تزال تدهش السياح يرى منها « تاج محل » على البعد، وهو مضطجع في سريره كأنه أمامه، وكان ذلك كل ما بقي له من لذائذ دنياه!

وكان جلوسه على سرير الملك سنة ١٠٦٨ هـ وكأني بكم تظنون أن هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية، سيدخل خلوته، ويعمل من قصره مدرسة أو تكية، يصلي ويقرأ في كتب الفقه، ويسيِّب أمور الدنيا ويهملها زاهداً فيها، كلا يا سادة، وما هذه خلائق الاسلام ولا هذه طريقته. إن العمل

لإسعاد الناس، وإقامة العدل ورفع الظلم، وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض. كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب، بل هو خير من صلاة النفل، وصوم التطوع، وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة.

لذلك ترونه قد لبس لَأْمة الحرب من أول يوم ـ وكان يومئذ في الاربعين ـ ونهض بنفسه، يقضي على الخارجين ويقمع المتمردين، ويفتح البلاد، ويقرر العدالة والامن في الأرض، وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة ومن بلد يصلحه إلى بلد، حتى امتد سلطانه من سفوح هملايا، إلى سيف البحر من جنوب الهند، وكاد يملك الهند كلها.. حتى قضى شهيداً في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيداً عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيل.

ومن خاض هذه المعارك، استنفدت وقته كله، ولم تدع له بقية لإصلاح في الداخل، أو نظر في أمور الناس، ولكن أورانك زيب، حقق مع ذلك على الإصلاح الداخلي ما لم يحقق مثله إلا قليل من الملوك.

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها، بمثل عين العُقاب، كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد، فأسكن كل نأمة فساد، وأقر كل بادرة اضطراب، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقياً من الزندقة التي جاء بها «أكبر» أبو جده، وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس ولا ينال أمراء المجوس لفحٌ من نارها، فأبطل منها ثمانين نوعاً، وسن للضرائب سنة عادلة،

وأوجبها على الجميع ، فكان هو أول من أخذها من هؤلاء الأمراء ، ولولا هيبته ، ولولا شدته في الحق لأبوها عليه . وأصلح الطرق القديمة ، وشق طرقاً جديدة . ويكفي لتدركوا طول الطرق في الهند أن تعرفوا أن طريقاً واحداً مما كان فتحه شيرشاه السوري ، كان يمشي فيه المسافر ثلاثة أشهر وكانت تحف الاشجار من الجانبين على طوله وتتعاقب فيه المساجد والخانات!

وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الأئمة والمدرسين، وأسس دوراً للعجزة، ومارستانات للمجانين، ومستشفيات للمرضى.

وأقام العدل في الناس جميعاً، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء، وكان أول من جعل للقضاء قانوناً، فكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكماً كيفياً بل حكماً بالمذهب الحنفي معللاً له مدللاً عليه، ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية، وكان للأمبراطور امتيازات فألغاها كلها، وجعل نفسه تابعاً للمحاكم العادية، ولمن له عليه حق أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس.

وكان الرجل عالماً، فقيهاً بارعاً في الفقه الحنفي، فأدنى العلماء ولازمهم، وجعلهم خاصته ومستشاريه، وبنى لهم المدارس وجعل لهم الرواتب.

ووفق إلى أمرين، لم يسبقه إليهما أحد من ملوك المسلمين.

الأول: أنه لم يكن يعطي عالماً عطية أو راتباً إلا طالبه بعمل، بتأليف أو تدريس، لئلا يأخذ المال ويتكاسل فيكون قد جمع بين السيئتين، أخذ المال بلا حق، وكتمان العلم، فما قول مدرسي الإفتاء والأوقاف في الشام اليوم؟

والثاني: أنه أول من عمل على تدوين الأحكام الشرعية، في كتاب واحد، يتخذ قانوناً، فوضعت له (وبأمره وبإشرافه ونظره) الفتاوى التي نسبت إليه فسميت الفتاوى العالمكيرية، واشتهرت بالفتاوى الهندية، ويعرفها كل من يقرأ هذا المقال من العلماء، لأنها من أشهر كتب الأحكام في الفقه الاسلامي، وأجودها ترتيباً وتصنيفاً.

وكان ـ بعد ذلك كله ـ يؤلف، ألّف كتاباً في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية، ويكتب الرسائل البليغة، التي تعد في لسانهم من روائع البيان، ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها، وحفظ القرآن بعد أن ولي الملك، وكان شاعراً موسيقياً ولكنه ترك ذلك وكرهه، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا، ولم يكن يراهم لازمين لأمة لا تزال تبني في الأرض صرح مجدها.

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائباً عن المصر لأمر من الأمور يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ثم يذهب حيث شاء.

وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر، وما أدراكم ما حر الهند؟ ويحيي الليالي بالتراويح، ويعتكف في العشر الأواخر من رمضان في المسجد، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة، في كل أسبوع من أسابيع السنة، ويداوم على الطهارة بالوضوء ويحافظ على الأذكار ويمد أهل الحرمين بالصِّلات المتكررة الدائمة.

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم، والبراعة في فنون الحرب، وفي التنظيم الإداري. فكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة؟ ويقضي بين الناس ويؤلف في العلم؟ ويكتب المصاحف؟ ويحفظ القرآن؟ ويدير هذه القارة الهائلة؟ ويخوض هذه المعارك الكثيرة؟

لقد كان يقسِّم بين ذلك أوقاته، ويعيش حياة مرتبة، فوقت لنفسه، ووقت لأهله، ووقت لربه، وللادارة والقتال والقضاء أوقاتها.

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره، وكانت بيده مفاتيح الكنوز، وكان يعيش عيش الزهد والفقر، ما مد يده ولا عينه إلى حرام، ولا أدخله بطنه، ولا كشف له إزاره، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة!

هذا هو الملك الـذي قلـت إنـه كان بقية الخلفـاء الراشـدين توفي [1] في مثل هذا الشهر (ذي القعدة) من سنة ١١١٨ هـ وما رأى الناس بعده وقلما رأوا قبله مثله.

رحمة الله على روحه الطاهرة.

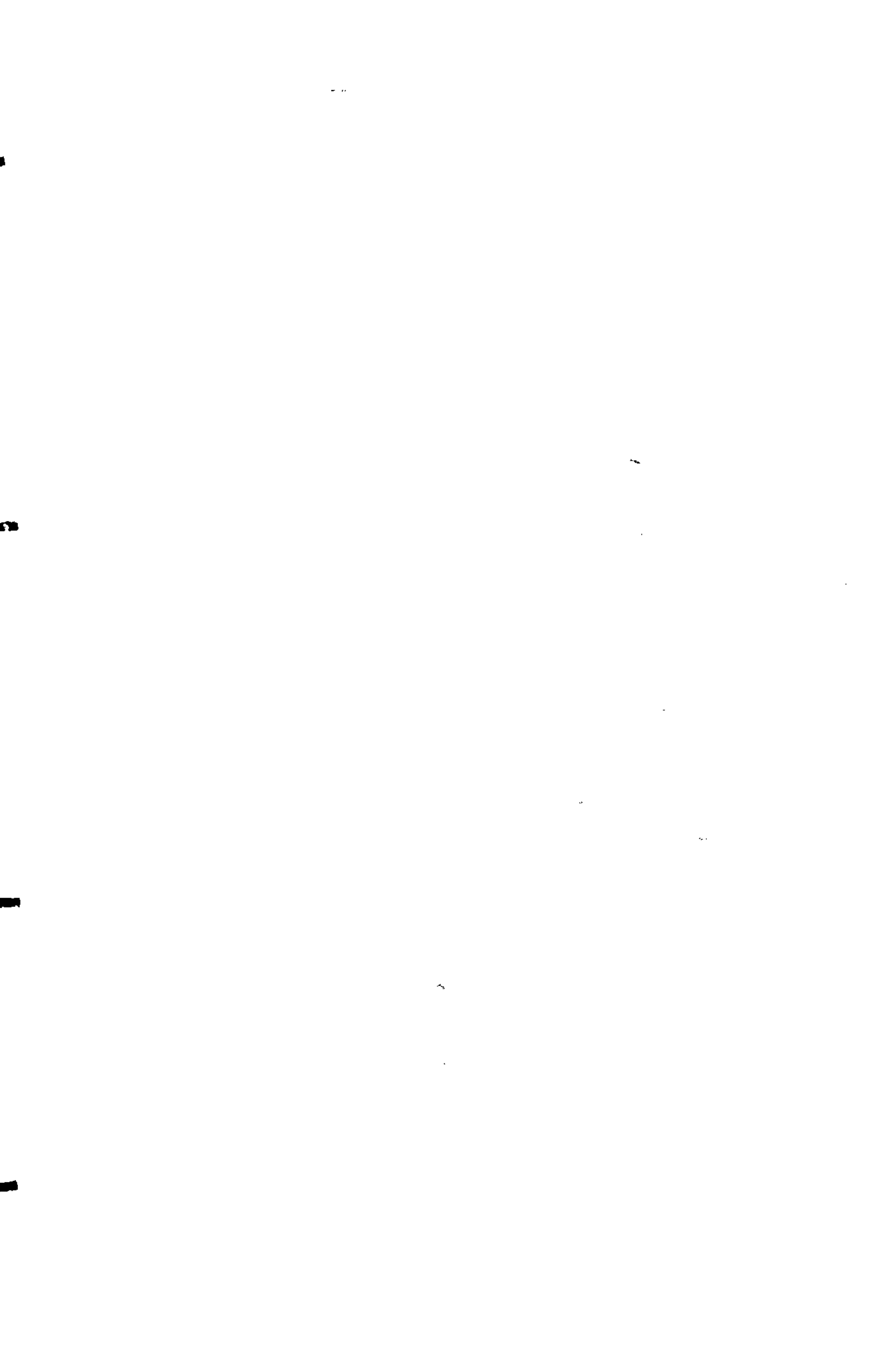
* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) توفي في ذي القعدة، وولد كذلك في ذي القعدة، وتولى ملك الهند في ذي القعدة أيضاً.

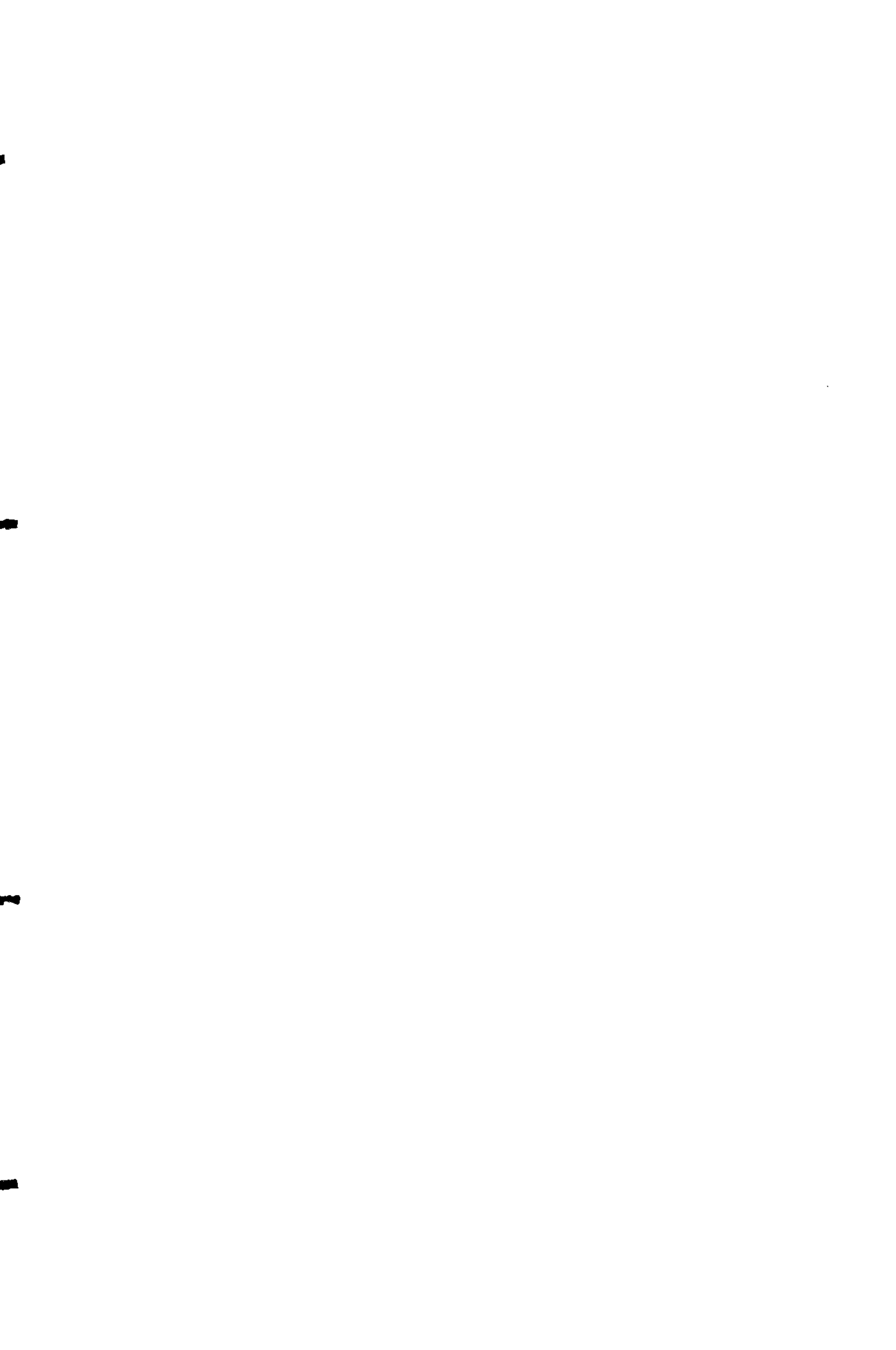
(اللجنة)



أصول حضارة الإسلام

عقد اجتماعي جديد

للأستاذ محمّد أسد
(ليوبولد ڤايس)



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن أساساً لا يُعدل به، وأرسل سيدنا محمداً ﷺ قائداً لا يُعدل عنه. وبعد

فقد سررت حينما اطلعت على النسخة الأولى التي أعدتها المطبعة من هذه الرسالة. سررت لأن النضج الفكري، والوعي الصحيح، والنظرة السليمة إلى الأمور، عنصر أساسي في كيان الداعية المسلم، وأمثال هذا البحث مما يساعد على تنمية الفكر، وتسديد النظرة، وتقويم الموازين. وسررت لأن كاتب هذه الرسالة، هو المفكر المعروف محمد أسد مؤلف كتاب « الاسلام على مفترق الطرق » والذي نشأ نمسوياً وشبَّ على دين النمسويين، ثم هداه الله إلى الاسلام، قبل أربعين عاماً، فهجر ما كان يسميه وطنه، استبدله بالوطن الذي لا يعرف هذه الحدود، وترك ما كان يدعوه دينه، لما ترفع عن دنيات الارض وتعلق بنقاء السماء، وأكّد هذه الفصم بتركه الاسم الذي ولد فيه جسمه « ليوبولد فايس » إلى الاسم الذي ولدت فيه نفسه « محمد أسد »، وساح في بلاد الاسلام، وجال في نجد والحجاز، وألف كتابه « الطريق إلى مكة » ولبث طويلا في الهند وباكستان، وشغل بعض المناصب

هناك، وأصدر مجلته « عرفات » بالانكليزية يعرّف من لا يعرف العربية بالاسلام.

سرني من اللجنة الكريمة هذا الاختيار. وبدأت بقراءة البحث لأننا كمسلمين لا نقدّس الأشخاص، ولا نتّبع رجلا ما في كل ما يقول لإعجابنا ببعض ما قال، ولا نردّ على آخر كلَّ ما قال لزلله في بعض ما يقول، نجل العالم ونحبه، ولكنّا لا نقدسه ولا نعبده، نستفيد من علمه، ونتعظ بتذكيره، ونشكر له ما أفادنا به، إلا أننا لا نتعامى عن نقائصه، ولا نجعل مآخذه فضائلا، ولا نتابعه على أخطائه، وإن كنا نعذره فيها، إن كان وكانت مما يعذر فيه. كما أن مقتنا للباطل، وكرهنا للانحراف، لا يجعلنا نعدل عن الانصاف فنغمط المخطِىء حقَّه، وننكر للمبطل فضله، فإذا كان قد أساء فيما اتبع فيه الباطل، فقد أحسن فيما قام فيه من الخير وإذا كنا لم نحب الرجل الفاضل لشخصه بل لتقواه، نجفوه إذا جفا الحق والخير، فكذلك لا يكون بغضنا شخصاً لذاته، بل لما يحمل من خلال ذميمة ويعمل من سوء، ينقلب كرهنا له حباً، إذا انقلب إلى الصفات الحميدة والعمل الصالح.

ففاقد الفكر، يرى المادة فقط، فيوالي ويعادي الناس لذات الناس. أما أولو الفكر فيُعمِلون الفكر ويقدسون الحق، ويترفعون عن جعل الأجساد أساس مواقفهم من العباد.

إن الحق أعلى من الناس وأقدم، يُعرفون به ولا يعرف بهم، ويغرفون منه فيعرف حينئذ منهم، ورضي الله عن علي الذي يقول:

(إنك لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله). ومالك رحمه الله - إمام دار الهجرة - لم يمنعه إجلاله علماء عصره، وإكباره شيوخه وأساتذته من أن يقول : (ما من أحد إلا يؤخذ منه ويردّ عليه، إلا صاحب هذا القبر، ﷺ).

بدأت أقرأ هذه الرسالة، مع معرفتي بأن محمد أسد، مفكر كبير، وكاتب قدير، وإنه يستفاد من كثير من آرائه ومؤلفاته، ومعرفتي بأنني لا أبلغ مقاماً ذا بال بين رجال هذا البلد، ولا أكاد أعرف فيما جاوزه.. ولكني أعرف أيضاً أن من هو دوني قد ينتبه إلى خطأ لدى من هو أكبر منه، ويبقى مع ذلك هذا هذا، وهذا هذا، لم يصبح الصغير كبيراً، لأنه لم يلحظ ما لاحظه بقدرة منه، بل بالحق القديم، ولم يتضع الكبير ويسقط، لأن كل إنسان معرض للخطأ والسهو والنسيان، وكذلك :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً
فافعاله اللائي سررن ألوف

ووصلت في القراءة إلى جوابه عن سؤال يردده البعض (ص ١٧) عن قيمة الاسلام ونجاحه في إسعاد البلاد والعباد، وإلى رده على ذلك بقوله :

(وليس من الخير في شيء أن نجيب عن هذا التساؤل بقولنا إن الاسلام شرعة الله) وتوقفت عن القراءة ، وتساءلت بدوري عن قيمة ما أجاب به، فوجدت أن كثيراً منا لا يرون في الترفق بإقناع الآخرين بأن الاسلام هو دين الله كبير جدوى، فيعدلون عن ذلك

إلى ألوان من الفلسفة. مع أن جوهر إسلامنا هو هذا الاعتقاد بأن الاسلام شرعة الله. صحيح أن الاسلام جليل وسام وعظيم، وكله نفع وفائدة وخير، ولكن الذي يختار الاسلام لما آنس فيه من نفع وما وجده من فوائد، ولما رآه من خير، لا يكون مسلماً كما ينبغي، ولو دعا اليه، وعمل له، وبذل في سبيل ذلك دمه وماله. أجل، لا يكون مسلماً حتى يختار الاسلام لأنه شرعة الله، أي لأن الله عز وجل رضيه له وأمره به ولا يقبل منه غيره، وأكاد أن أقول أن المسلم الحق هو الذي يقبل الاسلام ويتبناه ويصمم على السير في سبيله قبل أن يطلع على أوامر الاسلام ونواهيه وأنظمته وأجزاء حضارته.

إن الاسلام استسلام، ينبثق عن العبودية والألوهية أي عن إدراكه أنه عبد مخلوق بكل ذرات جسمه وأجزاء كيانه وجميع ما يستعمله في هذه الحياة، وإدراكه عظمة من خلقه وحكمته وجبروته. إذا عرف المخلوق وأدرك أنه مخلوق، فقد عرف أن له خالقاً، وإذا عرف الخالق نتج التوحيد وحصل الاستسلام فاستقام على الاسلام.

إنك حين تحتاج إلى شراء سلعة من شخص غريب عنك تقلب السلعة وتختبرها وتمعن النظر فيها، خشية الغش فانك تكره أن تحصل بمالك على سلعة فاسدة، أما إذا كان البائع ممن تثق به وتعرف منه الصدق والامانة فانك لاتحتاج حينئذ إلى شيء من ذلك، وإنما تكتفي بقول البائع فيها وتزكيته لها. وإذا كان والدك من ذوي العلم والصلاح، وكان يجمع إلى هذا وذاك خبرة بالغة في

هذا النوع من السلع، وأتاك بهذه السلعة، التي قال لك أنه يرضى لك أن تفوز بها، أتراك حين ذاك، لا تقبل ولا توافق إلا إذا فحصتها بنفسك ـ وأنت من أجهل الناس بهذا النوع ـ ثم ألقيت اليه بجوابك؟ أتراك حينئذ تكون مهذباً كريم الخلق طيِّعاً لأبيك راضياً عنك ولو كان جوابك بالايجاب؟ إنك حين تظهر عدم ثقتك في أبيك وقلة اطمئنانك إلى علمه وخبرته. وتحكم رأيك ـ « مع جهلك » ـ في علمه ـ « وهو المختص » ـ وخبرته، تكون ـ « في نظر الجميع » ـ قد جئت أمراً إدّاً.

إنه لا يستقيم لك أمر إلا إذا افهمت أن العبد وما ملكت يداه لسيده، وأنك عبد لله الذي خلقك من عدم وقواك بعد عجز، ورزقك بعد عدم. وأن المقصد الوحيد لك في حياتك هو نيل رضاه. ولا تنال رضاه إلا باتباع الاسلام لا يقبل ممن يبتغي سواه.

أما أن هذا القول لا يرضي أحداً ممن لا يؤمنون بالقرآن ورسول القرآن، وأن هذه الحجة ليس لها من وزن أو خطر عند من يجحدون ويرتابون..

فقد يكون هذا صحيحاً، ولكن ما وزن ذلك وما خطره؟ وإذا كانوا قد عموا عن هذا الاساس العظيم الواضح أنهم مخلوقات غارقة في العجز. وأنهم ليسوا آلهة، وأن عليهم الخضوع والطاعة لمن خلقهم، إذا كانوا قد عموا عن هذا أو تعاموا عنه أتُراك تظن أنهم سينقادون لأدلتك العقلية السديدة؟

إننا لا ندعو الناس إلى أن يتكرموا بالموافقة على الإسلام ولا أن

يمنُّوا علينا بتأدية أعمال الاسلام. وإنّما ندعوهم إلى التوحيد، فإن قبلوا فقد قبلوا الإسلام لأن الإسلام هو الاستسلام لله، والسير في السبيل الذي يرضاه، لا لشيء الا لوجه الله. وإن أبَوا التوحيد، فلا يجدي قبولهم بأيّ أمر من أمور الإسلام أو قيامهم بعمل من أعماله.

ومن هنا تبدو السطحية التي يقع فيها أحياناً بعض الشباب وغير الشباب ممن يريد الخير ويعمل للدعوة، حين يحتال أحدهم على رفيقه ليدخل المسجد باطماعه ببعض مكاسب الدنيا، أو تهديده بفوات شيء منها. لا يا أخي الكريم إن كل عمل لا ينبعث عن الإيمان بالله ويقوم على قاعدة من التوحيد لا قيمة له ولا نفع ولا أثر ﴿وَقَدِمْنَا إلى ما عمِلوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (١) إن الذي لم يؤمن بالله يكون كافراً، وأعمال الكافر مهما قام به من أعمال الخير وتحمّل وبذل - سراب! ﴿والَّذِينَ كفَرُوا أعْمَالُهُمْ كسَرَابٍ بقيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظّمْآنُ مَاءً، حتى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجدَ الله عِنْدَهُ فَوَفيَّهُ حِسَابَهُ﴾ (٢).

هذه السطحية هي التي يقع فيها كثير ممن يناقشون المنحرفين أو الملحدين ببعض أمور الإسلام، فيمضون الساعات ولا يحصدون سوى العناء!

إذا أردت يا أخي أن تدعو حقاً فالتزم هذه القاعدة التي سنها لك قائدك الحبيبﷺ. الدعوة إلى التوحيد دعوة واضحة جلية،

---

(١) الفرقان : ٢٣ (٢) النور : ٣٩

لا تعقيد ولا غموض. فاذا أبى تركته ووفرت جهودك لغيره، وإن قبل فقد انتهى كل شيء.

إن أجزاء الاسلام لا تنتهي فاذا أصبح شغلك أن تجر الناس إليها واحدة بواحدة، لم يكف أضعاف عمرك لجر واحد من الناس لبعضها، وكلما جررته إلى أمر تفلت من أمور وعدت إلى العناء من جديد. وأمضيت حياتك في مكابدة وشقاء. أما إذا ترفقت بدعوته إلى الأساس، فجليته له وأقنعته به فرضيه وآمن به - ولن يتسنى لك هذا إلا إذا كنت أنت قبل ذلك مؤمناً به فاهماً له مستقيماً بصدق وقوة على سبيله - إذا قبل هذا فلن يحيجك إلى دعوته لأي أمر، لأنه سيندفع حينئذ بنفسه إلى البحث عن هذه الاجزاء وتعلمها والإستقامة عليها والدعوة اليها..

وفي ص ٢٧ يقول :

(.. ولم يكن بين صحابة رسول ﷺ فئة أو طبقة تفردت بامتياز أو سلطان على من عداها من الطبقات أو الفئات، وما كان لأي لون من الوان التمايز والتباين بين الصحابة أن يوجد..)

ولا أريد أن أقول أن هذا خطأ، وإنما احب أن أذكّر بضرورة فهمه كما ينبغي، على وجهه الصحيح.

فانك حين تقرأ في السيرة والتاريخ الإسلامي، أن أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه كانوا القرّاء، وانهم لم يكونوا يؤمَّرون على الجيوش الإسلامية، الكبيرة أو الصغيرة، إلا البدريين وأمثالهم وأن عمر كان يستشير في الأمور رؤوس الناس وكبار

المهاجرين والأنصار، وأن أحد كبار الصحابة ـ لما انتقد عليه أحد الناس أنَّ الكبار في المدينة قد بحثوا لوحدهم أمر الخلافة وقرّروا فيه هم، دون بقية الناس. قال له شيئاً معناه : إن الأمر إلى هؤلاء إذا رضوا شيئاً تقرر، واذا كرهوه تُرك، وإنما أنتم تبع! إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبين أنه كان يوجد فيهم امتياز. والرواتب التي جعلها عمر للمسلمين وتباينها الكبير بين اثنى عشر الفاً وثلاثمائة، لها دلالتها في هذا المجال. ولكن هذا التمايز مهما كان لونه، ومهما بلغت حدوده، فانما يعود فقط إلى الإسلام ويقوم على الإسلام فحسب. أما النسب والغنى والسلطان وما إلى ذلك.. فلا يؤبه لها ولا يلتفت إليها، فبقدر ما لدى الرجل من الإسلام يكون له، وبحسب سابقته في الإسلام تكون منزلته، وما رفعوا من رفعوا إلا برفعه الإسلامَ وإقباله عليه وتحمله وجهاده في سبيله، ولا اتضع من اتضع إلا باعراضه وتقصيره..

وأعود فأعيد : أنّني لم أُرِد بكلامي هذا أن أَرُدَّ على الكاتب، فالرجل أكبر من أن يكون أراد هذا، غير أن الكلام يحتمل، وقد يوجد من يحمل على غير المحمل، وبعض الناس قد يقع في الالتباس، لذا كان لا بأس من التوضيح، وبعض التنويه قد يقي من التشويه!

نعوذ بالله من الإنحراف والتقصير، ونستعين بالله على الاستقامة والتشمير، والهديَ نقصد، ورضاءَ الله نطلب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

محمد سعيد الطنطاوي

أصول حضارة الإسلام

عقد اجتماعي جديد

لن يجدينا اليوم نفعاً ترديد ما بين أيدينا من دعاوى عريضة جوفاء نحاول أن نستنهض بها همم المسلمين وإيمانهم، لأن موجة هذا الإيمان ما زالت في انحسار بعد أن أصاب الفكر الإسلامي ما أصابه من أسن وعقم استطالا على يد « حماة الإسلام الرسميين » قروناً طويلة. إنما السبيل إلى استنهاض المسلمين بعث عقلي جديد يقوم على اكتشاف الإسلام من جديد واستشراف له من مصدريه الأساسيين، في كتاب الله وسنة رسوله، وفي الأخذ بمناهج الحضارة الإسلامية وما رسمته للمجتمعات البشرية من نظم وتشريعات.

تساؤل :

ويحسن بنا قبل أن نمضي في الحديث أن نجيب عن سؤال طالما ردده كثيرون، من نقاد الإسلام من غير المسلمين، وكثير من المسلمين أنفسهم الذين يرتابون في إيمانهم إذ يتساءلون عما جاء به

الإسلام من منهاج وتشريع، وعما صاحب الإسلام في صدره الأول من فتح وانتشار يشهد بهما التاريخ، وعن هذه الحضارة الإسلامية ومدى ما تستطيع أن تقدمه حقاً لسعادة الإنسانية ورفاهيتها حتى تسعى إليها وتنشدها وتطلبها من أبوابها مهما يكلفها ذلك من تضحيات.

وإذا كانت حضارة الإسلام حضارة فكرية ذات مبادىء ومناهج، وكانت بذلك نمطاً فريداً فذاً في تاريخ البشرية كلها، فهل في ذلك ما يبرر إيمان أصحابها وثقتهم بالمستقبل؟ وهل في ذلك ما يؤهل هذه الحضارة للهيمنة على المجتمع البشري حين يأذن الله؟ لأن في هذه الهيمنة تقدم البشر ورقيهم وحفز الهمم إلى كمال الإبداع وشمول الخير.

وليس من الخير في شيء أن نجيب عن هذا التساؤل بقولنا: « إن الإسلام شرعة الله » لأن مثل هذا القول لا يرضي أحداً ممن لا يؤمنون بالقرآن ورسول القرآن، وليس لهذه الحجة من وزن أو خطر عند من يجحدون ويرتابون، بل إنه لمن الخير لنا وللدنيا جميعاً إن كنا نؤمن إيماناً حقاً أن الإسلام دعوة فذة حتم على المسلمين أن يجهروا بها ويعملوا لها، ونعتقد أن الإسلام لم يكن صفحة عابرة من صفحات الماضي طوي سجلها ولكنه نداء الله للانسانية في مقبل أيامها. إنه لمن الخير أن نقيم الدليل على أن ما ندين به من عقيدة يستند إلى أساس عقلي سديد، ولا يرجع إلى تعلق عاطفي فج لا غناء فيه.

خرافة العقد الاجتماعي :

ولعلنا قد سمعنا بين نظريات الاجتماع بهذه النظرية التي نادى بها أول ما نادى « هويز » و« لوك » من فلاسفة الانكليز ثم زاد عليها وأتمها « روسو » من بعد. ويزعمون فيها أن الجماعات البشرية تقوم في أصولها على ما دعوه « العقد الاجتماعي »، وافترضوا لذلك أن بني الإنسان وقد أدركوا منذ فجر حياتهم المتحضر ألاَّ سبيل لهم إلى شيء من الأمن أو السلام إلا إذا تعاونوا فيما بينهم، فألزموا أنفسهم لذلك عن طواعية واختيار نظماً لهذا التعاون تحدد علاقاتهم فيما بينهم على وجه أقرب ما يكون إلى تحديد حقوق كل فرد وواجباته محققين بذلك مصالح الفرد لصالح الجماعة كلها.

ورغم طغيان هذه النظرة على مجتمعات الغرب في منتصف القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر، فإن البحوث الاجتماعية الحديثة قد هزتها هزاً وحطمتها تحطيماً، وأثبتت انها لا تعدو أن تكون إحدى هذه الأساطير الطريفة يتعلل بها الناس بين الحين والحين لتضفي خيوطاً من النور على ما هم فيه من ظلمة وما يشعرون به من مرارة مبعثها إدراكهم ما هم عليه من ضعف وعجز وقصور.

حضارات القوة :

فليس هناك من دليل واحد ـ أياً كان هذا الدليل ـ على أن

مجتمعاً من المجتمعات أو حضارة من الحضارات قد نشأت عن رضا الناس بها واتفاق حر فيما بينهم عليها، لأن الصورة التي نشأت عليها مجتمعات البشر تختلف عن ذلك أشد الاختلاف، فلم يؤثر عن أي من هذه المجتمعات التي روى لنا التاريخ من أخبارها أن كيانها الاجتماعي المتوارث كان وليد اتفاق حر بين من ضمتهم هذه المجتمعات سواء كان على رأس هذه المجتمعات ثلَّة من الأفراد كما كان الحال في مجتمعات اليونان الأقدمين التي كانت مدنها دولاً مستقلة، أو كانت مجتمعات يحكمها الملوك باسم الآلهة، كما كان الشأن في حضارات البابليين والمصريين، أو كانت مجتمعات اقطاعية كمجتمعات أوروبا في القرون الوسطى. بل لقد كانت هذه الحضارات على النقيض من ذلك نتاجاً خالصاً لسياسة القوة وحدها، فكان يقوم في فترات متباعدة من الزمن أفراد أو جماعات من الناس تنجح في التسلط على من عداهم من أفراد القبيلة أو المجتمع سواء عن طريق القوة الغشوم وحدها أو التهديد باستخدامها. وقد تكون الفئة في ذاتها أقلية ولكنها أشد عزماً من الأغلبية وأثبت منها جناناً. ويستطيع الفرد المتسلط كما تستطيع الجماعة المتحكمة في كلتا الحالتين ـ وبين يديها السلطة المطلقة ـ أن تشكل على هؤلاء ما شاءت من مختلف النظم الاجتماعية لرعاياها، وكثيراً ما تم الوصول للحكم والقبض على ناصية السلطان عن طريق غزو خارجي حين تقوم قبيلة لغزو غيرها من القبائل والأقطار، وحينئذ تضطر الأمم المغلوبة على أمرها للخضوع الدائم

لمشيئة الحاكمين فينتقص مما كان لأصحاب البلاد من أوضاع اجتماعية ويُعلي من مكانة الغزاة ومقامهم تبعاً لذلك. ولعل الأمثلة على ذلك غزو الآريين للدرافيين في الهند، وما تبع ذلك من خلق طبقة المنبوذين من أهل البلاد بينما احتفظ الغزاة لأنفسهم بالدرجات العلى في مجتمع ذي طبقات يشغل أدناها أبناء الشعب المهزوم.

وكيفما كان سبيل أصحاب السلطان إلى تولي الحكم والسيطرة فإن جهودهم تتجه أول ما تتجه إلى تأمين نفوذهم والحفاظ على ما نالوه من سلطان لأنفسهم ولخلفائهم من طبقتهم من بعدهم، وإلى دفع كل من تحدثه نفسه بمنازعتهم عليه ممن كانوا أقل منهم حظاً وتوفيقاً من أفراد المجتمع نفسه. ولكن هذه القوة المادية لا تستطيع أن تحمي هذه الأوضاع وتحافظ عليها طالما كانت هناك طبقات محكومة تتحين الفرص لتقابل عنف حكامها بعنف مثله أو أشد، فاستوجب ذلك تدبير وسائل أخرى أقوى وأفعل في تدعيم الأمر الواقع وحمايته من كل وجه، حتى يستطيع الحكام بذلك أن يخضعوا عقول رعاياهم لمشيئتهم بعد أن دانت لهم قواهم وأبدانهم من قبل.

حضارات الكهنوت :

ثم شهد التاريخ الوازع الديني، أرقى عواطف البشر ومشاعره، يصرف عما وجد له ليسخر بعد ذلك لخدمة المصالح

الخاصة لأصحاب السياسة ومحترفيها. فوجدت أمثال هذه الأنظمة من كهنوتية وملك متوارث وغيرها من نظم الاسترقاق التي تفاوتت قسوة وغلظة، وقد علاها طابع التقديس وجللتها هالة الايمان بالأديان واستحدثت للناس قصصاً وأساطير تبرز ألوهية الملوك وتُدووِلت هذه الأساطير في براعة وحذق أشاعاها وأذاعاها بين الناس، وساعد على ذلك وجود طبقة الكهنة وعلى رأسها الملك في غالب الأحوال، بل لقد بلغ الحال بالمصريين القدماء أن اعتبروا ملوكهم تجسداً للالّه ذاته.

وكذلك نرى في الجمهوريات التي قامت في المدن اليونانية وفي عصر الامبراطورية الرومانية الأول، الطبقة الحاكمة في مجموعها قد استأثرت لنفسها بكل المناصب الدينية فكان الرهبان وخدام المعابد وسدنتها من بين الحكام أنفسهم، وظلت هذه النظم تختلف فيما بينها اختلافاً بيناً يستتبعه تباين المستوى العقلي والحقبة الزمنية التي قامت فيها ومزاج الأجناس التي تتألف منها أفراد البيئة التي استحدثت هذه الحضارة، وكانت الطبقات المحكومة في كل عصر وبيئة تلقن أن النظام القائم بين أفرادها هو وحده النظام الذي اختاره الله أو ارتضته الآلهة فكل محاولة لتعديله، أو اصلاحه، جناية عظمى وإثم كبير.

وكان من الطبيعي ألا يبدي المحكومون رضى صادقاً بحالهم أو انصياعاً لما يتطلبه منهم أصحاب الحول والسلطان فكانوا إذ يثورون في بعض الأحيان حين لا يستطيعون على آلامهم صبراً

يسامون صنوف العسف والعنف والاضطهاد، وقد يقدر لهم بعد هذه الهزات والثورات الظفر بقدر يسير من الإصلاحات التي تصبح فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من نظامهم الاجتماعي المتوارث.

وينبغي أن نذكر هنا أن كل هذه الإصلاحات التي كانت تستحدث للتخفيف من حدة الظلم والعسف في النظام القائم ما كانت لتتم دون عنف أو مناجزة ونضال، وما ذلك إلا لأن الطبقات الحاكمة ما كانت لتقر هذه الاصلاحات إلا على كره منها حين تضطرها الحوادث إلى ذلك اضطراراً لا فكاك منه ولا محيص، ولم يكن يدفع الحكام إلى هذه الاصلاحات أي معنى من معاني العدل والانصاف. فكان ما يحدث داخل المجتمع من كبت فثورة فكسب لبعض الحقوق حدثاً مألوفاً وحقيقة ثابتة تتجدد على الأيام في طول تاريخ البشر، ولا نرى في هذا المقام سوى حضارة الإسلام تستطيع أن تكون استثناءً واحداً فذا لهذا الحكم التاريخي العام.

عقد اجتماعي جديد :

جاءت حضارة الإسلام إذن عقلية المنزع والصبغة، مستمدة من مجموعة من الأحكام والقوانين، تحدد سلوك الأفراد ومعاملاتهم في المجتمع تحديداً مميزاً واضحاً، وسميت هذه القوانين بالشريعة، وكان ذلك حين قام عبد من عباد الله، ونبي من أنبيائه ينادي قومه كما أمره ربه :

﴿ قُلْ يا أيهُّا النَّاسُ إنِّي رسولُ الله إليْكم جميعاً. الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمٰـوَات والأرْضِ . لا إلَهَ إلاَّ هُوَ يُحْيي ويُميت . فَآمِنوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبيِّ الأمِّيِّ الّذي يُؤمِنُ بِاللهِ وَكلماتِهِ واتَّبِعوه لعلَّكم تَهْتَدون ﴾[1].

ولقد سلك رسول الله ﷺ في تبليغ رسالة ربه نهجاً لم تشهد البشرية له من قبل مثيلاً، فقد عمل على ايجاد أمة من الناس لها صبغتها الدينية والسياسية، فما جمع بين أفرادها أو ربط بين قلوبهم إلا إيمان واع، واتِّباع عن طواعية واختيار ، لمبدأ اعتنقوه وآمنوا بصدق الداعي إليه، ولم يدَّع الرسول الكريم ﷺ أنه مستحدث هذا المبدأ أو مبتدع هذا الدين وموجده، وما زاد على أن يكون القائم على إنفاذ ما أنزله الخالقَ القدير لعباده من نهج وشريعة. فأقبل عليه الذين استجابوا له فرادى أول الأمر، ثم دخلوا في دين الله أفواجاً بعد ذلك، حتى دانت للدين الجديد جموع من البشر تعز عن الحصر، معلنة إسلامها واتباع سبيله في حياة الرسول ﷺ وبعد أن اختاره الله تعالى لجواره؛ فجاء قبولهم للاسلام عن تفهم كامل له، وتدبر لشرائعه، وظهرت بهذا الحدث العاتي والرغبة الجارفة لأفراد مجتمع واحد أولى الحضارات الفكرية التي شهدها التاريخ :

حضارة كانت مبادئها ومثلها العليا وحدها، كل أسباب الجمع

---

(١) الأعراف ١٥٨.

بين أفرادها، وكل مبررات الربط والتأليف بين قلوبهم، ولم تكن كغيرها من الحضارات، سبيلاً اندفعت فيه فئة من ذوي المصالح المشتركة حفاظاً منهم على سلطانهم وحقوقهم المدعاة.

ولم يكن بين صحابة رسول الله ﷺ فئة أو طبقة تفردت بامتياز أو سلطان على من عداها من الطبقات أو الفئات، وما كان لأي لون من ألوان التمايز والتباين بين الصحابة أن يوجد، لأن كل امتياز اقتصادي أو اجتماعي، وكل نفوذ سياسي رهن بقيام نظام اجتماعي ثابت محدود يقوم فيه أصحاب المصالح المكتسبة بالحفاظ على هذه الامتيازات وحمايتها دون تردد أو هوادة.

ولما كان ظهور الإسلام برسالته الاجتماعية الإصلاحية ينطوي على البعد عن كل ما سلف في الماضي من نظم وتقاليد، فإن استمرار ما زخر به هذا الماضي من حقوق مكتسبة أو امتيازات متوارثة أصبح أمراً لا مبرر لقيامه ولا مسوغ لوجوده.

ولقد أدرك هؤلاء السابقون بالإسلام، إدراكاً تاماً واضحاً، أنهم مقدمون على استحداث أمر جليل ينشؤونه ولا صلة له بما سلف من تراث وتقاليد ـ نعني بها ماضيهم القريب ـ.

كان هذا هو النهج الذي عرضه عليهم صاحب الهدى، فتقبلوه راضية به نفوسهم، لأنه ما شرع إلا ابتغاء ما يبشرهم به من خير وما يعدهم به من رضوان.

الفرد والمجتمع :

وليس أبعد في الاغراق في الخطأ من أن نظن أن ما جاء به الاسلام من تشريع كان يهدف أول ما يهدف إلى تنظيم الجانب الاجتماعي من حياة الأفراد، أو أنه قد اعتبر الجانب الفردي والروحي من حياته في المقام الثاني بالنسبة للجانب الاجتماعي، بل لقد كان الأمر على النقيض من ذلك، إذ أن من الأصول الأولى لحضارة الإسلام إنكارها الشديد على الشيوعية ـ مثلاً ـ ما أتت به من نظم نظرت فيها إلى الفرد أولاً على أنه عضو في جماعة، وعلى أنها قد جردت حياة الفرد من كل خطر أو أثر في ذاتها مستقلة عن كيان المجتمع أو الجماعة.

وبهذا كان الفرد في نظر الإسلام قطب الرحى في كل أصوله وتشريعاته وما كان للاسلام أن يضع الفرد في غير هذا الموضع ما دام الهدف الأسمى لكل دين وشرعة أن يخلق في الفرد إدراكاً عقلياً سامقاً ونظرة خلقية متسامية، يطوّعان له القدرة على أن يستبين خير السبل، ويهديانه صالح العمل.

وبغير هذا الاهتمام بالجانب الروحي في الفرد وتربيته فيه، تفقد الأديان حتى كل مبررات قيامها وبقائها، ويضحى وهماً كل ما ترسمه للناس من غايات وأهداف، فلا معنى للتقدم الروحي ما لم يتصل هذا بحياة أفراد البشر ويرتبط بها.

ونستطيع أن نقول كذلك. إن الإسلام لا يدعو إلى إرضاء الجانب الروحي وحده من حياة الإنسان مغضياً عن وجوده المادي، لأن الإسلام لا يغفل أبداً عما للبشر - ككائنات حية - من مستلزمات عضوية حيوية، لما أودع الله تعالى فيهم من ضرورة السعي في جماعات يستطيعون في ظلها أن يحققوا أبدانهم وأمور معاشهم، ويفتحوا لعقولهم طرائق التفكير وأبوابه، ويبلغوا من آفاق الفضائل الخلقية آمالهم ومطامحهم. ولا انفكاك لهم في ذلك عن اعتماد بعضهم على بعض، وبهذا لا يكون المجتمع الإنساني في حقيقته إلا نقلاً لهذا التعاون والتكافل إلى ميدان محسوس.

ويتوقف صلاح عبادة المسلم وسعادته الروحية على مدى ما يستمده ممن حوله من أفراد المجتمع من عون وحماية وتشجيع لقاء ما يجده غيره من أبناء المجتمع هم كذلك منه من عون ورعاية.

ومن هنا ندرك كيف أن الاسلام لا يستطيع أن يفصل ما بين الدين والسياسة، أو يفرق بين الدين والاقتصاد [1]. فلما كان

---

(١) ولقد جاءتنا فكرة فصل الدين عن الحياة والسياسة من بلاد كانت تحكم برجال يتخذون الدين ستارة لحماية النظم الفاسدة القائمة فهل دعم الاسلام في موقف من المواقف انخذال وانحراف القائمين على الحكم؟ « ونلاحظ هنا أن طريق الاسلام واضح، فان أقر بعض العلماء بعض الحاكمين فمعروف لدى الجميع أن الاسلام لا يقبل كل حكم غير حكم الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ».

للاسلام من هدف يرمي إليه، أو فكرة يريد بها تحديد مهمة المجتمع أجل وأسمى من تنظيم علاقات الافراد، تنظيماً يستطيع في ظله كل فرد من أفراد المسلمين أن يذلل ما يعرض له من صعاب ومن عقبات، وأن يجد في ظل المجتمع المسلم كل عون ورعاية يتسنى له معهما إنماء فرديته والدنو بها إلى أسمى مراتب الكمال الإنساني.

هكذا كانت مهمة المجتمع في نظر الاسلام، كما جلاها الرسول الكريم ﷺ لأعين البشرية، منذ بدء بعثته واصطفائه بالرسالة.

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

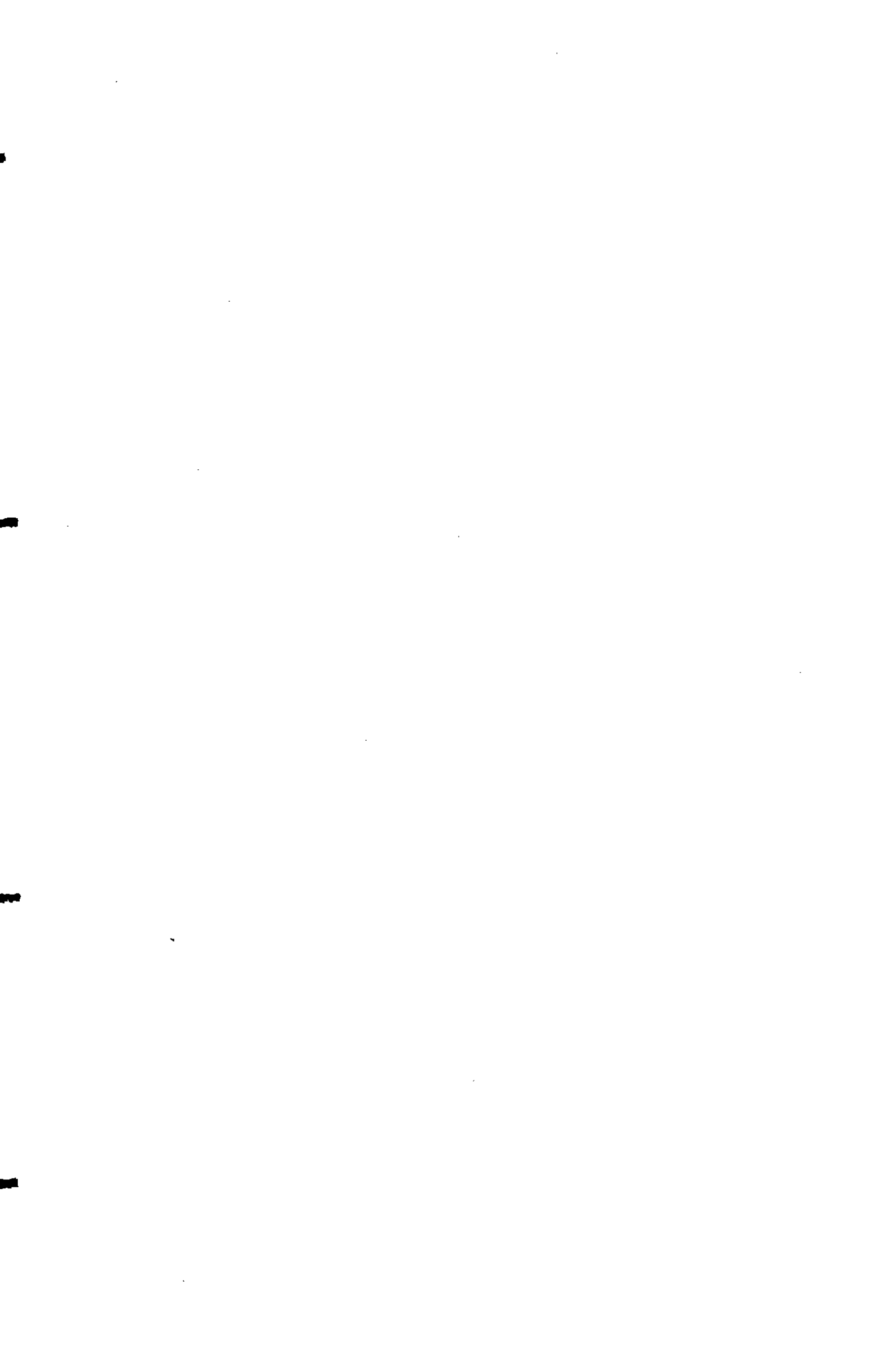
صفحات

من سيرة الفاروق

للأستاذ

محمد سعيد الطنطاوي

ذو الحجة ١٣٨٣



صَفحَات

من سيرة الفاروق

الحمد لله الذي أعزَّ دينه بإعزاز من أعـزَّه، ونشره بتـأييد من صدق في حمله، وبلغ به إلى قلوب البلاد والعباد بتوفيق من أخلص له وبذل.

وبعد، فإنَّ المسلم ليملُّ جلال الشمس، وبهاء البدر، قبـل أن يمل سير الأعوام من أسلافـه، والنجـوم من أصحـاب نبيه ﷺ، الذين بهم يهتدى ويقتدى، والذين: لمعت نارهـم وقـد عسعس الليل وملَّ الحادي وحار الدليل

فتبيَّنها من وفقه الله للهدى، فاتبع الطريق على نورها، وأعرض عنها من حُرم وضلّ، فتاه في الظلام وتخبط في الضلال، وأنـت إذا اقتحمت في طريق الحياة، فادلهمَّت الخطوب، وتتابعت فتن كقِطع الليل المظلم، يرقق بعضها بعضاً، ويصبح الحليم فيها حـيران، وأعوزك النور، وجدت النور عند هؤلاء الذين التمسوه من منبعه، واقتبســوه من أصلــه ومعدنــه، ثم نشروه ضياء هاديا للأمــم والعصور. هؤلاء الذين يأتي في طليعتهم أفضل الناس بعد خير بشر غير الانبياء، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي أسلم في مثل هذا الشهر ـ ذي الحجة ـ من السنة السادسة، وقتل شهيداً في

أواخر ذي الحجة أيضاً من السنة الثالثة والعشرين، وتولى الخلافة فترة تزيد شهوراً على عشرة سنوات، كانت من فريد جواهر جيد الحكم المجيد . . .

عمر بن الخطاب، الذي لا يجهله أحد، والذي قلَّ أن يعرفه في هذا العصر أحد. يعرف بعضهم بعضاً من أخباره، ونتفاً من نسبه وأعماله، أما روح تلك الأدلّة فلا يدركه إلا الأجلّة، ولن نعرض الآن إلى اللب من ذلك والمقصد، فالمجال عنه يضيق، والباع يقصر، ولو فعلنا لما اتسعت صفحات هذه الرسالة لاتمام خبر واحد من سيرة صاحب من آتاه الله جوامع الكلم. ولكّنا سنكتفي بعرض الصفحات كما هي، أو بتبديل في بعض ألفاظها قليل. حتى يكون في ذلك مجال للتأمل وإعمال الفكر والبحث وسؤال أهل العلم، ولا خير في حياة ليس فيها التماس للحق وتفّهم له وعمل به.

وقد كنا على أن نقتصر على جانب واحد من جوانب هذه السيرة الفخمة ـ وما أكثر جوانب العظمة في حياة عمر ـ لولا أننا رأينا ان نبدأ الآن بهذه الرسالة بشكل عام، على ان نعود في رسائل قادمة إن شاء الله إلى ذاك، فتكون هذه لتلك كتمهيد [1].

---

(١) انظر الكتاب القيم الذي ألفه العالمان الجليلان علي وناجي الطنطاوي باسم « أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر » وهو من مطبوعات المكتب الاسلامي.
ـ الناشر ـ

- ١ -

ساس الفحول، ولم يأت بعدِ زمنه مثله:

كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، احد اعلام علماء المدينة في عصر التابعين، إلى عمر بن عبد العزيز:

من سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين، أما بعد، فإنك كتبت إلي تسألني: تذكر إنك ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة، من غير مشاورة ولا إرادة يعلم الله ذلك، تسألني أن اكتب لك سيرة عمر وقضائه في أهل القبلة « يعني المسلمين » وأهل العهود « غير المسلمينّ » وتزعم أنك سائر بسيرته إن الله أعانك على ذلك.

وإنك لست في زمان عمر، ولا في مثل رجال عمر فأما أهل العراق فليكونوا منك بمكان من لا غنى بك عنهم ولا مفقرة إليهم. ولا يمنعك من نزع عامل أن تنزعه أن تقول لا اجد من يكفيني مثل عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله، أتاح الله لك أعواناً وأتاك بهم. فإنما قدر عون الله للعباد على قدر النيات، فمن تمت نيته، تم عون الله له، ومن قصرت نيته، قصر عون الله، والله المستعان والسلام.

- ٢ -

ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الارض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق :

يذكر ابن خلّكان (٥/ ٤٤٠) مما نقله من خط ابن السكيت -

رجل اللغة الكبير - « أن سلمان بن ربيعة الباهلي القائد الفاتح المظفر » عرض الجند، فمر عمرو بن معد يكرب الزبيدي « من أبطال فرسان الجاهلية والإسلام » على فرس له، فقال له سلمان: إن هذا الفرس هجين « أي ليست أمه عربية عتيقة » فقال عمرو: بل هو عتيق، فقال سلمان: هو هجين، فقال عمرو: هو عتيق فأمر سلمان فعطش - أي الفرس - ثم دعا بطست ماء، ودعا بخيل عتاق فشربت، وجاء فرس عمرو، فثنى يده وشرب، وهذا صنع الهجين، فقال له سلمان: او تَرى؟ فقال عمرو: أجل، الهجين يعرف الهجين! فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إلى عمرو: قد بلغني ما قلت ما قلت لأميرك، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندي سيف أسميه مصمماً، وايم الله لئن وضعته على هامتك - أي رأسك - لا أقلِع حتى أبلغ به رهابتك [١] فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد والسلام.

- ٣ -

سبق بالناس الناس، ولم يدركه من بعده وال :

كان عبد الملك بن مروان يقول للناس: تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمرو! أو تسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر؟

---

(١) يقول ابن خلكان: الرهابة، على وزن السحابة، عظم في الصدر مشرف على البطن مثل اللسان.

- ٤ -

لو نفقه هذا الان لما مهرنا في تبرير المخالفات :

ذكر القرافي في « الفروق » (٣/ ١٦) أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رجلاً نصرانياً بالبصره، لا يحسن ضبط خراجها إلا هو، وقصد ولايته على جباية الخراج، لضرورة تعذر غيره، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ينهاه عن ذلك، وقال له في الكتاب: مات النصراني والسلام! أي افرضه مات، ماذا كنت تصنع حينئذ فاصنعه الان.

ويروى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول في أهل الذمة: أهينوهم ولا تظلموهم.

- ٥ -

يسرُّه ما يسخطنا الان :

قال حذيفة: دخلت على عمر، فرأيته مهموماً حزيناً، فقلت له: ما يهمك يا أمير المؤمنين؟ فقال: إني أخاف أن أقع في منكر فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً لي. فقال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك.

ففرح عمر وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقومونني اذا اعوججت.

وذكر المحبُّ الطبري ما يروى من أنه قال يوماً على المنبر: يا معشر المسلمين، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا ـ ومال برأسه ـ ؟ فقام إليه رجل فقال: أجل، كنا نقول بالسيف هكذا ـ وأشار إلى القطع ـ فقال عمر: إياي تعني بقولك؟ قال: نعم، إياك أعني بقولي. فقال رحمك الله، الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا تعوّجت قومني.

أصحاب النفوس الكبيرة يتحررون من تافه قيود الهيئات والعادات :

خرج عمر في يوم حار، واضعاً ردائه على رأسه، فمرّ به غلام على حمار، فقال: يا غلام احملني معك. فوثب الغلام عن الحمار وقال: اركب يا أمير المؤمنين. قال: لا، اركب وأركب أنا خلفك، تريد أن تحملني على المكان الوطيء وتركب أنت على المكان الخشن؟ فركب خلف الغلام فدخل المدينة وهو خلفه، والناس ينظرون اليه!

- ٧ -

تحت هذي الشمس يمضي ذا الفتى
عالي الرأس كسرٍ قد عتا

بينما عثمان بن عفان في أرض له، في العالية، في يوم صائف، إذ

رأى رجلا يسوق جملين، وعلى الارض مثل الفـراش من الحـرّ، فقال عثمان: ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى يُبرد ثم يخرج حينئذ؟ ثم دنا الرجل، فقال عثمان لمولى له: انظر من هذا؟ فقال: أرى رجلا معمماً بردائه يسوق بكرين، ثم دنا الرجل، فقال: انظر من هذا؟ فنظر، فإذا هو عمر بن الخطاب! فقال: هذا أمير المؤمنين. فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب، فاذا لفـح السمـوم، فأعـاد رأسه، حتى إذا حاذاه قال: ما أخرجك في هذه الساعة؟ فقال: بكران من إبل الصدقة تخلفا، وقد مضي بإبل الصدقة، فاردت أن إلحقهما بالحمى - المكان الذي ترعى فيه جمال الزكاة - وخشيت أن يضيعا فيسألنـي الله عنهما. فقـال عثمان: هلـم إلى الظـل والماء ونكفيك - أي نبعث من يقوم بالامر بذلك - قال: عُد إلى ظلك. قال عندنا من يكفيك، قال: عد إلى ظلك. ومضى! فقال عثمان: من أحب أن ينظر إلى القوي الامين، فلينظر إلى هذا.

- ٨ -

فيم اقتحامـك لجَّ البحـر تركبه
وأنـت يكفيك منـه مصَّـةُ الوشل؟

عن هشام بن عروة بن الزبير قال: قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام، فتلقاه أمراء الاجناد وعظماء أهـل الشـام. فقـال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة! قالوا: يأتيك الآن فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلم عليه وسأله، ثم قال للناس:

انصرفوا عنّا. فسار معه حتى أتى منزله، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: لو اتخذت متاعاً، فقال أبو عبيدة رضوان الله عليه: يا أمير المؤمنين، إن هذا سيبلّغنا المقيل؟ - والمقيل مكان القيلولة حيث ينام وسط النهار، وكل إنسان سيقيل بعد عمره القليل - .

- ٩ -

نكره خشونة العيش، ويثقل علينا التراجع والانصاف :

نام عمر تحت شجرة في طريق مكة، فلما اشتدت عليه الشمس، أخذ عليه ثوبه فقام، فناداه رجل غير بعيد عنه: يا أمير المؤمنين هل لك في رجل قد ربَدت حاجته - أي مكثت طويلا - وطال انتظاره؟ قال: من رَبدها؟ قال: أنت. فجاراه القول حتى ضربه بالدرة. فقال: عجلت علي قبل أن تنظرني، فان كنت مظلوماً رددت إليّ حقي وإن كنت ظالماً رددتني.

فأخذ عمر طرف ثوبه وأعطاه الدّرة وقال له اقتص. قال: ما أنا بفاعل. فقال: والله لتفعلن. قال: فاني أغفرها.

فقال عمر للرجل: أنصف من نفسي أصلح من أن يُنتصف مني وأنا كاره.

- ١٠ -

اوّاه لو نفهم هذا ونؤمن به :

يذكر الحسن البصري أن عمر رضي الله عنه مرَّ على مزبلة

فوقف عندها. فكأن أصحابه تأذوا بها، فقال: هده دنياكم التي تحرصون عليها!

- ١١ -

احمل ما شئت، فلا يحط منك إلا الاوزار :

بينما عمر يُعسّ في المدينة بالليل، مر على امرأة من الأنصار تحمل قربة، فسألها عن شأنها، فذكرت أن لها عيالا، وأن ليس لها خادم، وأنها تخرج في الليل لتحمل إليهم الماء، وتكره أن تخرج بالنهار، فأخذ عمر منها القربة فحملها عنها على عاتقه حتى بلغ منزلها، وقال: اغدي على عمر صباحاً يخدمك خادماً. قالت لا أصِلُ إليه. قال: إنك ستجدينة إن شاء الله تعالى. فغدت عليه، فإذا هي به، فعرفت أنه الذي حمل قربتها فذهبت تولّيّ، فأرسل في أثرها وأمر لها بخادم ونفقة!

- ١٢ -

إذا المرء اعطى نفسه كلَّ ما اشتهت
ولم ينههـا تاقت إلى كل باطل

عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال: رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً في يدي. فقال: ما هذا يا جابر؟ قال اشتهيت لحماً فاشتريته. فقال عمر أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر؟ ما تخاف الآية ﴿ أذهبتمْ طيِّباتكم في حَياتكُم الدُّنيا ﴾؟

- ١٣ -

أخذوا بما به أوصوا، فوصلوا الى ما اليه وصلوا :

زار عمر أبا الدرداء رضي الله عنهما ، فقال له أبو الدرداء : أتذكر حديثاً حدَّثناه رسول الله ﷺ ؟ قال : أيّ حديث؟ قال : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » - ليكتف من الدنيا بما يكتفي به المسافر - قال : نعم . قال : فماذا فعلناه بعده يا عمر؟ فما زالا يتجاوبان بالبكاء حتى أصبحا .

- وماذا فعلنا نحن؟ -

- ١٤ -

من يجعل تحت قدميه يصير فوقها :

حدث يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن القاسم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة - نحو ٥٠٠ كم - في الحج ، ثم رجعنا ، فما ضرب فسطاطاً ولا كان له بناء يستظل به ، إنما كان يلقي نطعاً أو كساءً على شجرة فيستظل تحته ! (١)

---

(١) اي لم يكن يحمل معه خيمة في سفره، بل يستظل حينما ينزل بثوبه يضعه على شجرة .

- ١٥ -

رفع البلاء بالتوبة والاستغفار، لا بفصاحة المتشدقين، وتصدي المتبجّحين :

عن أبي وَجْزَة السعدي عن أبيه قال: رأيت عمر خرج بنا ـ عام الرمادة ـ إلى المصلّ يستسقي، فكان أكثر دعائه الاستغفار حتى قلت لا يزيد عليه، ثم صلى ودعا الله فقال : اللهم اسقنا.

- ١٦ -

وليس الغنى الا عن الشيء لا به :

عن أبي حازم قال: دخل عمر بن الخطاب على حفصة ابنته، فقدَّمتْ إليه مرقاً بارداً وخبزاً وصبَّت في المرق زيتاً، فقال: أدْمان في إناء واحد؟ لا أذوقه حتى القى الله.

وأُتي بلحم فيه سمن فأبى أن يأكلهما وقال كل واحد منها أدم.

يقول يسار بن نمير : والله ما نخلت لعمر الدقيق قط إلاَّ وأنا له عاصٍ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه وعن عمر : رأيت لعمر بن الخطاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من أدم ـ جلد ـ ورقعة من ثيابنا.

ولما استدعى عمر زياد بن عبد الله فدخل عليه في ثياب كتان وخفَّين رقيقين، قال زياد: وفي يد عمر مخصرة على رأسها حديد، فغمزها في خفّي حتى آذى رجلي. فلما كان من الغد رجعت إليه في

خُفّين غليظين، وعليَّ ثوبـان من قطـن. فلما رآنـي قال: هكذا يا زياد، هكذا يا زياد. ثم قال لي: بكم أخـذت هذين الخفّـين؟ قلت: بدرهم. فأعطاني درهماً وقال لي: اشتر لي مثلهما.

- ١٧ -

اقتدِ به في زهده وقوَّته. واياك أن تكون تقياً ضعيفاً، قوياً فاجراً (فإن أبيت إلا احداهما فأولاهما):

بينما عمر ذات يوم يمشي وخلفه عِدّة من أصحاب رسـول الله ﷺ، إذ بداله فالتفت، فلم يبق منهم أحد إلاَّ وحبْل ركبتيه ساقط، فبكى ثم قال: اللهم إنك تعلم أنيّ منك أشدّ فَرَقاً - خوفاً - منهم منّي.

وبينما كان ابن الهيلم، الحلاق، يقصّ عمر بن الخطاب وكان رجلاً مهيباً، فتنحنح عمر، فأحدث الحجام، فأمر له عمر بأربعين درهماً.

- ١٨ -

قُوته وقوَّته:

دخل عمر بيته وقد أصابه الجوع، فقال: عندكم شيء؟ فقالت امرأته: تحت السرير، فتناول وعـاء فيه تمـر، فأكل ثمّ شرب من الماء، ثم مسح بطنه وقال: ويح لمن أدخله بطنه النّار.

وقدم على عمر ناس من أهل العراق فيهم جرير بن عبدالله البجلي، فأتاهم بجفنه قد صُنعت بخبز وزيت، فقال لهم: خذوا. فأخذوا أخذاً ضعيفاً. فقال لهم عمر: قد أرى ما تفعلون، فأي شيء تريدونه، أحلواً وحامضاً وحارّاً وبارداً ثمّ قذفاً في البطون؟

وبينا عمر قد وضع بين يديه طعاماً إذ جاء الغلام فقال: هذا عُتبة بن فَرقد بالباب. قال: وما أقدم عتبة؟ ائذن له. فلما دخل رأى بين يدي عمر طعامه، وهو خبز وزيت! قال: اقترب يا عتبة فأصِبْ من هذا. فذهب يأكل، فاذا هو بطعام خشن لا يستطيع أن يسيغه، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في طعام يقال له الحُوّاري - خبز أبيض - ؟ قال: ويلك ويسع المسلمين كلهم؟ قال: لا والله. قال ويلك يا عتبة، أفأردت أن آكل طيباتي في حياتي الدنيا وأستمتع بها؟

ولما قدم الشام، صُنع له طعام لم يَرَ قبله مثله، فقال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد بن الوليد: لهم الجنّة! فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظّنا في هذا الطعام وذهبوا بالجنّة، لقد باينونا بوناً بعيداً.

وكان يقول لَنحن أعلم بلّين الطعام من كثيرٍ من آكليه، ولكنّا ندعه ليوم تَذْهَل فيه كلُّ مرضعة عما أرضعت، وتضع كلُّ ذات حمل حملَها.

ـ « ولكنّه مع ذلك كان كما رُوي » ـ :

عن أسلم قال : رأيت عمر بن الخطاب يأخذ بأذن الفرس ويأخذ بيده الأخرى أذنه ثم ينزو ـ « يثب » ـ على متن الفرس.

ويقول أبو مسعود الانصاريّ: كناّ جلوساً في نادينا، فأقبل رجل على فرس يركضه يجري حتى كاد يوطِئُنا، فارتعنا لذلك وقمنا. فاذا هو عمر بن الخطاب، فقلنا: فمن بعدك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما أنكرتم؟ وجدتُ نشاطاً فأخذت فرساً فركضته.

ورأت الشفاء بنت عبدالله « العدويّة، من المهاجرات رضي الله عنها » فتياناً يقصدون في المشي ـ « يمشون ببطء وضعف » ـ ويتكلمون رويداً فقالت: ما هذا؟ فقالوا: نسَّاك. فقالت كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى اسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو الناسك حقاً.

ـ ١٩ ـ

الاسلام يُخضِع الزعيم لاحد أتباعه، ويرتفع براعي الغنم إلى سيادة الأمم :

قدم عمر مكة، فأقبل أهل مكة يسعون فقالوا: يا أمير المؤمنين إنّ أبا سفيان ابتنى داراً، فحبس عنّا مسيل الماء ليهدم منازلنا. ـ وأبو سفيان زعيم قريش قبل إسلامه، ولم تجتمع قريش على أحد قبله ـ فأقبل عمر ومعه الدِّرَّة، فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً،

فقال: ارفع هذا. فرفعه، ثمّ قال. وهذا.. وهذا. حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال: الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه.

وفي رواية أنه استقبل القبلة فقال: اللهمّ لك الحمد إذ لم تمتْني حتى غلبتُ أبا سفيان على رأيه وأذللته بالإسلام. فاستقبل أبو سفيان القبلة وقال: اللهم لك الحمد إذ لم تمتني حتى جعلت في قلبي من الاسلام ما ذللتُ به لعمر.

- ٢٠ -

حبّذا لو ننتبه لهذا نحن أيضاً:

نظر عمر رضي الله عنه إلى أعرابي يصلي صلاة خفيفة، فلما قضاها قال: اللهم زوجني بالحور العين. فقال له عمر: أسأت النقد وأعظمت الخِطبة.

ودُعي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما إلى طعام، فأجابا. فلما خرجا قال عمر لعثمان: لقد شهدت طعاماً وددت أني لم أشهده. قال: وما ذلك؟ قال: خشيت أن يكون جُعِل مباهاةٍ!

وعن السائب بن يزيد قال: كنت بالمسجد، فحصبني رجل، فنظرت فاذا عمر بن الخطاب. فقال: اذهب فائتني بهذين. فجئته بهما، فقال لهما: ممن أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. قال: لو كنتما

من أهل البلد لأوجعتكما. ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

ورأى عمر مصحفاً صغيراً في يد رجل، فقال: من كتبه؟ قال: أنا. فضربه بالدِّرة وقال: عظِّموا القرآن.

ورأى يوماً رجلاً قد أقبل، مرخياً يديه، طارحاً رجليه، يتبختر. فقال له عمر رضي الله عنه: دَعْ هذه المِشية. فقال لا أستطيع: فجلده، ثم تبختر، فجلده، فترك التبختر، فقال عمر: إذا لم أجلد في مثل هذا ففيم أجلد؟ فجاء الرجل بعد ذلك فقال: جزاك الله خيراً، إن كان إلا شيطاناً أذهبه الله بك.

وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه، وكان قد خضب لحيته، فنصل خضابه بعد أيام فبدا شيبه. فاستعدى عليه أهلُ المرأة عمرَ وقالوا: حسبناه شاباً، فأوجَعه عمر ضرباً وقال له: غررتَ القوم.

ولما كانت القادسية، ولم يجد الناس نساءٍ مسلمات، تزوجوا نساء أهل الكتاب. فلما كثر المسلمات، بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بعد ما ولاَّه المدائن: بلغنى أنَّك تزوجت امرأة من اهل المدائن من أهل الكتاب فطلِّقها. فكتب إليه: لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام؟ وما أردتَ بذلك؟ فكتب اليه : لا بل حلال، ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهنَّ غلبنكم على نسائكم. فقال : الآن. فَطلَّقَها.

- ٢١ -

فماذا لو رآهنَّ في الجامعة :

عن أبي سلامة قال: انتهيت إلى عمر وهو يضرب رجالاً ونساءً في الحرم على حوض يتوضّؤون منه حتى فرَّق بينهم. ثمَّ قال: يا فلان، قلت: لبَّيْك قال: لا لبيك ولا سعديك، ألم آمرك أن تتخذ حياضاً ـ أي أحواضاً ـ للرجال وحياضاً للنساء؟ ثم اندفع فلقي عَليّاً، فقال له عمر: أخاف أن أكون قد هلكت. قال: وما أهلكك؟ قال: ضربت رجالاً ونساء في حرم الله عزَّ وجل. قال: يا أمير المؤمنين أنت راع من الرعاة [١].

- ٢٢ -

من لنا الآن بمثل عمر :

رُئيتْ امرأة متزيِّنة أذن لها زوجها بالبروز، فأخبر بها عمر، فطلبها، فلم يقدر عليها « فرَّت وزوجها » فقام خطيباً فقال: هذه الخارجة وهذا المرسلها، لو قدرت عليهما لشتَّرت بهما « نكَّلت بهما » ثم قال: تخرج المرأة إلى أبيها يكيد بنفسه « يحتضر » وإلى أخيها يكيد بنفسه، فاذا خرجت فلبَس معاوزها « بالي ثيابها ».

---

(١) أي أن الراعي ليس له فقط أن يؤدب رعيته وإنما عليه أن لا يقرهم على انحراف.

- ٢٣ -

فليسمع من يزعم القدرة على جمع الضرَّتين :

يقول عمر: نظرت في هذا الأمر، فجعلت إن أردت الدنيا أضرّ بالآخرة، وإن أردت الآخرة فأضرُّ بالدنيا، فإذا كان الأمر هكذا فأضرُّ بالفانية.

- ٢٤ -

السيف في موضع السيف، والندى في موضع الندى:

عتب عمر على بعض عمّاله، فكلَّمته امرأته فيه، فقالت: يا أمير المؤمنين، فيمَ وجدتَ عليه - أي ما الذي أغضبك منه - ؟ قال: يا عدوَّة الله، وفيمَ أنتِ وهذا؟ إنَّما أنت لعبة يُلعب بك ثم تتركين.

وقيل أن رجلا جاء إلى عمر يشكو إليه خلق زوجته فوقف ببابه ينتظره، فسمع امرأته تستطيل عليه بلسانها وهو ساكت لا يرد عليها. فانصرف الرجل قائلا: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين فكيف حالي؟ فخرج عمر فرآه مولياً، فناداه: ما حاجتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك خلق زوجتي واستطالتها علي، فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي؟ فقال له عمر: تحمَّلتها لحقوق لها علي.

- ٢٥ -

مرْ بالخير، وتجنب مواقف التهم، واذعن للحق :

بينما عمر بن الخطاب يمرّ في الطريق، إذا هو برجل يكلّم امرأة، فعلاه بالدرَّة. فقال: يا أمير المؤمنين إنما هي امرأتي! فقال له: فلم تقف مع زوجتك في الطريق تعرِّضان المسلمين إلى غيبتكما؟ فقال: يا أمير المؤمنين الآن قد دخلنا المدينة، ونحن نتشاور أين ننـزل. فدفع إليه الدرّة وقال: اقتص مني يا عبد الله. فقال هي لك يا أمير المؤمنين. فقال: خذ واقتصّ. فقال بعد ثلاث: هي لله. فقال: الله لك فيها.

- ٢٦ -

ومـن منـا لا ينتشي إذا مُدح؟ بَلْـه أن يُقـرِّع المادح، ويمـدح المقرِّع؟ :

اثنى نفر من الناس على عمر بن الخطاب فقالوا: والله ما رأينا رجلا أقضى بالقسط، ولا أَقْوَلُ بالحقّ، ولا أشدّ على المنافقين منك يا أمير المؤمنين. فأنت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال عوف بن مالك ـ الأشجعي، من غطفان ـ: كذبتم والله! لقد رأيت بعد رسول الله ﷺ خيراً من عمر: أبو بكر. فقال عمر: صدق عوف وكذبتم، ولقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك، وأنا ـ قبل إسلامه ـ أضل من بعير أهلي.

- ٢٧ -

اسْمَعُـنَّ يا ازواج، ولا يدفعنـكم هذا الى التخنُّـث، وعليكم بخصال الفطرة الخمس وبالسواك :

أتت امرأة إلى عمر بزوج لها أشعث أغبر، فقالت: يا أمير المؤمنين، لا أنا ولا هذا، خلصني منه! فنظر عمر، فعرف ما كرهت منه، فأشار إلى رجل فقال: اذهب به فحممه وقلِّم أظافره وخذ من شعره وائتني به. فذهب ففعل ذلك ثم أتاه، فأومأ له عمر أن خذ بيدها، وهي لا تعرفه، فقالت: يا عبد الله، سبحان الله! أبين يدي أمير المؤمنين تفعل هذا؟ فلما عرفته ذهبت معه، فقال عمر: هكذا فاصنعوا لهن، فوالله إنهنَّ ليحببن أن تتزيَّنوا لهن، كما تحبون أن يتزّينَّ لكم.

- ٢٨ -

فما موقفك انت من الضعفة الاتقياء، والوجهاء الاشقياء؟ :

حضر باب عمر بن الخطاب رضي الله عنه جماعة، منهم سهيل ابن عمر « من أشراف قريش ». وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس « سيدا فزارة وتميم » فخرج الآذن فقال: أين صهيب؟ أين عمّار؟ أين سلمان؟ فتمعَّرتْ وجوه القوم. فقال واحد منهم لم تتمعَّر وجوهكم؟ دعُوا ودعينا. . « أي إلى الاسلام » - فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر، لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر.

وجاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فجلسا عنده وهو بينهما، فجعل المهاجرون الأولون يأتون عمر، فيقول: ههنا يا سهل، ههنا يا حارث،

فينحيهما عنه ـ يبعدهما ـ ، وجعل الأنصار يأتون عمر، فينحيهما عنه، حتى صارا في آخر الناس. فلما خرجا من عنده، قال الحارث ابن هشام ـ «المخزومي، ابن عم أم عمر، ومن أشراف قريش أيضاً» ـ لسهيل بن عمر: ألم ترَ ما صنع بنا؟ فقال له سهيل: أيها الرجل، لا لوم عليه، ينبغي أن نرجع باللوم على أنفسنا، دُعي القوم فأسرعوا، ودعينا فأبطأنا.

ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقالا له: قد رأينا ما فعلت اليوم، وعلمنا إنّا أتينا من قِبل أنفسنا، فهل من شيء نستدرك به؟ فقال لهما: لا أعلمه إلا من هذا الوجه ـ «وأشار لهما إلى غزو الروم» ـ فخرجا إلى الشام فماتا بها شهيدين ـ «الحرث في معركة اليرموك، وسهيل في طاعون عمواس» ـ رحمهما الله تعالى.

ـ ٢٩ ـ

وهل يُطيق هذا مئة موظف، يتفرّغون له؟ :

كان يمشي إلى المغيبات، اللواتي غاب أزواجهنّ، فيقف على أبوابهنّ ويقول: أيَّتُكُنّ لها حاجة؟ وأيتكنّ تريد أن تشتري شيئاً؟ فإني أكره أن تخدعن في البيع والشراء فيرسلن معه بجواريهنّ، فيدخل السوق، ووراءه من جواري النساء وغلمانهنّ ما لا يحصى، فيشتري لهن حوائجهن، ومن ليس عندها شيء ـ مال ـ اشترى لها من عنده.

وإذا قدم الرسول بالبريد من بعض الثغور، ـ «البلدان التي

تكون على الحدود، أمام العدوّ يرابط فيها المجاهدون » - . يتبعهنَّ بنفسه في منازلهنَّ بكتب أزواجهنَّ ويقول: أزواجكنَّ في سبيل الله، وأنتنَّ في بلد رسول الله ﷺ، إن كان عندكنَّ، من يقرأ، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكنَّ. ثم يقول: الرسول يخرج كلَّ يوم كذا وكذا، فاكتبن حتى نبعث بكتبكنَّ. ثم يدور عليهنَّ بالقراطيس والدواة يقول: هذه دواة وقرطاس فادنين من الأبواب حتى أكتب لكنَّ. ويمرَّ إلى المغيبات فيأخذ كتبهنَّ فيبعث بها إلى أزواجهنَّ.

- ٣٠ -

المنزلة تتناسب مع الإيمان، والايمان مع الخوف فانظر نفسك!

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما طعن عمر رضي الله عنه، دخلت عليه فقلت: أبشر يا أمير المؤمنين، قد مصرّ الله بك الأمصار، ودفع بك النفاق. قال: أبالإمارة تثني عليَّ يا ابن عباس؟ قلت: وفي غيرها. قال: والذي نفسي بيده، لوددتُ أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وِزر.

- ٣١ -

كيف لا تترعرع الحكمة بين الايمان والزهد والعلم والعمل؟ :

من كلام عمر رضي الله عنه :

● ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نِعم: إذ لم يكن في ديني، وإذ لم يكن أعظم، وإذ لم أحرم الرضا به وإذا أرجو الثواب عليه.

● قال له رجل: إن فلاناً قد جمع مالاً! فقال عمر: فهل جمع له أيَّاماً؟

● ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشرّ، ولكنه الذي يعرف خير الشرَّين.

● لو نادى منادٍ من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلّكم أجمعون إلاَّ رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا. ولو نادى منادٍ: أيها الناس إنكم داخلون النار إلاّ رجلاً واحداً لرجوت أن أكونه.

● إذا رأيتم العالم يحبُّ الدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محبّ يخوض فيما أحبَّ.

● إذا كان في الإنسان عشر خصال، تسعة منها صالحة وواحدة هي سوء الخلق، أفسدت هذه الخصلة تلك التسعة.

● كونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم. وسلوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضرُّكم أن لا يكثر لكم.

● ليس من عبد إلا بينه وبين رزقه حجاب. فإن اقتصد ـ اعتدل في السعي ـ أتاه رزقه، وإن اقتحم هتك الحجاب ولم يزد في رزقه.

● لست بالخبّ، ولكن الخبّ لا يخدعني.

● تعلموا العلم وعلِّموه الناس، وتعلموا الوقار السكينة وتواضعوا لمن تعلمتم منه العلم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم.

● إني أصبح كلّ يوم ونصف الخلق عليّ ساخط.

● القوة في العمل أن لا تؤخر عمل اليوم لغد، والأمانة أن لا تخالف سريرة علانية، فاتقوا الله، فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يَقِه.

● اللهم لا تكثر لي من الدنيا فأطغى، ولا تُقلَّ لي منها فأنسى، فإنه ما قلَّ وكفى خير مما كَثُر وألهى.

● المتوكِّل الذي يلقي حَبّه في الأرض، ويتوكل على الله.

● لا تعتمد على خُلق رجل حتى تجرِّبه عند الغضب.

● اجتهد أن لا تكون دنيَّ الهمَّة، فإني ما رأيت أسقط لقدم الإنسان من تداني همَّته.

● استعيذوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهنَّ على حذر، واستعينوا عليهن بالعري، وأكثروا لهنَّ من قول « لا » فإن « نعم » تغريهنّ على المسألة.

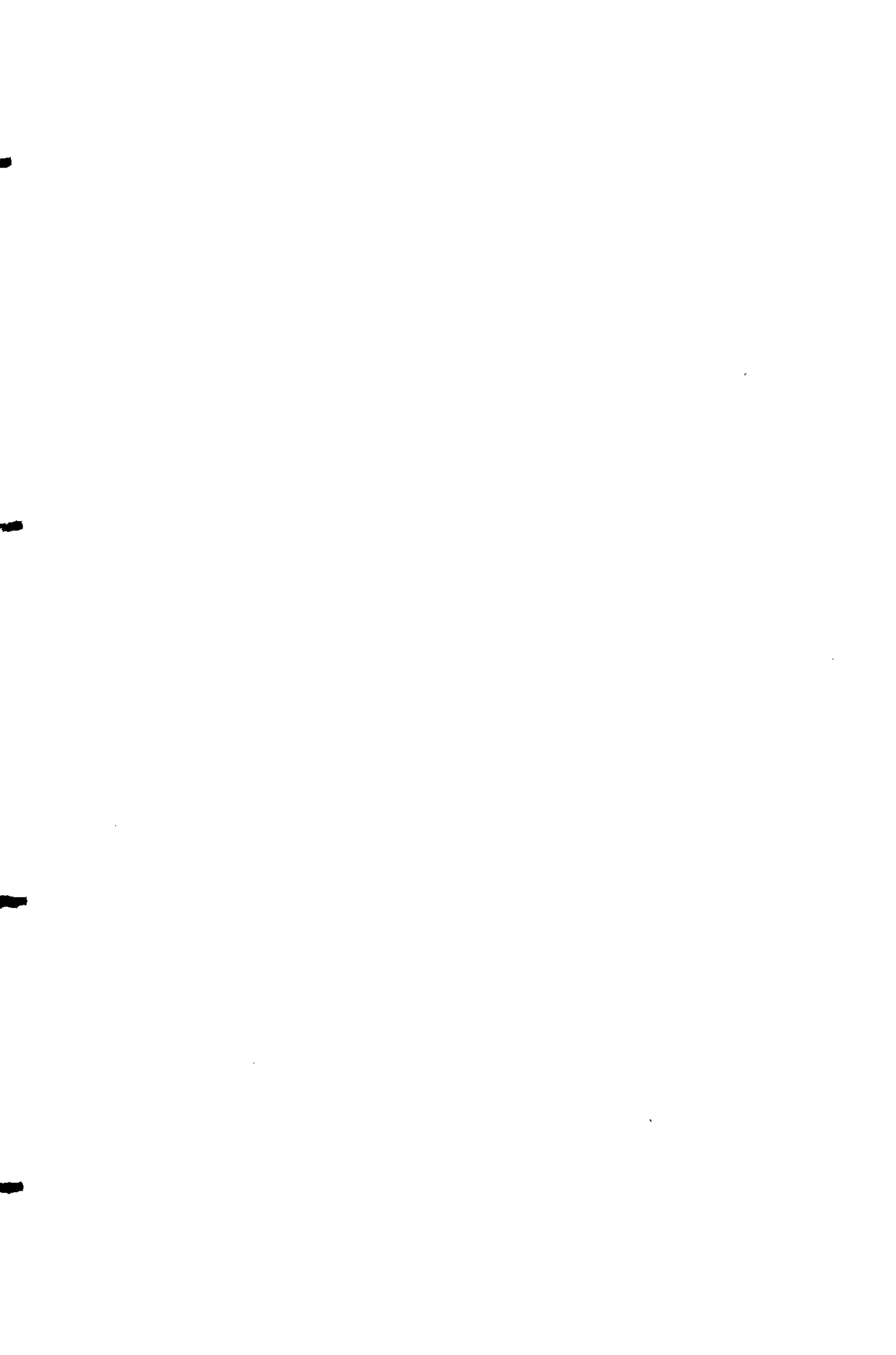
● ما وجد أحد في نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها في نفسه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

طريق الخلاص

للأستاذ سيّد قطب



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينـه ونستغفـره، ونعـوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مضل له. ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

« يَا أيهَّا الَّذينَ آمَنُوا!

اتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاته، ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون »

« يا أيها الناس!

اتَّقوا ربّكم الـذي خَلقـكم مِنْ نفسٍ واحـدةٍ، وخَلَـقَ مِنهـا زَوجها، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً. واتَّقوا الله الذِي تَساءَلون به والأرْحام. إنَّ الله كان عليكم رقيباً. »

« يا أيهُّا الذين آمنوا!

اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يُصْلح لكم أعمالكم ويغفرْ لكم ذنوبكم. ومن يطعِ الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ».

أما بعد : فإن لجنة مسجد الجامعة ليسرُّها أن تستقبـل بهـذا العدد مع قرائها الكرام عاماً جديداً هو العام الخامس. ونسأل الله

تعالى أن يعيننا فيه على أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم . وعلى أن نعمل بما نقـول، لا يصدنـا عن ذلك هوى من أنفسنا ولا طغيان طاغوت من طواغيت الإنس والجن.

واللجنة تحمد الله سبحانه وتعـالى الـذي يسَّر لهـا هذا العمل المبارك، كما عليها أن تشكر من بعد ذلك الإخوة القراء والمؤازرين الـذين يزدادون على الأيام عدداً، ونسـأل الله أن يزيدهـم بهـذه الرسائل وغيرها عدة في مصارعة الهوى، ومقارعة الباطل، وتحطيم الطاغوت أينما كان.

﴿ الَّذِينَ آمَنوا يقاتلون في سبيلِ الله ، والَّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلـوا أولياء الشيطـان إنَّ كيدَ الشَّيطـان كان ضعيفاً﴾[1]

* * *

ونحن في هذا العدد نلتقي مع كاتب إسلامي كبير مجاهد.

يجاهد في سبيل الله مهما لقي من الأذى ويعلن كلمة الحق في غير دِهان [2] ولا خفاء.

نلتقي مع « سيد قطب » في « مختارة » مما كتبه في كتابه القيِّم : (الإسلام ومشكلات الحضارة).

---

(١) النساء: ٧٦.

(٢) الدهان : بوزن القتال مصدر مشاركة من داهن يداهن : أي جارى الآخر في الباطل، وجامله على حساب الحق. وإذا أردت مزيداً من المعرفة بالمعنى فاعلم أنه الخُلق الذي يعيش فيه أكثر المسلمين اليوم ـ إلا من رحم ربك.

وهو هنا يدلُّ البشرية على طريق الخلاص. الخلاص من النكبة الكبرى التي تحيق بها، والكارثة المقبلة على الإنسان وقد بدت نُذُرها، الكارثة التي تهدِّد الانسان من خلال هذه الحضارة الغربية المطبقة على الناس.

وما الكارثة إلا القضاء على المقومات الإنسانية في الإنسان، والخصائص البشرية التي بها كرَّم الله بني آدم وبها فضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً.

فها هو ذا الانسان وقد استحال، أو كاد - بسبب هذه الحضارة المطبقة عليه - إلى مخلوق أشبه بالحيوان، أو إلى شيء أشبه بالآلة!! . . واحسرتاه!! . .

* * *

وقارىء هذا الموضوع الذي عالجه الكاتب الكبير تخطر في ذهنه خواطر قد يرى من الخير أن يسجلِّها.

فإذا كان خلاص البشرية - كما قال - أن يقوم « مجتمع إسلامي » ينقاد لحكم الله وحده ويعترف بأن لا حاكمية أبداً إلا للخالق تبارك وتعالى.

مجتمع يوطِّن نفسه من أول الأمر على الانقياد لشريعة الله كلها.

وإذا كان لا يوجد الآن على وجه الأرض مجتمع من هذا النوع قط - وهذه حقيقة أكدها وكررها الكاتب الكبير -

فما العمل؟

العمل كما قال الكاتب أن تتلقى القلوب المؤمنة شريعة الله بالقبول ثم تجاهد على هذا حتى ينصر الله أولياءه. وهو تعالى قدير عزيز، رحيم كريم. وهو أرحم بالإنسان من أن يسلمه إلى الفناء، فناء إنسانيته، وإن بقي بجثته يدب على الأرض.

فأولى هذه الخواطر أن يعلم المسلمون أن هذه صيحة توجه إليهم ليكونوا هم حقاً وصدقاً هذا « المجتمع » المنتظر.

ذلك أنهم أعرف بحق هذا الإسلام وبفضله.

ومن هذه الخواطر أنه إن كان هذا الذي وصف هو طريق الخلاص للبشرية. فما طريق الخلاص للمسلمين مما هم فيه؟

فلعل أول ما يجب عليهم أن يعلموا أن ما هم عليه ليس من الإسلام في شيء. وشتان بين هذه القطعان المنتسبة للاسلام وبين الإسلام نفسه. بل بين هذه القطعان الموجودة الآن، وتلك الجماعة المؤمنة الواعية الأولى التي سجلت في رضوان الله تعالى أكرم صفحة.

فما أبعد الحقيقة حقيقتنا عن حقيقتهم، وعقيدتنا عن عقيدتهم، وأخلاقنا عن أخلاقهم. أسماء متشابهة وحقائق متباينة كأشد ما يكون التباين.

أين عبدالله من عبدالله؟ أين عمر من عمر؟ وأين خالد من خالد؟ وأين أحمد من أحمد؟ . . . وأين . . . من . . و . . ؟

أسماء واحدة، ولكن أمة تعنو لها الارض وتُفتح لها الأقطار، وأمةٌ أمة قطعانٍ ـ ممزقةٌ كل ممزق يعلن فيها بالكفر، ويحتلها الأعداء

بجيوش الفكر أو بجيوش السلاح، وتعمل الصهيونية في محوها في قطعة من أعز بلادها عليها.

وإذا عرفنا أن الدين واحد ـ لم يتغير في ذاته ولم يتبدل ـ وإذا كتبنا هذه المعادلة:

المسلمون الأولون + اعتناقهم للدين = العز والفتوح

والمسلمون الحاضرون + اعتناقهم للدين = الذل والخنوع.

فماذا نستنتج؟

نستنتج أن للمسلمين اليوم مع دينهم شأناً غير شأن المسلمين الأولين مع دينهم.

وإذا كان «الدين» من الإنسان هو جوهره فإنا نستنتج أن جوهر المسلمين اليوم غير جوهرهم بالأمس.

سل أي مسلم ـ على سبيل المثال ـ: ألا ترى أن يذهب الأعداء؟ فسيقول: بلى. ونسأل الله تعالى أن يهلكهم بهالكة [1] من السماء. ولكن هذا المسلم لا يعلم أن الطريقة التي اختارها ـ دون وعي أو شعور ـ للقضاء على الاعداء هي الطريقة التي جعلها الله سبة الدهر على اليهود، وعار الأبد على أعداء الرسل والنبوات.

لقد اختار طريقة اليهود ـ وهو لا يعلم ـ أولئك الذين قالوا: ﴿اذْهب أنْتَ وربك فقاتِلا. إنَّا ههُنا قاعدون﴾ وقعد مع القواعد

---

(١) الأصح أن يقول (مهلكة) بديل (هالكة).

وقد جرينا في إيراد القول هنا على الوجه الذي يقوله الناس دون تغيير.

والخوالف، ونسي، بل ذهبت من كل أقطار نفسه الطريقة التي اختارها الله لأوليائه وجنده وحزبه : ﴿ قاتِلوهُم يعذِّبْهم الله بأيْديكم ويُخْزِهم وينصرْكم عليهم ويشْفِ صدور قوم مؤمنين، ويذهبْ غيظَ قلوبهم ﴾ [1] تلك الطريقة التي اختارها أولياء الله - حقاً - الذين قالوا لرسول الله ﷺ : اذهب أنت وربك فقاتلا . إنا معكما مقاتلون .

لقد اختار « المسلم » اليوم طريقة اليهود وهو لا يدري .

ورفض « المسلم » - وهو لا يدري - الطريقة التي بها جعل الله أولياءه قدراً من قدره :

- ﴿ يعذِّبْهم الله بأيديكم ﴾ .

- ﴿ قل : هل تربَّصون بنا إلاَّ إحدى الحسنيين؟
ونحن نتربَّص بكم أن يُصيبكم الله
بعذابٍ من عنده أو بأيدينا . . ﴾

- ﴿ وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى ﴾ .

أين بذل من بذل؟ بل أين بذل من شحٍ وبخلٍ وكنود؟

أين تضحية من تضحية؟ بل أين تضحية من جبن وقعود؟

أين اهتمام من اهتمام؟ بل أين اهتمام بالجهاد وعمل للأمر من اهتمام بالاموال والاولاد والشهادات والمرتبات، وإيثارٍ للسلامة والعافية والراحة؟!

* * *

ألا إن الدين واحد، ولكن « الاعتناق » في درجته متغير.

---

(١) التوبة : ١٤

ألا أن الدين واحد، ولكن ما أكثر التخلف في السلوك؛ وما التخلف في « السلوك » هنا إلا تخلف في «الفهم ».

ألا إن تغير المفاهيم، وحلول « المفاهيم » في محل « مفاهيم » هو مكمن الداء وسر الوباء.

فما أكثر ما نظن أنفسنا على مفاهيم إسلامية ، ونحن على مفاهيم هي من الإسلام على النقيض.

فهذه هي البداية : تغيير المفاهيم، وتصحيح الاعتناق.

﴿ ذلكَ بأنّ الله لم يكُ مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتَّى يغيرّوا ما بأنفسهم ﴾ [1].

وليكن شعارنا منذ اليوم أن نغير من هذه النفوس :

﴿ إن الله لا يغيرّ ما بقومٍ حتَّى يغيرّوا ما بأنفسهم ﴾

والحمد لله ربّ العالمين.

الأستاذ

عبد الرحمن الباني

---

(١) الأنفال : ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

طريق الخلاص

إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع إنما تستجيب لمنهج حي متحرك، مجسم، ممثل في حياة جماعة من البشر، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد، وتلاحظ آثاره العقول..

إنها تستجيب للمنهج الإسلامي في صورة.. مجتمع إسلامي..

وعلى كل ما لقيته البشرية من الَّلأْواء والنصب في هاجرة التيه المقفر الذي سارت فيه بلا دليل..

وعلى كل ما عانته من التجارب القاسية، والتخبط المؤلم وهي تنهض وتعثر، وتنزف جروحها طول الطريق..!

وعلى كل ما يهدد خصائصها من الدمار، ويهدد حياتها من البوار، في ظل هذه الحضارة المادية التي أقيمت دون علم بالإنسان، ودون مراعاة لخصائصه في كل زمان!

وعلى كل ما يدرك العقلاء فيها من جسامة الخطر الذي يتعرض له وجودها ذاته، وتتعرض له خصائصها الثمينة..

على الرغــم من هذا كلــه، فإنــه ليس من عادة البشرية أن تسـتجيب لمنهـج مقـروء أو مسمـوع.. ما لم يتمثـل في صورة « مجتمع » يعيش بهذا المنهج، ويعيش له، وتتمثل فيه خصائصه ومزاياه..

وألْف كتاب عن الإسلام، وألْف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان، وألف فيلم في الدعاية للاسلام، وألْف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان.. كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركان الأرض يعيش بمنهـج الإسـلام، ويعيش لمنهج الإسلام، وتتمثل فيه خصـائص هذا المنهـج، وتتمثـل فيه صورة الحياة في الإسلام!

وأعــداء الاســلام العــالميون من الصهيونيين والصــليبيين المستعمـرين يعرفـون هذه الحقيقـة جيداً، ومـن أجـل معرفتهـم العميقة بهذه الحقيقة، هم قد يسمحون بنشر الكتب عن الاسلام - في حدود - وبإلقاء الخطـب عن الاسـلام - في حدود - وبعـرض الافلام عن الاسلام - في نَدرة! - وبإرسال البعثات للاسلام - في رقابة!. ولكنهم لا يسمحون أبداً - بما لديهم من سلطات عالمية ضخمة خافية وظاهرة - بقيام مجتمع إسلامي - ولو صغير - في ركن من أركان الأرض - ولو في جزيرة بالمحيط!

ذلك أنهـم يعرفـون أن هذه هي الوسيلـة الجـدِّية الــوحيدة « لوجـود » الاسـلام! وهـم قد عانـوا من « وجـود » الاسـلام طويلا، إذ حال بينهم وبين أهدافهم الاسـتعمارية الاستغـلالية

للوطن الاسلامي وللمجتمع الاسلامي . . وما صدَّقوا أن أجهزوا ـ كما يتصورون ـ على هذا الجبار، فهم يفزعون من شبحه ولا يريدون له « الوجود » الفعلي بحال من الاحوال . .

* * *

ولكن المجتمع الاسلامي ـ مع هذا كله ـ هو طريق الخلاص الوحيد للبشرية المهددة بالدمار والبوار . .

إنه الاستجابة الوحيدة لنداء الفطرة في ساعة العسرة. والفطرة في ساعة الخطر تتنبه وتعمل، مهما تكن في خمار أو دوار!

إنه ضرورة إنسانية، وحتمية فطرية . . ومن ثم فإن الدوافع لبروزه أقوى من كل قوة معوّقة، أقوى من الصهيونية الماكرة والصليبية المستعمرة، وأقوى من الاجهزة المسلطة في كل زاوية من زوايا الأرض . . وأقوى كذلك من جهل أهل الاسلام بالاسلام، وبلادتهم وانغمارهم في التيار الجارف العام!

إنه لا مفر من قيام هذا المجتمع . . المجتمع الاسلامي . .

إنه إن لم يقم اليوم فسيقوم غداً ـ بإذن الله ـ وإن لم يقم هنا فسيقوم هناك . ولا نريد أن نتنبأ عن مكان أو زمان، فنحن ـ البشر ـ تقف تقديراتنا دائماً عند ستر الغيب المسدل، الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله .

* * *

إلا أن الذي ينبغي أن يقال . . هو التحذير من وقع هذه

الكلمات! التحذير من الامل العريض الذي قد تنشئه في بعض الصدور!

إن حتمية قيام هذا المجتمع بوصفه ضرورة إنسانية لإنقاذ الإنسانية، وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الإلٓهي الذي لا بد غالب..

إن هذه الحتمية ليس معناها ، أن الطريق إليه نزهة مريحة، ولا أنه هناك على قيد خطوات..

كلا إن حتمية الميلاد لا تغني من آلام المخاض!

والطريق إلى المجتمع الاسلامي طويل وشاق.. ومليء بالأشواك، وأعسر ما في هذا الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا، وبأفكارنا، وبأخلاقنا، وبسلوكنا - ثم بواقعنا الحضاري المادي - إلى مستوى الاسلام.

ولكنه - بعد هذا كله - ضرورة إنسانية، وحتمية فطرية، ولا بد له من ميلاد، ولا بد للميلاد من مخاض، ولا بد للمخاض من آلام!

* * *

ولا بد من معرفة ملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية بوجه عام، ولا بد من تصور طريقة مواجهته للحضارة القائمة ومنشآتها القائمة ومؤسساتها العاملة ، وأوضاعها هنا وهناك.

ولكن متى ينبغي بيان هذا وذاك؟

فأما المعرفة العامة لملامح هذا المجتمع وخصائصه الذاتية فنعتقد أنها ضرورية منذ الآن، وقد أشرنا إلى بعضها في ثنايا فصول هذا الكتاب [1].

وفي حدود جهدي الخاص : لقد اعددت لهذا بحثاً ضخماً مفصلاً تحت عنوان « نحو مجتمع إسلامي » وبحثاً آخر عن « خصائص التصور الاسلامي ومقوماته » وكلاهما يكمل الآخر في هذا المجال.

وأما معرفة كيف يواجه المجتمع الاسلامي الحياة الحاضرة، وكيف يتصرف في أوضاعها القائمة ـ وعلى الأخص صياغة هذا في قالب فقهي مقنن ـ فهذا ما أعتقد أن كل كلام فيه ـ في غير الإطار العام ـ سابق لأوانه بل أشبه شيء باستنبات البذور في الهواء! . . .

إن الفقه الإسلامي لا يستطيع أن ينمو ويتطور ويواجه مشكلات الحياة إلا في مجتمع إسلامي! مجتمع إسلامي واقعي، موجود فعلاً، يواجه مشكلات الحياة التي أمامه، ويتعامل معها، وهو مستسلم ابتداء للاسلام!

إنه عبث مضحك أن نحاول مثلا إيجاد أحكام فقهية إسلامية للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في امريكا أو روسيا، فأميركا أو روسيا كلتاهما لا تعترف ابتداء بحاكمية الإسلام!

---

(١) كتاب « الاسلام ومشكلات الحضارة ». وهذه الرسالة هي بجملتها خاتمة الكتاب.

وكذلك الحال بالنسبة لأي بلد لا يعترف بحاكمية الإسلام!

وكل فقه تراد تنميته وتطويره في وضع لا يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام، هو عملية استنبات للبذور في الهواء.. هو عبث لا يليق بجدية الإسلام!

إن مشكلات « المجتمع الإسلامي » في مواجهة الحضارة القائمة، ليست هي مشكلات أي مجتمع آخر، إنها ليست مشكلات جاهزة حتى نهيىء لها حلولاً جاهزة. إنها مشكلات ستنشأ بشكل خاص، وبحجم خاص، وفق ظروف في عالم الغيب، ووفق ملابسات لا يمكن التكهن بها الآن.. فمن العبث الجري وراء افتراضات لم تقع بعد، على طريقة « الأرأيتيين »[1] التي يمجها الجادون من مشرعي وفقهاء الإسلام...

إنه ليس الذي ينقص البشرية لقيام مجتمع إسلامي هو وجود فقه إسلامي « متطور » إنما الذي ينقصها ابتداء هو اتخاذ الإسلام منهجاً، وشريعته شريعة. إن الفقه الإسلامي لكي يتطور، ينبغي أن يجد التربة التي يتطور فيها. والتربة التي يتطور فيها الفقه الإسلامي هي « مجتمع اسلامي » يعيش في العصر الحاضر، بدرجته الحضارية، ويواجه مشكلات قائمة بالفعل، بتكوينه الذاتي.. ومواجهة المجتمع الإسلامي لهذه المشكلات، لن تكون كمواجهة أي مجتمع آخر لها بطبيعة الحال..

---

(١) الذين يسألون : أرأيت لو أن كذا وقع.. فما يكون الحكم؟..

ولكن هذه البديهية ـ فيما يبدو ـ لا تبدو واضحة للكثيرين من المخلصين الغيورين على الإسلام « العقلاء »!

ومن أجل ذلك نكرر ونعيد ونزيد في الإيضاح . .

إن كل ما يمكن قوله إجمالاً عن المجتمع الإسلامي . . أنه ليس صورة تاريخية محدودة الحجم والشكل والوضع . . واننا في العصر الحديث لا نستهدف إقامة مجتمع من هذا الطراز من حيث الحجم والشكل والوضع ، إنما نستهدف إقامة مجتمع مكافىء من النواحي الحضارية المادية ـ على الأقل ـ للمجتمع الحاضر. وفي الوقت ذاته له روحُ ووجهة وحقيقة المجتمع الإسلامي الأول، الذي أنشأه المنهج الرباني، باعتباره قمة سامقة في روحه ووجهته وحقيقته الإيمانية وتصوره للحياة، ولغاية الوجود الانساني، ولمركز الانسان في هذا الكون، ولخصائصه وحقوقه وواجباته. وقمة سامقة في تناسقه وتماسكه . . أما الشكل والصورة والأوضاع فتتحدد وتتجدد بتطور الزمن، وبروز الحاجات، واختلاف أوجه النشاط الواقعي . . إلى آخر الملابسات . . الملابسات المتغيرة المتحركة . . ولكن التي ينبغي أن يكون تحركها ـ في المجتمع الإسلامي ـ داخل إطار المنهج الإسلامي، وحول محوره الثابت، وعلى أساس الإقرار بألوهية الله وحده، وإفراد الله سبحانه بخصائص الألوهية دون شريك. وأولى هذه الخصائص هي حق الحاكمية والتشريع للعباد، وتطويعهم لهذا التشريع .

ومن ثم فإنه ليس « الفقه » الإسلامي هو الذي نتقيد به في

إنشاء هذا المجتمع - وإن كنا نستأنس به - إنما هو « الشريعة » الإسلامية والمنهج الإسلامي، والتصور الإسلامي العام.

وهذا يتطلب ابتداء، أن ترتضي جماعة من البشر اتخاذ الإسلام منهج حياة، وتحكيمه في كل شأن من شؤون هذه الحياة - أي إفراد الله، سبحانه، بالألوهية والربوبية في صورة إفراده، سبحانه، بالحاكمية التشريعية -. ولحظتئذٍ - لا قبلها - يوجد « المجتمع الإسلامي ».. ويبدأ في مواجهة الحياة القائمة، بينما هو يكيف نفسه، وأوضاعه وحاجاته الحقيقية، ووسائل إشباع هذه الحاجات، متأثراً بعقيدته، وما تنشئه من تصورات خاصة، ومتأثراً بأهدافه وما تعيِّنه من وسائل خاصة، ومتأثراً بطريقته المنهجية الخاصة في مواجهة الواقع، والاعتراف بما هو فطري من هذا الواقع وما هو ضروري لنمو الحياة السليمة، مع رفض ما ليس فطرياً ولا ضرورياً للنمو، وما هو ضار ومعطل وساحق لهذا النمو، من ذلك الواقع.. وفي خلال هذه المواجهة - بكل هذه الملابسات - ينشىء أحكامه الفقهية الخاصة، أولاً بأول، في مواجهة وضعه الخاص..

وهنا.. قد يخدم هذا المجتمع الناشىء ما حسبناه وما نزال نحسبه سوء حظ في انقطاع نمو الفقه الإسلامي!

قد تكون هذه خدمة يسرها الله لحكمة..

ذلك أن المجتمع الوليد سيتجه حينئذ مباشرة إلى شريعة الله الأصيلة، لا إلى آراء الرجال في الفقه، لأنه لن يجد في آراء الرجال -

وهي مفصلة لعصور خاصة، ولظروف خاصة ـ ما يساوي قده، إلا بعمليات ترقيع وتعديل . .

وعندئـذ يعمــد إلى القماش الأصلي الطـويل العــريض . . (الشريعة) . . ليفصّل منه ثوبـاً جديداً كامـلاً، بدلاً من التـرقيع والتعديل!

إن هذه ليست دعوة لإهمال الفقه الإسلامي، وإهدارِ الجهود الضخمة العظيمة التي بذلها الأئمة الكبار، والتي تحوي من أصول الصناعة التشريعية، ومن نتاج الاحكام الأصيلة، ما يفـوق ـ في نواح كثيرة ـ كل ما أنتجه المشرعون في أنحاء العالم.

ولكنها فقط بيان للمنهج الذي قد يأخذ به المجتمع الإسلامي الذي ينشأ ـ عندما ينشأ ـ وبيان لطبيعة المنهج الإسلامي في انشاء الأحكام الفقهية؛ انشائهـا في مواجهـة الواقـع الفعلي للمجتمـع الإسلامي، الذي يعترف ابتداء بحاكمية الإسلام.

إن تلك الثـروة الضخمـة من الفقـه الإسلامـي، قد ولـدت ونشأت، يوماً بعد يوم، في مجتمع إسلامي يواجه الحياة بعقيدتـه الإسلامية ومنهجه الإسلامي، ويعترف ابتداء بحاكمية الإسـلام له، ولا يعترف بحاكمية منهج آخر غـير الإسـلام ـ مهما يكن في سلوكه أحيانا من مجافاة جزئية للاسلام.

ولكن الخطأ في السلوك والانحراف في التـطبيق شيء، وعـدم الاعتراف ابتداء بحاكمية المنهج الإسلامي كله شيء آخر. الاول يقع في المجتمع الإسلامي ويظل مع ذلك مجتمعا اسلامياً، يصح

أن ينمو فيه الفقه الإسلامي ويتطور. والثاني لا يقع إلا في مجتمع غير إسلامي، مجتمع لا يصلح بيئة لنمو الفقه الإسلامي وتطوره، لأنه مجتمع جاهلي لا علاقة له بالإسلام، مهما ادعى لنفسه صفة الاسلام.

وشيء آخر..

إن الفقه الاسلامي ليس منفصلاً عن الشريعة الإسلامية. والشريعة الإسلامية ليست منفصلة عن العقيدة الاسلامية. والفقه والشريعة والعقيدة ونظام الحياة كلٌّ لا يتجزأ في التصور الاسلامي.. ومحال أن يكون هناك إسلام ولا مسلمون ولا مجتمع مسلم، إذا تمزق هذا الكل الموحد مزقاً وأجزاء!

وفي أي نظام اجتماعي آخر - غير النظام الاسلامي - تكفي المعرفة بأصول التشريع وطرق الصناعة الفقهية ليصبح للرجل القدرة على وضع الأحكام القانونية..

أما في النظام الاسلامي فان مجرد المعرفة بأصول الصناعة لا يكفي، فلا بد من أمرين:

١ - مزاولة العقيدة والمنهج في الحياة العامة للأمة.

٢ - مزاولة العقيدة والمنهج كذلك في الحياة الخاصة للمشرِّع!

وهذا ما يجب أن نعرفه، ونحذر من مخالفته ونحن نحاول - الآن - تنمية الفقه الاسلامي وتطويره. هذه المحاولات التي تبذلها جمهرة مخلصة من رجال الفقه والشريعة في شتى أنحاء الوطن الاسلامي ممن يريدون أو يشيرون بتنمية الفقه الاسلامي

وتطويره، لمواجهة الأوضاع والأنظمة والمؤسسات والحاجات القائمة في المجتمعات الحاضرة.

إنهم - مع احترامي الكبير لهم والتجاوب مع شعورهم المخلص ورغبتهم المشكورة، وتقديري للجهد الناصب الذي يبذلونه - يحاولون استنبات البذور في الهواء.. وإلا فأين هو «المجتمع الإسلامي» الذي يستنبطون له أحكاماً فقهية إسلامية يواجه بها مشكلاته؟...

لأن هذه المشكلة ذاتها قد تقوم أصلاً في المجتمع الاسلامي حين يقوم، وإذا قامت فلن تكون هي بحجمها وشكلها، ولن تكون طريقة المجتمع في مواجهتها - وهو إسلامي - هي طريقته في مواجهتها وهو غير إسلامي؛ ولأن عوامل شتى، وملابسات شتى، تجعل طبيعة المجتمع الاسلامي وطريقته في مواجهة الحياة والمشكلات غير طبيعةِ وطريقة المجتمعات غير الإسلامية.

هذه بديهية.. فيما أظن..

إن أبا بكر وعمر وعَلِيّاً، وابن عمر وابن عباس، ومالكاً وأبا حنيفة وأحمد بن حنبل والشافعي.. وأبا يوسف ومحمداً والقرافي والشاطبي.. وابن تيمية وابن قيم الجوزية والعز بن عبد السلام وأمثالهم - عليهم رضوان الله - كانوا - وهم يستنبطون الأحكام - :

أولاً: يعيشون في مجتمع إسلامي يحكّم الاسلام وحده في شؤونه، ويتخذ الاسلام وحده منهجاً لحياته - حتى مع بعض

المخالفة الجزئية في بعض العصور ـ ويواجهون الحياة بهذا المنهج وبآثاره في نفوسهم.

ثانياً : يزاولون العقيدة الاسلامية والمنهج الاسلامي في حياتهم الخاصة، وفي إطار المجتمع الاسلامي الذي يعيشون فيه، ويتذوقون المشكلات ويبحثون عن حلولها بالحس الاسلامي..

ومن ثم كانوا مستوفين للشرطين الأساسيين لنشأة فقه إسلامي، وتطوره ليواجه الأحوال المتطورة، فوق استيفائهم طبعاً لشروط الاجتهاد، والتي لا مجال هنا ولا داعي لبيانها لأنها بديهية!

فأما الآن.. فماذا؟؟

إنه لا بد أن نحسب حساب عوامل كثيرة تبعد نمو الفقه الاسلامي وتطوره الآن عن منهجه الأصيل.

لا بد أن نحسب بُعد الواقع العملي، والواقع النفسي والعقلي، والواقع الشعوري والاعتقادي، عن جو الاسلام والحياة الاسلامية..

ولا بد أن نحسب حساب الهزيمة العقلية والروحية أمام الحضارة الغربية، وأمام الاوضاع الواقعية.. والاسلام يواجه « الواقع » دائماً، ولكن لا ليخضع له، بل ليخضعه لتصوراته هو، ومنهجه هو، وأحكامه هو، وليستبقي منه ما هو فطري وضروري من النمو الطبيعي، وليجتث منه ما هو طفيلي وما هو فضولي، وما هو مفسد.. ولو كان حجمه ما كان.. هكذا فعل

يوم واجه جاهلية البشرية، وهكذا يفعل حين يواجه الجاهلية في أي زمان.

إن أولى بوادر الهزيمة هي اعتبار « الواقع » أيّاً كان حجمه هو الأصل الذي على شريعة الله أن تلاحقه! بينما الاسلام يعتبر أن منهج الله وشريعته هي الأصل الذي ينبغي أن يفيء الناس إليه، وأن يتعدل الواقع ليوافقه. وقد واجه الاسلام المجتمع الجاهلي - العالمي - يوم جاء، فعدله وفق منهجه الخاص، ثم دفع به إلى الأمام.

وموقف الاسلام لا يتغير اليوم حين يواجه المجتمع الجاهلي - العالمي - الحديث. إنه يعدله وفق منهجه، ثم يدفع به إلى الامام.

وفرق بين الاعتبارين بعيد. فرق بين اعتبار « الواقع » الجاهلي هو الاصل، وبين اعتبار المنهج الرباني هو الاصل.

إنني أنكر واستنكر استفتاء الاسلام اليوم في أية مشكلة من مشكلات هذه المجتمعات، احتراماً للاسلام وجديته.. وإلا فأي هزء واستخفاف أشد من أن تجيء لقاض تطلب حكمه، وأنت تخرج له لسانك، وتعلن له ابتداء أنك لا تعترف به قاضياً، ولا تعترف له بسلطان، وأنك لن تتقيد بحكمه إلا إذا وافق هواك! وإلا إذا أقرك على ما تهواه.

إن الاسلام لا علاقة له بما يجري في الأرض كلها اليوم، لأن أحداً لا يحكّم الاسلام في حياته، ولا يتخذ المنهج الاسلامي منهجاً لمجتمعه. ولأن أحداً لا يحكم بشريعة الله وحدها، ولا يفرد

الله سبحانـه بالألـوهية وخصائصهـا، ولا يجعـل الكلمـة الاولى والاخيرة في شؤون الحياة كلها لله ولشريعة الله.

والذين يستفتون ـ بحسن نية أو بسوء نية ـ هازلون! والذين يردون على هذه الاستفتاءات بحسـن نية أو بسـوء نية ـ والـذين يتحدثون عن مكان أي وضع من أوضـاع البشرية الحـاضرة من الاسلام ونظامه، أشد هزلاً.. وإن كنت أعلم عن الكثير منهم أنهـم لا يعنـون الهـزل ولا يستسيغونـه ـ لو فطنــوا إليه في شأن الاسلام! إنما يُستفتى الاسلام في الأمر حين يكون الاسلام وحده هو منهج الحياة. ذلك عند قيام المجتمع الاسلامي. المجتمع الذي يتخذ الإسلام شريعته ولا تكون له شريعة سواه ـ عندما يأذن الله ويشاء.

وثقتنا في رحمة الله بالبشرية تجعلنا نرجو دائماً أنه ـ سبحانـه ـ سيأذن بهذا ويشاء.. فقيام هذا المجتمع ـ كما قلنـا وكما نكرر ـ ضرورة إنسانية، وحتمية فطرية، وتلبية لنـداء الفطـرة في ساعـة العسرة..

وإن كانت حتمية الميلاد لا تغني شيئاً عن آلام المخاض.

* * *

ولكن كيف؟ وهذا الواقع البشري الضخم يواجه الإسلام؟

على الذين يسألون هذا السؤال أن يتذكروا كيف وقع الأمر هذا أول مرة!

لقد وقف رجل واحد يواجه البشرية كلها بمنهج الله، ويقول لها ـ كما أُمرـ : إنها في جاهلية، وإن الهدى هدى الله..

ثم تحول التاريخ . . تحول حين استقرت هذه الحقيقة الماثلة في قلب ذلك الرجل الواحد . تحول على النحو الذي يعرفه الاصدقاء والاعداء!

هذه الحقيقة التي استقرت في قلب ذلك الرجل الواحد، ما تزال قائمة قيام السنن الكونية الكبرى . . وهذه البشرية الضالة قائمة كذلك وقد عادت إلى جاهليتها!

وهذا هو الأمر في اختصار وإجمال . .

توجد نقطة البدء . . نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب . . في عدة قلوب . . في قلوب العصبة المؤمنة . . ثم تمضي القافلة في الطريق . . في الطريق الطويل . . الشائك . . الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة - فيما عدا بعض الاستثناءات - ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك . . كما وصلت القافلة الأولى . .

لست أزعم أنها مسألة هينة . ولا أنها معركة قصيرة . . ولكنها مضمونة النتيجة . . كل شيء يؤيدها . . كل شيء يؤيدها . . كل شيء حقيقي، وفطري، في طبيعة الكون، وفي طبيعة الإنسان . . ويعارضها ركام كثير . ويقف في طريقها واقع بشري ضخم . ولكنه غثاء! ضخم نعم . . ولكنه غثاء!

﴿ واللهُ غَالبٌ على أمرِهِ وَلكنَّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمون ﴾ [1]

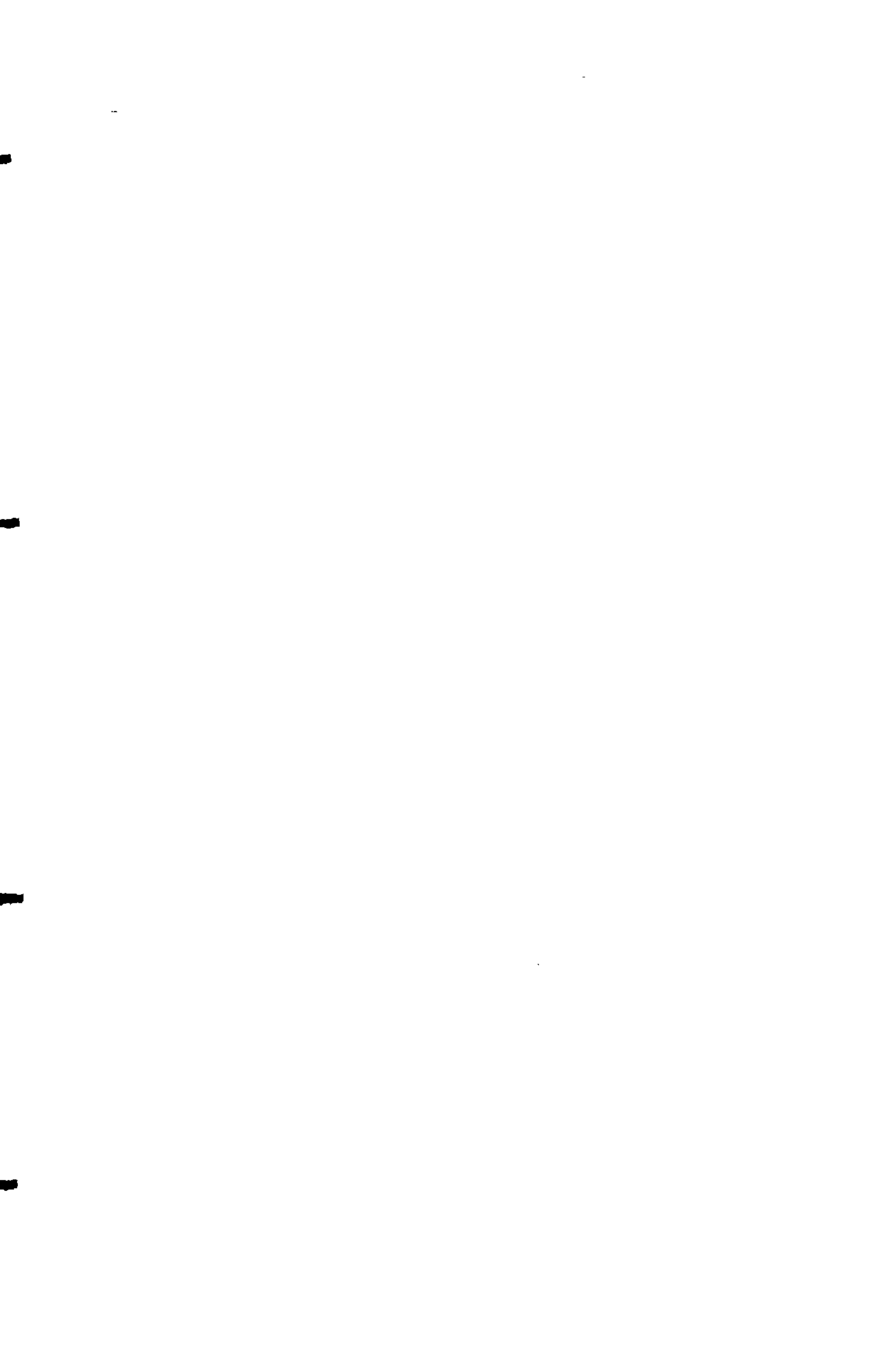
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(١) يوسف : ٢١

محمّد بن القاسم الثقفي

للأستاذ

محبّ الدّين الخطيب



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله الذي لم يتَّخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذُّل، وكبِّره تكبيراً ».

الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر.

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

يا أيها الذين آمنوا. . !

بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء.

﴿ يا أيها الذين امنوا :

هل أدُلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليمٍ .

تؤمنـون بالله ورسُولـه. . وتجاهـدون في سبيل اللهِ بأموالـكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون.

يَغْفِر لكم ذُنوبكم ويُدخِلكم جنات تجري من تحتها الأنهـار، ومساكنَ طيِّبةً في جنَّات عدنٍ، ذلك الفوزُ العظيم.

واخـرى تحبّونهـا. . نصرٌ من الله. . وفتـحٌ قريب. . وبشر المؤمنين﴾ [1].

---

(١) الصف : ١٠، ١١، ١٢، ١٣.

وبعد. فلولا الحاجة إلى هذا الزاد من الايمان لما أخرجنا هذه الرسائل.

وحاجات المسلمين - في مختلف بقاع ديار الاسلام - كثيرة عديدة، إلا أنها تكاد أن تعود إلى أصل واحد، هو الافتقار إلى الرجال.

الرجال الذين يحملون الروح المتوثبة التي تأجج بالاسلام ويتصفون بالفهم الواسع العميق للاسلام، ويستقيمون على سبيل الاسلام، ويحكمون في جميع أمورهم موازين الاسلام.

إنَّ لله عباداً فُطناً | طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا | أنهَّا ليست لحيٍّ وطناً
جعلوها لُجةً واتخذوا | صالح الأعمال فيها سُفنا

القرآن العظيم يأمر بهذا، ويدفع اليه، ويحث على سلوك سبيله. والرسول الكريم ﷺ يبين سبيله، ويحض عليه.

وأعلام الإسلام في جميع العصور والأمصار، حجة على الضعفاء الخاملين، والأذلة الخانعين، وحث للشباب المتحرر من الدنيا وسفاسفها، والنفس ووساوسها، المصمم على الجد والجهاد، كي يتجه إلى الخير فلا يصدف عنه، ويعرف قيمة الجنة فيسعى لها سعيها وهو مؤمن.

ولقد رأيتم - في رسائلنا - عز الدين القسَّام للدعوة والجهاد، وعبد الحكيم الأفغاني للزهد والاستقامة، والسرَّخسي للعلم والارتحال؛ وسعيد بن المسيِّب للعزة والصلاح؛ والصّدِّيق للصبر

والإخلاص، والحسن البصري للعمل وإظهار الحق، والليَّث بن سعد للدين والدنيا؛ والامام البخاري للحديث والتقشُّف.

وهذه رسالة جديدة عن الشاب الناشىء، والرجل البطل، الذي فتح الله على يديه مشرق الأرض، وحمل مشعل الهداية إلى قلوب الملايين، فأنارها بنور الاسلام وهدي القرآن.

فهؤلاء الأعلام هم مصابيح طريقنا إلى الخير ورضوان الله تعالى، ورسول الله ﷺ هو أسوتنا الحسنة ومرشدنا الأول.

فلنرجعِ إلى تاريخنا المجيد، وتراثنا الخالد، لتكون لنا العزَّة كما كانت لهم العزة، وليكون لنا المجد كما كان لهم المجد، ولنعلي كلمة الله تبارك وتعالى كما أعلوها. ولا يكون هذا إلا باتباع السبيل الذي سلكه رسول الله ﷺ، وسار عليه صحابته والمسلمون من بعده.

﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلّكم تتقون﴾ (١).

﴿ ولتكنْ مِنكم أمَّة يَدعُونَ إلى الخيرِ، ويَأمُرون بالمعروف، وَيَنْهونَ عن المنكرِ، وَأولئكَ هم المفلحون ﴾ (٢).

والحمد لله رب العالمين.

المحرم ١٣٨٤

لجنة المسجد

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

محمّد بن القاسم الثقفي

إن المروءَةَ والسماحــةَ والندى
لمحمــد بن القاســم بن محمد
ساس الجيوشَ لسبــع عشرَة حَجةً
يا قرب ذلك سؤدداً من مَولد

الاتجاه نحو الشرق :

كانت للاسلام في صدره الأول سياسة عليا فيما يتعلق بالتوغل في الشرق، بعد أن قوّض سعد بن أبي وقاص عرش الأكاسرة، وأطفأ نار المجوسية إلى الأبد. وكان مردُّ هذه السياسة إلى أحاديث نبوية جديرة بطول الدراسة والتفكير، منها حديث أم المؤمنين زينب في صحيح البخاري أن النبي ﷺ استيقظ من النوم مُحمرَّ الوجه وهو يقول: « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من سدِّ يأجوج ومأجوج مثل هذه... الخ » وحديث سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب في صحيح مسلم : « إن الفتنة تجيء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ ». وقد تكلم الحافظ بن حجر عن ذلك في فتح الباري (١٣ :٨٨) وهو

موضوع لا يزال إلى الآن في حاجة إلى طول التفكير فيه، وبعد النظر في مراميه. ولذلك كتب أمير المؤمنين عمر إلى القائد الحكيم الأحنف بن قيس - فيما ذكره ابن الأثير في فتح خراسان من حوادث سنة ٢٢ هـ . فأمره بأن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه، وقال له بالحرف : (وددْت لو أن بيننا وبينها بحراً من نار) وقبل ذلك في سنة ١٥ هـ أراد الأمير القائد المرشد عثمان بن أبي العاص الثقفي - وهو من شيوخ سعيد بن المسيب ونافع بن جبير ومحمد بن سيرين وقال عنه الحسن البصري : ما رأيت أفضل منه - أراد هذا الأمير الداعية وهو والٍ لعمر على البحرين وعُمان والخليج العربي أن يوجه دعاة الاسلام - من ناحيته - إلى الهند، وبالفعل أرسل أخويه، الحكم بن أبي العاص إلى بروص، والمغيرة إلى خور الديبل، فظفرا وانتصرا، وأرسل جيشاً خفيفاً إلى تانة مستكشفاً، ثم كتب إلى عمر بخطة حربية تبدأ الخلافة بالجري عليها في هذا الوجه. فلامه عمر وكتب إليه : « يا أخا ثقيف، حملتَ دوداً على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم »

وأنا لا أزعم أن موقف عمر تفسير قطعي للأحاديث التي أشرنا إليها، فعمر كان يحب التأني والتثبت، ولعل من تأنيه وتثبته التوقف في تفسير هذه الأحاديث إلى أن يستنير له طريقها، ولكنها بلا شك كان لها حساب كبير في خطة عمر وسياسته، ولذلك كان قوله فيما يتعلق بالباب وما وراء الباب، وما يتعلق بما وراء النهر وما

دون النهر : « وددت لو أن بيننا وبينها بحراً من نار ». أما أندونسيا والهند والسند والأفغان فقد أثبت التاريخ أن في الاتصال بهن وبأمثالهن خيراً كثيراً، ولله الحمد والمنة.

استكشاف المسلمين للهند :

وفي خلافة أمير المؤمنين عثمان أرسل واليه على العراق ـ وهو عبدالله بن عامر بن كريز ـ مستكشفين إلى الهند باشارة من أمير المؤمنين، وكان يرأسهم حكيم بن جبلة العبدي. فلما عادوا وجههم والي العراق إلى أمير المؤمنين عثمان في المدينة، فقال له حكيم بن جبلة وهو يذكر الهند : « يا أمير المؤمنين قد تعرَّفتها وتنحَّرتها ».

قال عثمان : فصفها لي.

قال حُكيم : ماؤها وشل، وتمرها دقل، ولصها بطل. إن قلَّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا.

فقال له عثمان : أخابرٌ أم ساجع؟

قال : بل خابر، فلم يُغزها عثمان أحداً.

وفي أواخر سنة ٣٨ وأوائل سنة ٣٩ توجه إلى ثغور الهند مستكشف آخر من بني عبد القيس أيضاً وهو الحارث بن مرة متطوعاً بإذن من أمير المؤمنين عليّ، وكان اتجاهه إلى أرض قيقان من بلاد السند عن طريق خراسان، فظفر وأصاب مغنما، وقسم في يوم واحد ألف رأس. لكن الأمر انتكس عليه بعد ذلك فقتل ومن معه بأرض قيقان إلا قليلا، وكان مقتله سنة ٤٢.

الطلائع الاولى :

وفي سنة ٤٤ وجّه معاوية بن أبي سفيان إلى تلك الجهات قوة منظمة أكثر رجالها من الأزد معقودة اللواء لزعيمهم المهلب بن أبي صفرة، فدخل أرض بنّة ـ بين كابُل والملتان ـ فشهدت تلك الأودية والجبال من بطولة رجال هذه الحملة ما يعد نموذجاً لأمثالها في الفتوح الاسلامية الأولى، وفيها يقول أحد المجاهدين الذين ساهموا في وقائعها :

ألـم تر أن الأزد ليلـة بيّتوا
ببنَّـة كانـوا خـير جيش المهلب

والظاهر أن حركات الإسلام العسكرية احتاجت بعد ذلك إلى المهلب في مواطن أخرى، فارسل معاوية إلى ثغور الهند عبدالله بن سوَّار العبدي، وهو من سراة الدولة الاموية وكرمائها وشجعانها، فكان معسكره يتنقل في البلاد، وقد أعدَّ

للقـى العـدا بيض السيو
ف وللنـدى حمـر النعم

فقال فيه أحد شعراء معسكره :

وابـن سوَّار على عداته
موقـد النـار وقتـال السغب

[والسغب : الجوع]. فكانت الآفاق التـي ينزلهـا ابـن سوار بجيشه لا تعرف الجوع ولا الجبن ولا التردد في الحق والخير . وقد منع ابن سوار أن توقد في آفاقه نار للطعام غير ناره، فكان في مسيره

مبشراً بهداية الإسلام، وكرم أخلاق العرب، ومحققاً للمثل العليا في الحركات العسكرية النبيلة، ولم تطل مدة هذا المحارب للجوع وللباطل، فقد قتله بعض الترك غيلة، وكانت منيته في تلك الديار، رحمه الله ورضي عنه.

ولما بلغ معاوية خبرُ اغتيال ابن سوار، أمر زياداً بأن يسيّر جيشاً من العراق إلى الهند، فبعث بقوة على رأسها سنان بن مسلمة بن المحبق الهذلي، وكان فاضلاً متألهاً، ففتح مكران عنوة ومصّرها وأقام الشرع وضبط البلاد. ثم تولى هذه الجهة بعده راشد بن عمرو الجديدي من الأزد. ثم جد الجد في ثغور الهند فأرسل زياد ابنه عباداً وجعل طريقه إلى الهند من « سناروذ » إلى « كهز » حتى « روذبار » من أرض سجستان، ومنها دخل الهند فنزل « كش » وأتى « قندهار » ففتحها، وقد سجل الشاعر العظيم يزيد ابن مفرغ بطولة هذا الجيش بقوله :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم ... ومن سراهنك قتلى لاهم قبروا

بقندهار، ومن تكتب منيته ... بقندهار يرجّمْ دونه الخبر

وأردف زياد بعد ابنه عباد قوة بقيادة أبي الأشعث المنذر بن الجارود العبدي، ففتح « قُصدار » ومات بها، فقال أحد شعراء جيشه :

حل بقُصدار فأضحى بها
في القبر لم يقفل مع القافلين
لله « قصدار » وأعنابها
أيّ فتى دنيا أجنَّت ودين

وتولى القيادة والولاية بعده على فتوح الهند أيام عبيد الله بن زياد حري بن حري الباهلي، فاتسع في الفتوح.

ومن تلك الأيام رسخ الإسلام في البوقان، وافتخر أحد مجاهدي جيش ابن حري بمواقفه في الدفاع عن الحق فقال :

لولا طعانيَ بالبوقان ما رجعت
منه سرايا ابن حري بأسلاب

الحجاج بن يوسف وجهاده في الهند :

ولما صار أمر العراق والمشرق إلى رجل الدولة الحجاج ابن يوسف الثقفي، كان ميدان الهند قد تحول من ساحة استكشاف واختبار عسكري، إلى أرضٍ استقر الإسلام ببعض زواياها، وصار له رجاء بالإزدهار فيها، فاستعمل الحجاج على هذه الجبهة العسكرية سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، وقُتل هذا في حادث فردي، فأرسل الحجاج مجاعة بن سعر السعدي ففتح طوائف من قندابيل، وخلّد الشعرُ العربي جهاده بقول أحد المجاهدين معه :

ما من مشاهدك التي شاهدتها
إلا يزينك ذكرها مجاعا

ولكن المنية لم تمهل هذا المجاهد غير سنة واحدة، فدفن بمدينة مكران وخلف على القيادة في الهند بعده محمد بن هارون بن ذراع النمري، وكان في جزيرة الياقوت من جزائر الهند نسوة مسلمات وُلدن في تلك الجزيرة من آباء من العرب المسلمين قدموا إلى الهند تجاراً ودعاة قبل أن يصلها المجاهدون والفاتحون، فأراد ملك جزيرة الياقوت أن يتقرب إلى القائد العربي محمد بن هارون النمري وإلى أستاذه الحجاج بن يوسف، فأحضر سفينة ووضع فيها هؤلاء النسوة المسلمات وقال لمحمد بن هارون :

ـ هذه هديتي إلى أميرك الحجاج بن يوسف.

ومخرت السفينة متجهة نحو سواحل العرب، فخرج قرصان من ميد الديبل في بوارج، فأخذوا السفينة بمن فيها، فنادت امرأة منهن، وكانت تميمية من بني يربوع :

ـ يا حجاج!

وطار الخبر إلى الحجاج باستغاثتها، فأجابها من وراء البحار والجبال :

ـ يا لبيك؟

وكتب إلى الراجه داهر أمير الجهة التي وقع الاعتداء في ساحلها يسأله تخلية النسوة، فكتب إليه الراجة : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم.

فأغزى الحجاج عبيدَالله بن نبهان بلاد الديبل، فقتل فيها شهيداً. واستطال الحجاج المسافة بينه وبين الهند؛ فأمر والي عُمان

بديل بن طهفة البجلي بأن يسير بنفسه وبكل من عنده من رجال الحرب حتى يأتي الديبل ويؤدب طغاتها وعلى رأسهم الراجة داهر، وأسرع إليهم بديل بن طهفة فحطمهم بخيله وسيوف المجاهدين معه، إلا أن فرسه نفر به وهو في معمعة القتال فأطاف العدو به وقتلوه، فكان الشهيد الثاني من القادة السادة المدفونين في تلك الأرض.

أصغر قادة الجيوش سناً :

ووصل النذير إلى الحجاج بمقتل قائده فنثر كنانته بين يديه واختار منها أصغر قائد في الارض يومئذ، وهو تلميذه وابن عمه محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن عمرو بن مسعود الثقفي، وكان محمد بن القاسم هذا عندما وقع عليه اختيار الحجاج لهذه المهمة صبياً في السادسة عشرة من عمره، ولم يكن الحاج يعبث أو يهزل ساعة توسم هذا الغلام بفراسته، فالحجاج لا يعرف العبث ولا الهزل، بل كان ملتهب القلب بنداء تلك العربية من بني يربوع يوم هتفت «يا حجاج»! وزاد قلبه سخطاً وغضباً جواب الراجه داهر بأن البغاة على النسوة العربيات لصوص، وزَعْمه أنه لا يقدر عليهم. ثم تحول الحجاج نقمةً إلَهيةً على الشر وأهله لما جاءه خبر استشهاد قائديه عبيد الله بن نبهان وبديل بن طهفة، فكان اختياره لهذا القائد وهو في ميعة الصبا اختيارَ الخبير الذي يكتشف الرجولة في قلوب أصحابها من قبل أن يعرفها أصحابها في أنفسهم. وهكذا رمى الحجاج الراجه داهر

بهذه الصاعقة القاصمة لظهور المبطلين، الرحيمة بالوادعين والآمنين ووقف في دار إمارته فيما بين دجلة والفرات يترقب نجاح فراسته في فروسية ابن عمه الصغير، فكتب اليه ـ وكان بعيداً عنه في أرض إيران ـ يأمره بأن يتخير من أبطال الحاميات العربية في الأصقاع الايرانية من يقع اختياره عليهم، واختط له خطة السير أولاً إلى مدينة الري، وهي مدينة طهران الآن، وجعل رياسة أركان حربه إلى أبي الأسود جهم بن زحر الجعفي، وأمرهما إذا وصلا إلى شيراز أن يتريثا لأنه سيلحق بهما نجدات أخرى، ولم يبلغا شيراز حتى دنت منهما قوة انتخبها الحجاج من أشجع أبطال جيوش الشام، وكانت لا تزيد على ستة آلاف فارس لكنهم يظنون بأنفسهم أن فيهم القدرة على افتتاح الكرة الأرضية وبسط سيادة الاسلام على كل من فيها لو أمرهم خليفتهم بذلك. فانضم الجيش الصغير إلى ذلك القائد الطفل وحرص الحجاج على أن يجهزهم بكل ما يحتاجون اليه، حتى الخيط والابرة، وحتى الخلّ احتال الحجاج عليه فأتى بالقطن النظيف المحلوج فأمر بغمسه في الخل الحاذق وجفف في الظل حتى تبخر ماؤه وبقيت فيه مادة الخل مجففة، وعلمهم إذا احتاجوا إلى الخل أن يغمسوا القطن الجاف في الماء فيكون منه بعد تصفيته أحسن الخل وأجوده. وهكذا طارت هذه الحملة العسكرية بعددها، المستوفية لحاجتها، القوية بعزائمها التي تهد الجبال، حتى اجتاز محمد بن القاسم حدود إيران إلى الهند وانتقل من « مكران » التي كانت بيد المسلمين إلى

« قنزبور » ففتحهـا، ثم إلى « أرمـائيل » فاستـولى عليهـا، ثم وصل إلى « الديبل » التي وقع منها العدوان على نساء العـرب، فوجد الحجاجَ قد أرسل إلى سواحلهـا سفنـاً بالرجـال والسـلاح والأداة والمؤن، فخندق محمـد بن القاسـم حول الديبـل، وركز جيشُه رايات الاسلام على الرماح على طول الخندق الذي تحصن وراءه الابطال الذين لم تر الدنيا بطولة أعظم من بطولتهم. وكان ممـا بعـث به الحجـاج إلى هذا الجيش منجنيق عظيم يسمونـه (العروس) بلغ من ضخامته أن كان يحتاج إلى قوة خمسمائة رجل لقذف الصخور الضخمة منه إلى الحصـون لتحطيمهـا. وكان في مدينة الديبل (بدّ) عظيم هو صنم ذلك البلد يقوم عليه شبه منار يعلوه دقل طويل تخفق عليه راية حمراء عظيمة جداً إذا هبت عليها الريح أطافت بالمدينة. وكان الحجاج قد تلقى من محمد بن القاسم وصف ذلك من اليوم الاول الذي وصل فيه إلى الديبل، فكتب اليه الحجاج رسالة يأمـره فيها بأن يقصر من المنجنيق قائمـة وأن يوجهه إلى المشرق، ويقصد برميه الدقل القائم على الصنم، ولما فعل المجاهدون ما أشار الحجاج به عليهم في رسالته، تكسر الدقل من القذيفة الأولى، وسقطـت راية (البـدّ) ذليلـة ممزقـة، فحنـق الوثنيون على الجيش المحاصر، وخرجوا لقتاله، وكان ذلك ما أراده الحجاج من توجيه قذيفة المنجنيق إلى منارة (البدّ) والراية القائمة عليه، فلقيهـم محمـد بن القاسـم بأبطالـه، وأخذهـم بالسيوف فمزقهم الله كل ممزق. وفيما كان الوثنيون في رعب الهزيمة، كان

المجاهدون يتسلقون سلاليم نصبوها على الأسوار، فدخلوا المدينة عنوة، وبقي الدقل المسكور على منارة البدِّ في مدينة الديبل من أيام الحجاج بن يوسف إلى خلافة المعتصم بالله، ثم هدمت المنارة وما تحتها زمن المعتصم واتخذ مكانها سجن للبلد.

وانتقل محمد بن القاسم من « الديبل » إلى مدينة « بيرون » التي نبغ منها أيام الامير محمود بن سُبكتكين حكيم الاسلام أبو الريحان البيروني أعظم البشر عقلا فيما يعتقده المستشرق الالماني سخاو، فكان من أثر دخول « بيرون » في ملة الاسلام على يد محمد بن القاسم الثقفي افتخار الحكيم الأعظم أبي الريحان البيروني بعربيته وإسلامه، إلى درجة أنه كان يفضل أن يُهجى بالعربية على أن يُمدح بالفارسية.

مقتل الراجه داهر :

وجعل محمد بن القاسم لا يمر بمدينة إلا فتحها، حتى عبر نهراً دون « مهران » فأيقن داهر من استسلام البلاد لهذا القائد الفتى وأن المُلك قد خرج من يده إن لم يجرب حظه للمرة الأخيرة فيجمع جميع قواه ويلقى المسلمين بوقعة فاصلة، وكانت تلك الوقعة، فحضرها وهو على فيل وحوله الفيلة، فاقتتل الفريقان قتالا لم يسمع بمثله على ما يقول أبو الحسن البلاذري - وهو من أقدم مؤرخي الفتوح وأدقهم وأصدقهم - فلما كان المساء حتى بات السيف العربي في أحشاء الطاغية داهر، ويقول المدائني إن قاتله

من بني كلاب، وسماه ابن دريد في كتاب الاشتقاق (ص ٢٣٦) القشعم ابن ثعلبة الطائي، ونقل البلاذري في فتوح البلدان (ص ٤٢٦) عن ابن الكلبي أنه القاسم بن ثعلبة بن عبدالله بن حصن الطائي، وهو القائل :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا
ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير معرّد
حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً
متعفر الخدين غير موسد

ويروي البلاذري عن منصور بن حاتم أن الهنود صوروا داهر وقاتله، وصورتهما كانت في بروص. وأنهم صوروا بديل بن طهفة وصورته كانت في قند، وقبره بالديبل.

فلما تم لمحمد بن القاسم قتل داهر غلب على بلاد السند، وانضمت السند إلى الوطن الإسلامي من ذلك اليوم، ولذلك كانت نسبة الاسلام في أهلها الآن أعظم من نسبته في أي قطر من أقطار « دولة باكستان » التي كتبتُ هذا الفصل احتفالاً بمرور الاسبوع الأول على قيامها ابتهاجاً بهذا الحادث العظيم في تاريخ الاسلام الحديث.

الاستيلاء على ملتان :

ومضى محمد بن القاسم يطهِّر أرض السند من سلطان الكفر

والشرك، إلى أن قطع نهر « بياس » إلى « الملتان » فقاتله أهلها قتالاً شديداً، وأبلى في ذلك زائدة بن عمير الطائي، وانهزم المشركون فتحصنوا في المدينة، ونفد زاد محمد بن القاسم وجيشه فأكلوا الحمير، واستعانوا بالله فهداهم إلى مدخل الماء إلى المدينة، فقطعوه عنها فاضطر المشركون الذين فيها إلى الاستسلام، وكان فيها (بدّ) تُهدى اليه الأموال وتنذر له النذور ويحج إليه أهل السند، فجمع محمد بن القاسم ما هناك من الذهب والأموال وجعل يودعها في بيت مساحته عشرة أذرع في ثماني أذرع، وكان جباة الأموال يلقونها فيه من فوهة في سطحه، فسميت الملتان (فرج بيت الذهب) وأحصوا ذلك المال فبلغ مائة وعشرين مليون درهم، ولما أرسل به إلى الحجاج حسب ما أنفقه على حملة محمد بن القاسم فبلغ ستين مليوناً، فقال الحجاج « شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف الف درهم ورأس داهر ».

عاقبة محمد بن القاسم :

إذا كان من حسنات الحجاج أنه رجل دولة من الطراز الاول إلى حد أن الخلفاء الاولين في دولة بني العباس كانوا يحسدون عليه خلفاء بني أمية من صميم قلوبهم، فقد كانت له سيئات لا يجوز لغير عمر بن عبد العزيز وأمثاله أن يشهِّروا بها، لأن الساسة والمؤرخين ـ من غير طراز عمر بن عبد العزيز ـ لو كانوا في مركز الحجاج لا يبعد أن يصدر عنهم الكثير من سيئاته، ولا يستطيعون شيئاً من حسناته. وكان من حسنات الحجاج اكتشافه رجولة

الرجال، وتعهده الرجولة فيهم بالتربية والتشجيع، فكانت الدولة في زمنه غنية بالرجال الذين تتمنى مثلهم أعظم دول الأرض في كل عصر. إلا أن من سيئاته الاسراف فيما يحسن الاعتدال فيه. من ذلك تدخله في شؤون لا يسامحه التاريخ بالتعرض لها، كاقحامه نفسه في أمر ولاية سليمان بن عبد الملك العهد بعد أخيه الوليد، فكتب إلى قائدنا البطل الفتى محمد بن القاسم أن يخلع سليمان باسم الجيش الذي تحت قيادته، وما كان لمحمد بن القاسم أن يخالف الحجاج، وهو أميره من جهة، ورأس أسرته من جهة، فضلاً عن كونه مديناً له بوجوده السياسي والعسكري في الدولة.
وبعد أن أعلن محمد بن القاسم خلع سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد مضت الأيام وحلت سنة ٩٦ فتبوأ سليمان الخلافة، ومن بديهيات الامور معاقبة كل من له يد في الخلع، فصدر أمر الخلافة من دمشق بولاية يزيد بن أبي كبشة السكسكي على السند، وحمل هذا الفتى البطل ـ محمد بن القاسم ـ مقيداً مع معاوية بن المهلب، فقال محمد متمثلاً.

أضاعوني وأي فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

قال البلاذري: فبكى أهل الهند على محمد بن القاسم، وصوروه بالكيرج ـ الجص ـ ولما وصل من السند إلى العراق كان الأمير على خراجها صالح بن عبد الرحمن، وهو من موالي تميم، وكان الحجاج قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن، لأن آدم كان يرى رأي

الخوارج، فانتهز صالح التهمة الموجهة من الخلافة إلى محمد بن القاسم فحبسه في واسط وأساء إليه فقال محمد :

ولئن ثويت بواسط وبأرضها
رهنَ الحديدِ مكبلاً مغلولاً
فلربَّ فتية فارس قد رعتها
ولرب قرن قد تركت قتيلاً

وتغنّى مرة وهو يتقلب في محبسه :

لو كنت أجمعت الفرار لوطئت
إناث أعدت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا
ولا كان من عكّ عليّ أمير
ولا كنت للعبد المزوني تابعاً
فيالك دهر بالكرام عثور!

وأصدق ما وصف به محمد بن القاسم الثقفي قول حمزة بن بيض أحد شعراء بَني حنيفة :

إن المروءة والسماحة والندى
لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة
يا قرب ذلك سؤدداً من مولد

وقول غيره من معاصريه :

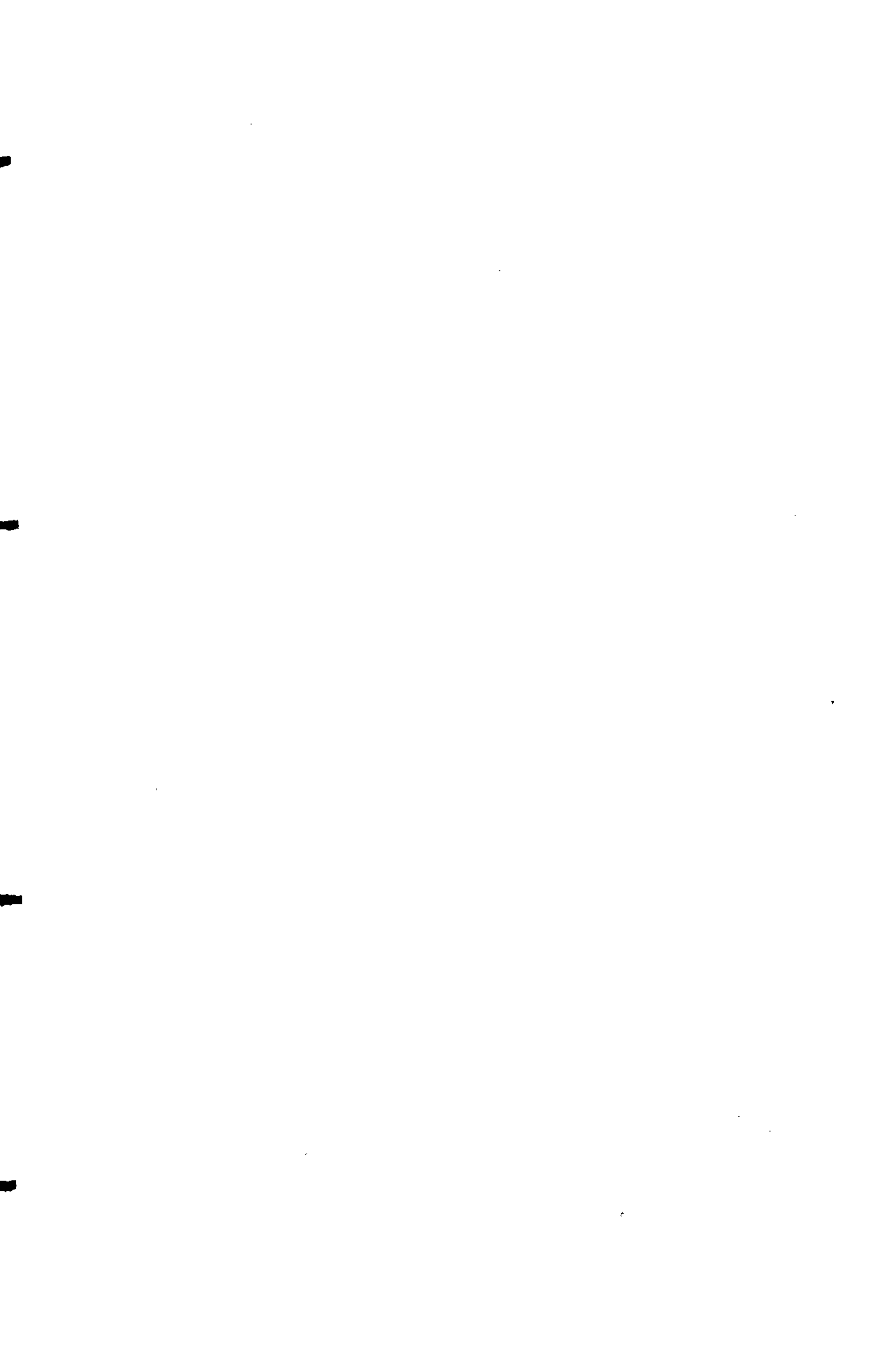
ساس الرجـــال لسبـــع عشرة حجة
ولداتـــه عن ذاك في أشغال

ذكرى محمد بن القاسم :

وبعدُ فاني إذا ذكَّرت قراء العربية بمحمد بن القاسم لا أذكرهم ببطل تسنّم ذروة البطولة وهو في ميعة الصبـا، ولكنـي أذكرهم بحامل رسالة الاسلام إلى الهند، حتى كان منهم للاسلام ربع عدد أهله في هذا العصر أو خمسهم على أقل تقدير. وأجمل ما نذكر به هذا البطل عندما توّج الله الدعوة التي حملها إلى الهند باقامة دولة للاسلام في الهند لعلهـا - إذا أحسنـت السـير في طريق الاسـلام الصحيح - أن تكون خير دولـة عرفتهـا تلك البـلاد العريقـة في القدم. وقد عرفنا مسلمي الهند أوفياء للاسلام، ومن حسن وفائهم أن يحسنوا تأسيس دولتهم على قواعده لنخجل نحن من أنفسنـا فنعود إلى قواعد الاسلام ، ونتخذ منها أساساً لأوضاعنا ومستقبل كياننا، والله الهادي.

* * *

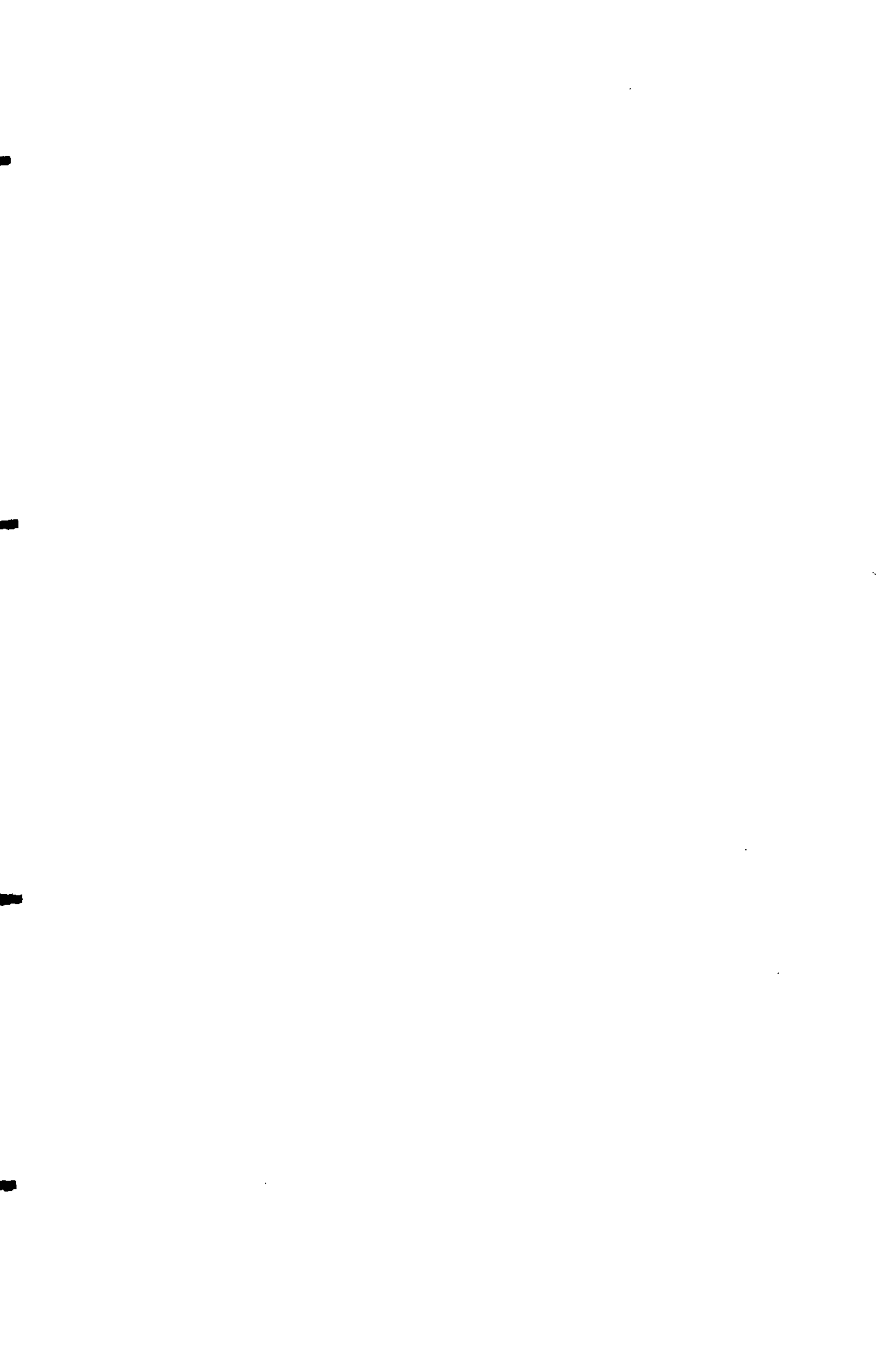
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين



عقيدة شاملة

للأستاذ
عباس محمود العقاد

جمع الأستاذ
جودت سعيد



مُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

حيرة الشباب:

كان من أعظم ما يحير الشباب - كما لا يزال الأمر كذلك - إعراض الفئة المتعلمة أو المتعالمة - على حد تعبير مالك الجزائري - عن الدين وقلة مبالاتهم لأمر الايمان، واعراضهم عن أحكامه.

ولم يكن في إمكان الشباب معرفة سبب هذا الانصراف عن الايمان لأن المعلومات التي يتلقاها الطالب في مدارسه الدنيا أو العليا لم تكن كافية لحل هذه المشكلة، وقبل أن يتمكن من معرفة ذلك يصير هو أيضاً من (المعدودين من المتعلمين) المعرضين عن الدين ولو باعتبار خاص.

ولقد ظل الشباب تراودهم هذه الحيرة مدة طويلة كما لا تزال هذه المشكلة من أعقد المشاكل - ولو لا شعورياً - عند كثير من الشباب الى يومنا هذا.

سبب الحيرة:

وسبب هذه الحيرة هو الجهل والتقليد، ولقلة المعلومات يقلد الشاب انساناً آخر يظن فيه العلم والمعرفة، ولوعلم أن هذا الذي اتخذه موضع القدوة جاهل ومقلد أيضاً وأنه ليس من المعرفة بمقام

إلا المقام الذي منحه هو إياه، لعرف مقدار الخطأ الذي يرتكبه حين يقلد جاهلا ويهمل عقله، هذا العقل المظلوم الممتهن الذي لم يعدله من الوجاهة شيء في مملكة التقليد.

بوادر زوال الحيرة:

لقد بدأ زوال الحيرة عند بعض الافراد ـ من الذين عندهم حجم كبير في التقليد ـ إذ بدؤوا يتركون التقليد ويستعملون عقولهم، فهذا التغيير الذي حدث في نفوسهم كان هو في الحقيقة غزو الفطرة ـ التي هي الاسلام ـ للنفوس وإن لم يعرف حتى عند من حدث عنده هذا التغيير، وذلك لان الناس لا يعرفون أن الاسلام هو ترك التقليد وإيقاظ الفطرة، فهذا الاتجاه الاسلامي غير المعروف أنه إسلامي هو الذي قاد بعض كبار المقلدين إلى الاسلام. . . الى الفطرة.

ومن هؤلاء المقلدين الكبار الذين تركوا التقليد للغربيين والشرقيين الكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل. . . قد يضيق ذرعاً من هذا الحديث بعض الذين لا يزالون يعتقدون بعصمة الرجال عملياً وان كانوا لا يقرون بذلك نظرياً: إننا لا نستطيع أن نستفيد من رجل يخطىء أو عنده بعض الاخطاء، لماذا؟ لأننا نريد رجلا معصوماً ليس عنده أخطاء حتى لا نبذل جهداً في قبول أفكاره؛ كما إننا لا نستطيع أن نكشف خطأ رجل نحبه. . لأن في عرفنا، لا يمكن أن يحب إلا من لا يخطى. . هذه القزامة

الفكرية تحرمنا من الاستفادة من الافكار الحية كما تكون سبباً للاحتفاظ بالافكار الخاطئة.

وفي الواقع إن هيكل لمن عرف الحقيقة، يؤلف موضوع دراسة شيقة، ولكن كيف نفهم هذا ونحن لم نعرف أفكاره فضلا عن أن نتمكن من وضعه في مرحلة من مراحل التطور الفكري.

فان هذا الكاتب كان عنده من الجرأة في اعترافاته بمراحل حياته ما يكشف لنا عن أسباب الحيرة كما سجل ذلك في مقدمة كتابه « في منزل الوحي ».

من رجال الفطرة:

وممن استقامت لديهم - إلى حد كبير - الفطرة، ولاسيما في الجانب الفكري: الكاتب الكبير عباس محمود العقاد الذي يعد من أعظم الكتاب الاسلاميين المعاصرين.

العقاد أحد أولئك الافذاذ القليلين في العالم الاسلامي المعاصر، من الكتاب الذين احتفظوا بذاتيتهم، وقل أن نجد كاتباً له من القدرة في بعث الاطمئنان إلى نفوس قرائه في الصراع الفكري القائم مثل ما للعقاد من القدرة على ذلك، إنه كان متحرراً من التبعية الفكرية فاكتسب بذلك الهيئة التي تضفيها الشجاعة الفكرية على أصحابها. وامتازت بذلك كتبه التي لا ترى فيها ما تجده في كتب غيره من الانفعال الذي يدل على عدم تمكن الكاتب من السيطرة على ناصية الموضوع وعلى التهيب الذي لا يزال يحمله بين جنباته في الوقت الذي يبلغ فيه إلى ذروة حماسه.

ويمكنك أيها الشاب المسلم أن تلتمس هذا المعنى في هذه الكتب..

(١) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه
(٢) الفلسفة القرآنية
(٣) الانسان في القرآن
(٤) الديمقراطية في الاسلام
(٥) الاسلام في القرن العشرين
(٦) التفكير فريضة إسلامية

وموضوع هذه النشرة فصل من كتابه « الاسلام في القرن العشرين » وفي الفصول الأخرى يقول:

زبدة الآراء:

إن الغربي مشغول بامر الاسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ما وراء هذه اليقظة فلا يخرجها من حسابه لحظة، وأهم ما يهمه أن يعلم كيف يقف الاسلام غداً من مجامع الأمم الغربية والشرقية وكيف يكون مسلكه إذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن هزيمة هذا وانتصار ذاك (ص ١٧٠)

طريق النجاة في الغد المجهول:

أن نعلم أن العقائد أثبت من السياسات.
وأن الأمم أثبت من الدول.
وأن الجاهل أعدى لأمته من أعدى أعدائها.



وما نُكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمار كما نكب من أبنائه الجهلاء. فمهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها ومهما تكن الدولة فالامة هي الباقية (ص ١٨٧).

أعظم المخاطر:

ومهما يكن الخطر فالجهل في كل معترك ومع كل خصم أو منازع هو أخطر الأخطار.

وإذا بقي للاسلام إيمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول. وأخطر من كل خطر الجاهل الذي يكفر القائلين بدوران الأرض ثم يزعم أنه يفتي بحكم الدين فيصدقه من يجهل الدين ويكفر بالدين (ص ١٨٠).

هذا هو العقاد وهذا هو أسلوب العقاد. لا شك أن للعقاد قراء وأن لآرائه أثراً في الوعي الاسلامي المعاصر ولكن الذي نلاحظه أن المسلمين ولاسيما الشباب لم يستفيدوا من دراسات العقاد شأن كل ثروات العالم الاسلامي المهملة ولكن عيب الشباب في تركهم هذه الثروة ليس له ما يبرره إلا ما يدين الشباب المسلم بانه لم يرتفع بعد الى المستوى الذي يليق به كحامل للايمان ومنقذ للانسان.

وعلى اعجابي بطيبة الشباب المسلم وتقديري لعاطفتهم، إلا أني لا أستطيع أن أغض عن عيبهم الكبير وهو أنهم لم يبلغوا بعد مرحلة معرفة القيمة الفكرية أو تقويم الأفكار بقيمها الصحيحة.

إن المجتمع المعتوه الذي نعيش فيه حال دون أن يطلب الشباب المسلم غذاء فكرياً حياً يحمله في الناس فخلوالناس من الفكرة الحية أقنعه بحاله، وهذا معناه أنه لم يعرف بعد مهمته ولم يستعد لها:

إن على الشباب المسلم تبعة معالجة هذا الوضع السيء الـذي نعيش فيه، ومع ذلك فهو بعيد العهد من تذوق معنى ناشئة الليل ومعنى: ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلا ﴾.

يا رب أرسل فراشك مرة أخرى ليطوف حول نورك وأحـرق متاع حب الدعة بلهيب معرفتك.

والحمد لله أولاً وآخراً.

صفر ١٣٨٤

جودة سعيد

عقيدة شاملة

يبدو الى الذهن أن الشمول الذي امتازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولا بد لاظهارها من بحث عويص في قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات، فليست هي مما يراه الناظر الوثني أو الناظر البدوي لأول وهلة قبل أن يطّلع على حقائق الديانة ويتعمق في الاطلاع.

ومن المحقق أن إدراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة في وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات، وبخاصة في شعائرها ومراسمها التي يتلاقى عليها المؤمنون في بيئاتهم الاجتماعية.

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المسلم في معيشته وعبادته، ويكفي أن يُرى المسلم مستقلاً بعبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة في دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه في ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكراً للكاهن ووقفاً على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة.

لقد ظهر الاسلام في إبان الكهانة والمراسم، وواجه أناساً من

الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود إلى حالة كحالة الوثنية في تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن في كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة، ولاح للناس في القرن السابع للميلاد خاصة أن « المتدّين » قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه، فالدين كله في المعبد عند الكاهن، والمتدينون جميعاً قطع متفرقة لا تستقل يوماً بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب إلى المعبد لتتزود منه شيئاً تتم به عقيدتها ولا تستغني عنه مدى الحياة.

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة، سواء في العبادة الوثنية أو في عبادة أهل الكتاب الى ما بعد القرن السابع بأجيال متطاولة.

فلما ظهر المسلم في تلك الآونة ظهر الشمول في عقيدته من نظرة واحدة؛ ظهر أنه وحدة كاملة في أمر دينه يصلي حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد الكهان، وهو مع الله في كل مكان، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » [1] ﴾.

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليستتم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه، ولكنه يذهب إليه كما يذهب الألوف من إخوانه. ويشتركون جميعاً في شعائره على سنة المساواة، بغير حاجة الى الكهانة والكهان، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين

---

(١) البقرة ١١٥.

للكعبة خداماً لها وله، يدلّونه حين يطلب منهم الدلالة، ويتركهم إن شاء فلا سبيل لأحد منهم عليه.

فاذا توسع قليلاً في العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يَفرض عليه زيارة قبر الرسول ﷺ ، وأن هذه الزيارة ليست من مناسك الدين، وأنها تحية منه يؤديها مِن عنده غير ملزم، كما يؤدي التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه.

وإذا توسع قليلا في مكان ذلك الرسول من الدين قرأ في القرآن الكريم: ﴿ قُل إنَّما أنَا بَشَرٌ مِثْلُكمْ ﴾ [1].

وقرأ فيه: ﴿ فإنْ أعرَضُوا فَما أرسلناك عليهِم حَفيظاً، إنْ عَلَيْكَ إلا البلاغ [2] ﴾. وقرأ فيه:

﴿ قُلْ أطِيعُوا اللهَ وأطيعوا الرَّسُولَ، فإنْ تَولوْا فإنَّما عَلَيهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيكُم ما حُمِّلْتُم، وإنْ تُطِيعُوهُ تَهتَدُوا، وما عَلى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاغُ المبين [3] ﴾.

وقرأ فيه: ﴿ ومَا أنْتَ عَلَيْهم بجبَّار [4] ﴾

وقرأ فيه: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهمْ بمُصيْطِر. إلاَّ [5] ﴾.

وقرأ فيه: ﴿ ومَا أرْسَلْنَاكَ إلاّ كافَّةً لِلنَّاسِ بَشيراً ونذيراً [6] ﴾.

---

(١) الكهف ١١٠.

(٢) الشورى ٤٨.

(٣) النور ٥٤.

(٤) ق ٤٥.

(٥) الغاشية ٢٢.

(٦) سبأ ٢٨.

وقرأ فيه آيات لا تخرج في وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات.

* * *

مَر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجاً في عقيدة المسلمين.

مثل هذا لا يحصل في أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها [1]، فما من مسلم يذهب إلى الهيكل ليقول لكاهنه خذ دينك إليك فإنني لا أومن به لأنني لا أومن بك ولا أرى في سيرتك مصدقاً لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه.

ـ كلا. ما من رجل دين يبدو للمسلم أنه صاحب الدين وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به لأنه ألّه ذلك الرجل الذي يتوسط بينه وبينه أو يعطيه من نعمته قواماً لروحه.

﴿ والَّذينَ تدعُونَ مِنْ دُونهِ ما يملِكُون مِنْ قِطْمير. إنْ تَدعُوهُم لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلو سَمِعوا ما استجابوا لَكُم ويومَ القِيامةِ يَكْفُرُونَ بِشرككُم ولا يُنبِّئُكَ مِثْلُ خبير. يا أيُّها النَّاسُ أنْتُم الفُقراءُ إلى الله، واللهُ هُوَ الغنيُّ الحمِيد [2] ﴾.

نعم ـ! كلهم فقراء إلى الله، وكلهم لا فضل لواحد منهم على

---

(١) ليس في الإسلام كهنة أو رجال دين.

(٢) فاطر ١٣ ـ ١٥.

سائرهم إلا بالتقوى، وكلهم في المسجد سواء. فإن لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء.

إن عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره، ومن كان إماماً له في مسجده فلن ترتفع به الإمامة مقاماً فوق مقام النبي ﷺ صاحب الرسالة: النبي الذي يبشر وينذر، ولا يتجبر ولا يسيطر، ويبلّغ قومه ما حمّل وعليهم ما حمّلوا ﴿وما على الرَّسول إلاّ البَلاغُ المبين [١]﴾.

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذي لا يعرف لاحد حقاً فيه أعظم من حقّه، أو حصة فيه أكبر من حصته، أو مكاناً يأوي إليه، ولا يكون الاسلام في غيره.

كذلك لا ينقسم ا لمسلم قسمين بين الدنيا والآخرة، أو بين الجسد والروح، ولا يعاني هذا الفصام الذي يشق على النفس احتماله ويحفزها في الواقع إلى طلب العقيدة ولا يكون هو في ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام.

﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخرَةَ ولا تَنسَ نصيبَكَ مِنَ الدُّنيا [٢]﴾.

﴿وتوكَّلْ على اللهِ وكفى باللهِ وكيلاً. ما جَعلَ اللهُ لرَجُلٍ مِن قلبين في جَوفِه [٣]﴾.

---

(١) النور ٥٤.

(٢) القصص ٧٧.

(٣) الاحزاب ٣ و٤.

فاذا كانت العقيدة التي تباعد المسافة بين الروح والجسد تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل فالعقيدة التي توحد الانسان وتجعله كلاً مستقلا بدنياه وآخرته شفاء له من ذلك الفصام الذي لا تستريح اليه السريرة إلا حين تضطر إلى الهرب من عمل الانسان الكامل في حياته، وحافز له إلى الخلاص من القهر كلما غُلب على أمره ووقع في قبضة سلطان غير سلطان ربه ودينه.

ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر، لأن الأمر في الاسلام كله لله : ﴿بَلْ للهِ الأمرُ جميعاً﴾ [1]. . ﴿ولله المَشرقُ والمغرب﴾ [2]. . ﴿ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهما إنْ كنتم تعقِلون﴾ [3].

وإنما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التي لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لأمر الله وهذا التطويع هو الذي أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل في صمود الأمم الاسلامية لسطوة الاستعمار وإيمانها الراسخ بأنها دولة دائلة، وحالة لا بُدَّ لها من تحويل.

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره، وأبت على المرأة أن تعطي بدنها في الزواج وتنأى عنه بروحها وسريرتها، وأبت على الانسان جملة أن يستريح إلى

---

(1) الرعد ٣١ .

(2) البقرة ١١٥.

(3) الشعراء ٢٨ .

الفصام الوجداني، ويحسبه حلاً لمشكلة الحكم والطاعة قابلاً للدوام.

إن هذا الشأن العظيم ـ شأن العقيدة الشاملة التي تجعل المسلم « وحدة كاملة » ـ لا يتجلى واضحاً قوياً كما يتجلى من عمل الفرد في نشر العقيدة الاسلامية. فقد أسلم عشرات الملايين في الصحارى الافريقية على يدي تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد في خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة، فجملة من أسلموا في البلاد التي انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليوناً بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الابيض والاحمر، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة، فهم فوق المائتين من الملايين؛ أوهم كل من أسلم في الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى افريقية وشواطئها إلا القليل الذي لا يزيد في بداءته على عشرات الألوف.

وينبغي أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وإنكار حقوق الروح. فان الاعتراف بحقوق الجسد لا يستلزم إنكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التي اشتهرت باسم التصوف في اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » في اللغات الغربية Mysticim . . .

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد، كما لا يوصف

بالشمول دين ينكر الروح. وقد اشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر والباطن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام، وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة ناطقة وما لم تكن له حياة: ﴿وانْ مِنْ شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحَمدِهِ ولكن لا تفقهونَ تسبيحَهُم﴾ [1].

وأشار إلى هذه الأشياء بضمير العقلاء، وعلِّم منه المسلمون أن الله أقرب اليهم من حبل الوريد وأنه نور السموات والأرض وأنه ﴿هو الأوَّلُ والآخِرُ والظاهِرُ والباطِنُ وهو بِكل شيءٍ عليم﴾ [2].

وحسْبُ المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل ما يستباح في عقائد التوحيد، ولعله لم يوجد في أهل دين من الأديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا في العقائد الصوفية فان إنكار الجسد في البرهمية أو البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التي يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه... وحسْبُ المرء أن يرضي مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام.

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو

---

(١) الاسراء ٤٤.

(٢) الحديد ٣.

الوجدان، وفي حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلى الحقيقة، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الايمان.

﴿ قلْ إنما أعظكُم بواحدةٍ أن تَقومُوا لله مَثنى وفُرادى ثم تتَفكروا [1] ﴾ . . .

﴿ كذلك يُبيِّن الله لكم الآياتِ لعلكم تتَفكَّرون [2] ﴾ وما كان الشمول في العقيدة ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً بغير بخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات.

وفي مشكلة المشكلات التي تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية، فمن عقائد دينه:

﴿ إنّ أجَلَ اللهِ إذا جاءَ لا يؤخَّر [3] ﴾ . . .

﴿ وَما يعمرُ مِن معَمّرٍ ولا يُنقَصُ من عُمرِهِ إلا في كتابٍ [4] ﴾ . . .

﴿ وَما كانَ لِنفسٍ أن تموتَ إلا بإذنِ اللهِ [5] ﴾ . . .

﴿ وَتوَكلْ على اللهِ وَكفَى باللهِ وَكيلاً [6] ﴾ . . .

---

(١) سبأ ٤٦ .

(٢) البقرة ٢١٩ .

(٣) نوح ٤ .

(٤) فاطر ١١.

(٥) آل عمران ١٤٥.

(٦) الاحزاب ٣ و ٤٨.

ومن عقائد دينه أيضاً:

﴿ إنَّ اللهَ لا يُغيرُ ما بِقَومٍ حَتى يُغيرِّوا ما بأنفُسهم [1] ﴾.

﴿ وَمـا كان رَبُّـكَ لِيُهْلكَ القُـرى بِظلـمٍ وَأهْلُهـا مُصلِحون [2] ﴾...

﴿ وَما أصابَـكم مِنْ مُصيبَـةٍ فَبِما كَسبَـت أيديكم ويَعفـوا عَن كثير [3] ﴾.

وليس في الاسلام أن الخطيئة موروثة في الانسان قبل ولادته، ولا أنه يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره. وقد قيل إن الايمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين، وقيل على نقيض ذلك أنه كان حافزهم الأول في صدر الإسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة.

وحقيقة الأمر أن المسلم الذي يترك العمل بحجة الإتكال على الله يخالف الله ورسوله، لأنه مأمور بأن يعمل في آيات الكتـاب وأحاديث رسول الله ﷺ :

﴿ وَقُـل اعملـوا فَسَـيرى اللهُ عمَلـكُمْ وَرَسولُـهُ والمُؤمنون [4] ﴾...

بل حقيقة الأمر أن خَلاصه كله موقوف عليه، وأن إيمانه بحريته

---

(1) الرعد ١١.

(2) هود ١١٨.

(3) الشورى ٣٠.

(4) التوبة ١٠٦.

وتدبيره لا يقتضي بداهة أن الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير.

وأصدق ما يقال في عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوي وعذر للضعيف، وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولا يقدر عليه، وذلك ديدن الانسان في كل باعث وفي كل تعلة كما أوضحنا في الفارق بين أبي الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري وهما يقولان بقول واحد في عبث الجهد وعبث الحياة :

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى

ثم يتخذ من ذلك باعثاً للجهاد والكفاح :

غير أن الفتى يلاقي المنايا
كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا

والمعري يقول : إن التعب عبث لأنه لا يؤدي بعده إلى راحة في الحياة، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة إن عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين ويقال تارة أخرى أنها ضرتهم وأوكلتهم إلى التواكل والجمود. وصواب القول أنهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير، وتلك خديعة الطبع الضعيف.

وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم

الإنسانية جميعاً كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير.

فليس الإسلام دين أمّة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة، وليس هو للسّادة المسلّطين دون الضعفاء المسخّرين، ولا هو للضعفاء المسخّرين دون السّادة المسلّطين، ولكنّه رسالة تشمل بني الانسان من كل جنس وملة وقبيل:

﴿ وَما أرْسَلْناكَ إلاَّ كافَّةً للنَّاسِ بَشيراً ونذيراً [1] ﴾.

﴿ قلْ يا أيهُّا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ الله إليكم جميعاً. الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّموات والأرْضِ [2] ﴾...

﴿ قُولُوا آمَنَّا بالله وما أنْزِلَ إلَيْنا وَمَا أنْزِل إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسى وعيسى وما أوتيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبهِّم لا نُفرِّقُ بَيْنَ أُحَدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمون[3] ﴾

﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ هَادُوا والَّنصارى والصَّابئين مَنْ آمَنَ باللهِ واليوم الآخرِ وَعمِلَ صَالحاً فَلَهُم أجْرُهم عِنْدَ رَبهِّم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحْزَنُون [4] ﴾...

فهذه عقيدةٌ إنسانيةٌ شاملةٌ لا تخصُّ ـ بنعمة الله ـ أمةً من الأمم

---

(١) سبأ ٢٨.

(٢) الأعراف ١٥٧.

(٣) البقرة ١٣٦.

(٤) البقرة ٦٣.

لأنها من سلالةٍ مختارةٍ دون سائر السلالات لفضيلةٍ غير فضيلة العمل والصلاح:

﴿ يا أيُّها النَّاس إنَّا خَلقْناكم من ذَكرٍ وأنثى وَجعلناكم شُعوباً وقَبائِل لِتَعارفوا إنَّ أكرمكم عند اللهِ أتقاكُم إنَّ اللهَ عليمٌ خبير [1] ﴾.

وفي أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام انه « لا فضْل لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لقرشيٍّ على حبشيٍّ إلا بالتقوى ».

وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالأخلاق:

﴿ يَرفَع اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكم والَّذينَ أوتوا العِلْم دَرَجات [2] ﴾.

﴿ لا يَستوي القاعِدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرَّر والمجاهدونَ في سبيل الله بأموالهم وأنفُسهم [3] ﴾.

﴿ والله فضَّل بعضَكم على بعض في الرِّزق [4] ﴾.

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [5] ﴾.

* * *

---

(١) الحجرات ١٣.

(٢) المجادلة ١١.

(٣) النساء ٩٥.

(٤) النحل ٧١.

(٥) الزمر ٩.

وإذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لأن الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها، ولكنه يذكره ليقول للضعيف إنه أهلٌ لمعرفة الله إذا جاهد وصبر وأنف أن يسخر لبّه وقلبه للمستكبرين، وإلا فإنه لمن المجرمين.

﴿ يَقول الذين استُضعِفوا للذين استَكبروا لولا أنتم لكنَّا مؤمنين. قال الذين اسْتَكبروا للذين استُضعفوا أنحنُ صَدَدْناكُم عَن الهُدى بعد إذ جاءَكم؟ بَل كُنتم مجرِمين [1]﴾.

* * *

﴿ ونُريد أن نمنّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلكم أئمةً ونجعلهم الوارثين. ونمكِّن لهم في الارض ونُريَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون [2] ﴾.

* * *

وما من ضعيف هو ضعيف إذا صبر على البلاء، فإذا عرف الصبر عليه فإنه لأقوى من العصبة الأشداء.

﴿ الآن خفَّف اللهُ عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفاً، فإن يكن مِنكم مائةٌ صابرةٌ يغلبوا مائتين، وإن يكن منكُم ألفٌ يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين [3]﴾.

(١) سبأ ٣١ و٣٢.
(٢) القصص ٥ و٧.
(٣) الانفال ٦٦.

فما كان الإله الذي يدين به المسلم إله ضعفاء أو إله أقوياء، ولكنه إله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه، جزاؤه أنه يكون مع الله، والله مع الصابرين.

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين.

وهذه العقيدة الشاملة هي التي أفردت الاسلام بمزية لم تعهد في دين آخر من الأديان الكتابية، فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان، لم يسجل لنا قط تحولاً اجتماعياً إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضى والاقتناع، وإذا كان المتحولون إلى المسيحية أو إلى اليهودية قبلها في أول نشأتها أمماً وثنية لا تدين بكتاب، ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شيء، ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة [١] أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين كتابي غير الاسلام. وإنما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية، فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفارس، وهي أمم عريقة في الحضارة كانت قبل التحول إلى الاسلام تؤمن بكتابها القديم، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية، كما تحول إليه أناس من أهل النوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتي سنة، ورغَّبهم جميعاً فيه ذلك الشمول الذي يجمع النفس والضمير

---

(١) أمثال فارس والروم.

ويعم بني الانسان على تعدد الأقوام والأوطان ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع، وعقائد الأخلاق، وآداب الاجتماع.

وإبرز هذه المزية ـ مزية العقيدة الاسلامية التي أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود ـ هو الذي نستعين به على النظر في مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين، ونريد بهما حالة القوي الغالب وحالة الضعيف الذي لم يسلبه الضعف قوة الصمود للأقوياء إلى أن يحين الحين ويتبدل من حالتي الغالب والمغلوب حالته التي يرجوها لغده المأمول.

ولئن كانت حالة الصمود حُسنى الحالتين في مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانية في جملتها وللعالم الانساني في جملته، ليكونن المصير في الغد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول.

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

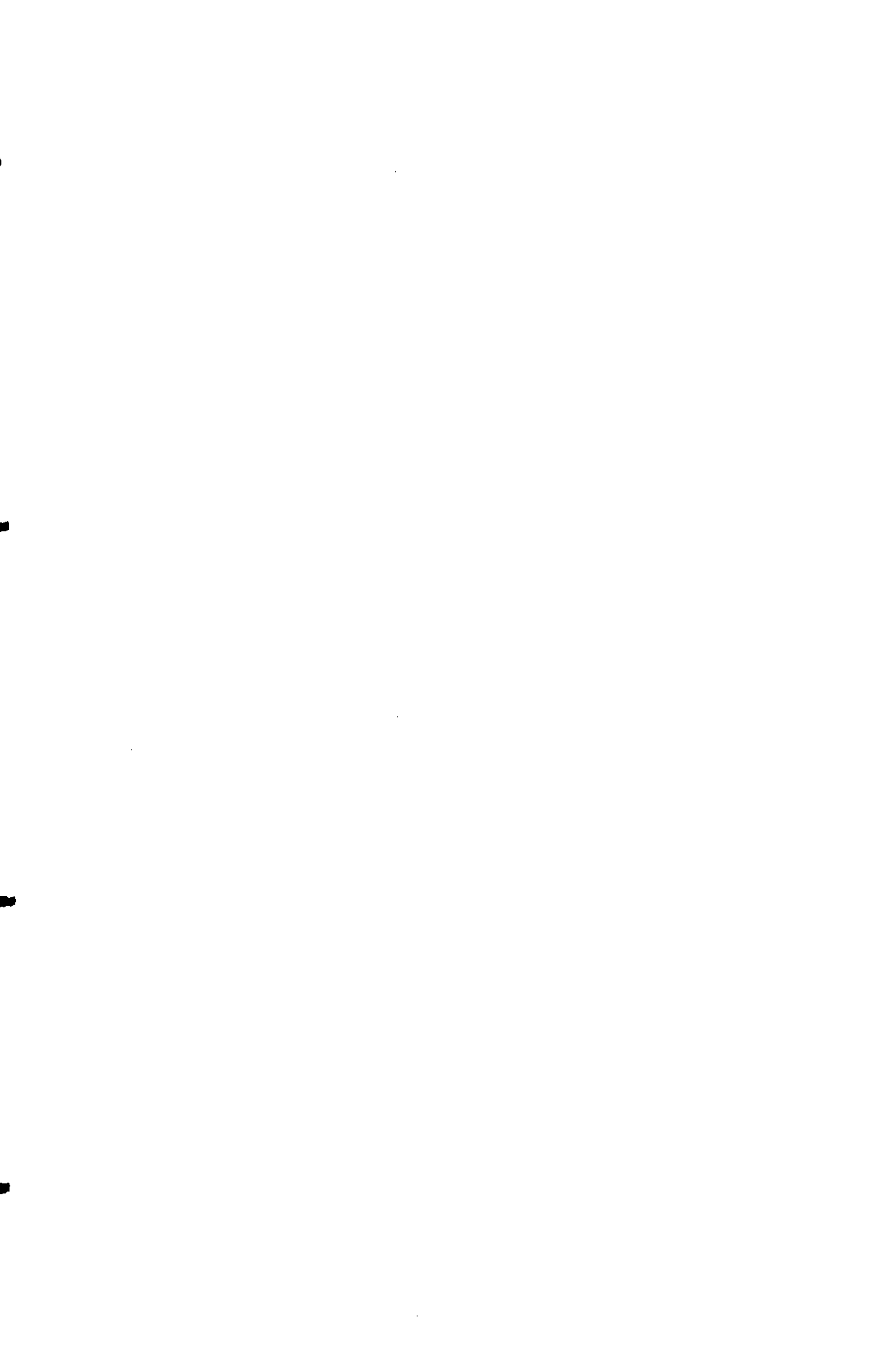
في نادي الكملة

غرفة

محمد بن مسلمة الأوسي

للأستاذ

محب الدين الخطيب



بسم الله الرحمن الرحيم

في نادي الكملة

غرفة

محمد بن مسلمة الأوسي

أماني الطفولة وأحلامها:

للطفولة أماني وأحلام، لو عُني أصحابها بتدوينها لكان في بعضها ما يحفز الانسانية للتقدم نحو الخير بخفة الأطفال وسذاجتهم المحببة. وقد يراجع الرجل المسنُّ ذكريات طفولته فيستعرض منها ما كان يتمنى أن يحققه لو استقبل من أمره ما استدبر، ثم يقول في نفسه: ولماذا لا ألقي تلك البذور الآن في حقول الطفولة الخصبة بمروجها، اليانعة بأثمارها، على أمل أن ينبت فيها غداً ما عجزنا عن استنباته في الأمس؟.

وعلى هذه النية أعرض الأفكار الصبيانية التالية على أنظار فتيان المسلمين من قرائي:

نادي الكملة

في يوم أبلج مفضَّض من شتاء دمشق - قبل بضع وخمسين سنة -

كان طلبة المدرسة الثانوية الأميرية [1] يتمتعون في فسحة الظهر بالثلوج وهي تتطاير بين السماء والارض كالقطن المندوف والعهن المنفوش، فيجمعون منها أكَراً يتراشقون بها، ويتصارعون على بساطها الأبيض الناصع الذي يملأ الساحة الكبرى فيتمرّغون فيه؛ إلا أربعة منهم كانوا فيما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من أعمارهم جالسين حول موقد الفصل ـ وكان يتلظّى بالحطب الملتهب ـ فيتذاكرون ما يودُّون تحقيقه من أمانيهم. ثم أجمع رأيهم على أن ينشئوا في المستقبل نادياً يسمونه (نادي الكملة) يكون مشيداً من بضع طبقات في كل طبقة عشرات من الغرف المتسعة. أما الطابق الأرضي فينتقى له من كبار تلاميذ المدارس الابتدائية وصغار تلاميذ المدارس الثانوية أهل القابلية للخير ممن يغلب عليهم الصدق والجد ومحبة الحق فينضم النظراء إلى نظرائهم، ويلتحق المتشابهون بأشباههم، حتى تكون منهم حلقات تأوي كل حلقة منها إلى غرفة من غرف الطابق الارضي في نادي الكملة. وكلما استوثق القائمون على النادي من تمكُّن خليقة الصدق في أفراد حلقة من حلقات الطابق الأرضي ارتقوا باعضائها إلى الغرفة الأولى من الطابق الثاني، وقد كتب على بابها هاتان الكلمتان: (أهل الصدق). وفي هذه يتمرن أعضاؤها على « الاعتدال » و« الرفق » ويثقفون بيانهم بما في القرآن الإلهي والحديث النبوي

---

(١) وكانت تسمى في طفولتنا باسم مكتب عنبر.

والأمثال البليغة وأقوال الحكماء من جوامع الكلم في مزايا الاعتدال، وأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، حتى يصبح الاعتدال والرفق سليقة لهم، وخلقاً طبيعياً فيهم، وحتى يكون كل ما قيل فيهما من أهم محفوظاتهم. وحينئذ ينقلون إلى (غرفة أهل الاعتدال والرفق)، وفيها يتمرّنون على « الانصاف » ثم « الإيثار » ويثقفون ألسنتهم وعقولهم بكل ما قيل فيهما حتى إذا حذقوه عملاً وعلماً، انتقلوا إلى (غرفة الانصاف والإيثار) فيتمرنون فيها على خلق التضحية: التضحية بالنفائس، وهو الكرم؛ والتضحية بالنفوس، وهو الجهاد؛ والسخاء بالمعارف والتجاريب، وهو التعليم والتهذيب لوجه الله تعالى وبلا أجر يشوّهون به جمالها [1]. ثم ينتقلون إلى (غرفة القناعة والاقتصاد) فيتعلمون فيها كيف يكون زهد الأغنياء وتواضع الملوك وبلوغ معارج العظمة الأدبية باحتقار الأنانيات والمتع المادية والشهوات الزائلة. ثم يصيرون إلى (غرفة الحياء) فغرفة (التعاون على الحق والخير)... الخ. فاذا انتهوا من هذا الطابق، انتقلوا إلى الطابق الذي فوقه، فيجدون الغرف فيه مسماة بأسماء الممتازين بالفضائل السامية من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يتأهل للالتحاق بغرفة منها إلا من يستقصي كل ما حفظه التاريخ من فضائل الصحابي المكتوب اسمه على تلك الغرفة، ويحاول التخلق

---

(١) إلا ما يجيء منه عن غير تشوف ولا مسألة.

باخلاقه، وتمثيل حياته تمثيلاً عملياً في هذا العصر. وبذلك يكون لأبناء الجيل طبقة من المعاصرين الممتازين الذي يمثلون الانسانية المنشودة بأسمى كمالاتها، فيرجع بهم الإسلام غضاً جميلاً لا تصنُّع فيه، ولا متاجرة ببضاعته، ولا مراءاة بمظاهره للاستغناء بها عن حقائقه، فاذا كثر أفراد هذه الطبقة في جيل من أجيال المسلمين، كان سائر المسلمين تبعاً لها، ونزلت الدولة على سننها و﴿ كما تكونوا يولَّ عليكم ﴾ فرأت الأمم ذلك بأعينها، ولا يلبث أن يكون الإسلام بعد ذلك دين الإنسانية كلها.

غرفة محمد بن مسلمة

ومحمد بن مسلمة الأوسِّي - حليف بني عبد الأشهل - واحد من أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره الأولين، ولهذا الصحابي غرفة منفردة على اسمه في الطابق الخاص بأصحاب رسول الله ﷺ من نادي الكملة كما كان يتصوره أولئك التلاميذ الأربعة في مدرسة دمشق الثانوية قبل بضع وخمسين سنة. وقد اخترته من بين عشرات الصحابة الممتازين الذين لكل واحد منهم غرفة في ذلك النادي، لأنه مع امتيازه بما يرفعه إلى الذروة في الانسانية السامية لم يشتهر عند الجماهير كاشتهار عمر وعليّ وخالد وعمرو وأبي عبيدة - رضي الله عنهم - ولذلك آثرت أن أعرض على فتيان المسلمين ما يتسع له المقام من سيرته.

أوليته في الاسلام:

قد يسبق إلى ذهن القارىء أن محمد بن مسلمة ولد في الإسلام فتسمى (محمداً) على اسم الهادي الأعظم ﷺ . وليس كذلك، فإن اسم (محمد) وإن كان قليل الذيوع قبل الإسلام، لكنه كان متداولاً. وابن مسلمة ولد في يثرب بعد ولادة النبي ﷺ في مكة بثمانية عشر عاماً، فلما بعث الله خاتم رسله ﷺ بدعوة الحق وبالرسالة العظمى إلى الإنسانية، كان محمد بن مسلمة في الثانية والعشرين من عمره، ولو أنه كان مكياً ومن قريش لكان من الرعيل الأول في الإسلام، لكنه ـ وهو من مواليد يثرب ـ كان أسبق الأنصار إلى دين الحق، فقد أسلم قديماً على يدي مصعب بن عمير بن هاشم العبدري عندما بعث به النبي ﷺ إلى المدينة قبل الهجرة، فكان إسلام محمد بن مسلمة أقدم من إسلام سعد بن معاذ وإخوانه من الأنصار.

ونشأ محمد بن مسلمة أسمر طويلاً معتدلاً ممتلىء الجسم أصلع مقداماً في العزائم صدّاعاً بالحق سريعاً إلى الخير مبغضاً للفتن وأهلها. وانجب للاسلام عشرةً من الذكور كلهم من أهل الخير، وقد أدرك نصفهم صحبة رسول الله، وهم: عبد الرحمن، وعبدالله، وجعفر، وسعد، وعمر.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة وتبعه المهاجرون فآخى بين كل مهاجري وأنصاري، آخى بين محمد بن مسلمة وأمين هذه الأمة أبي عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح الفهري، أحد العشرة

المبشرين بالجنة، وصاحب الفتوح الخالدة بنتائجها في سبيل الحق إلى يوم القيامة .

جهاده :

شهد محمد بن مسلمة بدراً، وجاهد مع رسول الله ﷺ في جميع الميادين، ولم يتخلف إلاّ عن غزوة تبوك بأمرٍ من النبي ﷺ ، وأغلب الظن أنه كان خليفته على المدينة في غيبته إلى أن عاد من تبوك .

وكان ثقة النبي ﷺ في العظائم التي لا يصمد فيها إلا أهل العزائم . من ذلك أن ابن اليهودية عدوّ الله كعب بن الأشرف الطائي، لما أسرف في إيذاء المسلمين والكيد للاسلام بثروته وجاهه وشجاعته وبلاغته في شعره، حتى تطاول إلى التشبيب بنساء المسلمين، وحتى ذهب إلى مكة في بني سهم وجعل ينظم أبلغ الشعر في رثاء أهل القليب من قتلى بدر ليهيج قريشاً لثاراتها، رأى النبي ﷺ من الخير للانسانية بتر هذا العضو الفاسد من أعضائها، وأنه إن لم يقتل فستسفك بشعره وتحريضه دماء لا ترقأ . فقال ﷺ يوماً لأصحابه ـ وكلهم في حالة حرب مع ابن الأشرف والذين على شاكلته ـ :

« من لي بابن الأشرف؟ »

فقال محمد بن مسلمة : أنا لك به يا رسول الله أنا أقتله . . .

قال : « فافعل إن قدرت على ذلك » .

فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاث ليال لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، لما أهمه من هذا الأمر. فلما علم النبي ﷺ بذلك دعاه فقال له : « لمَ تركت الطعام والشراب؟ ».

قال : يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفينّ لك به أم لا . .

فقال ﷺ : « إنما عليك الجهد . . ».

واختار محمد بن مسلمة لمرافقته في هذه المهمة أربعة من الرجال هو خامسهم : أحدهم من أسرته بني حارثة الأوسيين وهو أبو عبس بن جبر، والآخرون من حلفائه بني عبد الأشهل، أولهم أخ من الرضاعة لكعب بن الاشرف، وهو أبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش، وابن عمه عباد بن بشر بن وقش، ثم الحارث بن أوس بن معاذ الاشهلي.

ولما أزمعوا أمرهم، مثلوا بين يدي النبي ﷺ وقالوا :

يا رسول الله، إنه لا بد لنا من أن نقول ـ أي أن يتظاهروا بالعداوة للاسلام حتى يتمكنوا من الرجل ـ فقال : « قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك » فلما نهضوا ليقوموا بمهمتهم، مشى معهم ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم فقال : « انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم ». ثم رجع إلى بيته وهو في ليلة مقمرة. وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب بن الاشرف، في ظاهر يثرب، فاستنزلوه، وأعملوا فيه السيف، فقتل وهو يصيح صيحة لم يبق

حول حصنه حصن إلا أوقدت عليه النيران لتعرف خبر ذلك الصوت.

ولما أصابت الاوسُ كعبَ بن الاشرف في عداوته لرسول الله ﷺ، قالت الخزرج : والله لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً، فتذاكروا مَن رجلَ في العداوة لرسول الله ﷺ كابن الاشرف؟ فذكروا رأس اليهود وطاغيتهم سلام بن أبي الحُقيق في خيبر، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله بمعقله بخيبر، ولما قتله الخزرج قال حسان ابن ثابت :

لله در عصابة لاقيتهم
يابن الحُقيق وأنت بابن الاشرفِ
يسرون بالبيض الخفاف إليكم
مرحاً كأسد في عرين مغرف
حتى أتوكم في محل بيوتكم
فسقوكُم حتفاً ببيض ذُفَّف
مستنصرين لنصر دين نبيهم
مستصغرين لكل أمر مجحف

ويوم تآمرت يهود بني النضير على النبي ﷺ في السنة الرابعة للهجرة، وأرادت أن تُلقي عليه الصخرة وهو مستظل بجدار من جدران بيوتها، اعتبر ﷺ هذا الغدر نقضاً من اليهود لعهودها، فندب محمد بن مسلمة ليبلغهم أمره لهم بالجلاء عن الحجاز إلى جنوب الشام، على ألا يحملوا معهم شيئاً من أسلحتهم

ولأمتهم [1]. وكانت الأوس ـ قوم محمد بن مسلمة ـ حلفاء قدماء لبني النضير، فقالوا لابن مسلمة :

ـ يا محمد ، ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا الأمر رجل من الأوس.

فقال محمد بن مسلمة : تغيرت القلوب، ومحا الإسلام تلك العهود . .

فقال اليهود : نتحمل!

وخرجوا بلا سلاح ولا ذخيرة، لكل ثلاثة منهم بعير وسقاء.

فارس رسول الله :

ثم لما نزلت يهود بني قريظة على حكم النبي ﷺ في السنة الخامسة للهجرة، كان محمد بن مسلمة قائد حرس رسول الله ﷺ. وقد تصرف في هذه المهمة العسكرية تصرف القائد الحكيم المطلق اليد، وأقرَّه النبي ﷺ على تصرفه.

وشهد محمد بن مسلمة حرب المسلمين مع اليهود في خيبر في السنة السابعة للهجرة، فأبلى فيها بلاء حسناً، واستشهد في تلك الحرب أخوهُ محمود بن مسلمة، فحاول أن يثأر لأخيه من بطل اليهود (مرحب) وأثخن فيه إثخاناً كوفىء عليه بأخذ سلبه بعد قتله، ثم كان ثأره لأخيه بقتله كنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق، وصار يقال بعد ذلك لمحمد بن مسلمة (فارس رسول الله ﷺ) .

---

(١) اللأمة : الدرع.

وفي غمرة القضية سنة ٨ كان محمد بن مسلمة أميراً على خيل المسلمين، كما كان قائد غزوة القرطاء من هوازن. وهكذا كانت حياة هذا البطل جهاداً متواصلاً كلما احتاج الإسلام إلى جهود رجاله وعقولهم وجوارحهم وأخلاقهم.

الوصية النبوية له :

روى الحسن البصري (رحمه الله) عن محمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطاه سيفاً وقال له : « قاتل به المشركين ما قاتلوا، فإذا رأيت أمتي يضرب بعضهم بعضاً فأت به جبل أحد، فاضرب به حتى ينكسر، ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة، أو منية قاضية »[1] ففعل.

وقال حذيفة : إني لأعرف رجلاً لا تضره الفتنة (وذكر محمد بن مسلمة) وصرح بسماعه هذه الوصية له من النبي ﷺ.

يد عمر بن الخطاب :

وكان محمد بن مسلمة في خلافة عمر بن الخطاب يد الخليفة اليمنى في كشف الأمور المعضلة، والإشراف على الولاة والأمراء فيما يشكوه أهل الامصار من أعمالهم، فإذا كانت الحالة قارَّة سارة، والرعية مغتبطين بولاتهم، لا يدَع عمر يده اليمنى عاطلة عن

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه ٢/ ١٣١٠ بمعناه، وهناك أحاديث عديدة تشهد لهذا الحديث، فهو صحيح.

العمل، فيرمي محمد بن مسلمة إلى أي عمل آخر من أعمال الدولة؛ فيوماً يلي صدقات جُهينة، ويوماً تجده على ثغرة أخرى من ثغور الإسلام. وكل عمر كان عمر يحب أن يؤدّي كما يريد، يرمي إليه بمحمد بن مسلمة، فيؤدِّيه بأمانه وبصيرة وإتقان.

هذا سعد بن أبي وقاص صاحب رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة وفاتح العراق وإيران والقائم للاسلام بكل خير، ينمُّ عليه النمامون من أهل الكوفة الى عمر بأنه بنى في الكوفة قصراً، وجعل بينه وبين الرعية باباً يغلق.

هل يسكت عنه عمر؟ هل يشفع له عنده أنه المجاهد الفاتح، والأمير الصالح، وصاحب الدعوة ليس بينها وبين السماء حجاب؟ إن عمر لا يكتفي بالخير الماضي، ولا يعتقد العصمة لأحد بعد رسول الله. فاذا كان سعد من أهل الخير فيما مضى، فقد مضى ما مضى، ويجب على سعد أن يكون مصدر خير في كل لمحة ونفس.

ـ يا محمد بن مسلمة، عليك بسعد بن أبي وقاص، فقد زعم أهل الكوفة أنه صار نمروداً في أرض بابل. اذهب إلى الكوفة، واكشف لي عن هذا القصر الذي بناه أمير العراقين وفاتحهما، وإذا رأيت للقصر باباً أغلَقه سعد في وجوه الناس فأضرم فيه النار حتى لا يبقى بين سعد والرعية باب، ثم ارجع إلي من حيث ذهبت!.

وتسرع الناقة بمحمد بن مسلمة تطوي الأرض بين المدينة والكوفة، حتى يقف أمام ما سموه قصراً لسعد بن أبي وقاص،

فيرى داراً متواضعة بناها لتحول بينه وبين ضجيج الأسواق المجاورة لمكان الحكم، وكانت الغوغاء تمنع سعداً قبل ذلك من أن يسمع حديث أصحاب الحاجات الذين يقصدون الأمير بحاجاتهم. فلما بنى هذه الدار سماها محبو الفتنة من أهل الكوفة قصراً، وادَّعوا عليه ما لم يفعل. إلا أن للدار باباً، وقد أمر الخليفة باحراقه، فجمع محمد بن مسلمة حطباً وأضرم به الباب. ثم أراد أن يعود من حيث أتى، فدعاه سعد وأراده على دخول داره والنزول عنده ـ لأنه صديقه القديم، المجاهد معه في ركاب النبي ﷺ دهراً طويلاً ـ فأبى أن يدخل، وعرض عليه سعد الزاد لسفره فرفضه، ورجع من فوره. وقبل أن يصل إلى المدينة فني زاده فصار يأكل نبات الأرض ولحاء الشجر إلى أن بلغ عمر فأخبره خبره. فقال عمر: « إن سعداً أصدق مما روي عليه، وما بلغني عنه ». وقال لمحمد بن مسلمة: ـ هلا قبلت الزاد من سعد؟ فأجابه: لم أكن أعلم أنك تأذن لي به. فقال عمر: إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم ولم ينكل..

في خلافة عثمان:

لما انصرف الثوار من أهل مصر والكوفة والبصرة عن المدينة مقتنعين بما أجابهم به عثمان عن كل الشبهات التي بثها جماعة عبدالله بن سبأ في آذانهم، دبر اثنان من عملاء عبدالله الرسالة المزورة على عثمان إلى عامله في مصر. وكان ثوار كل بلد قد أخذوا طريقهم إلى بلدهم من غير الآخرين، والرسول الذي حمّله

السبئيون الرسالة المزورة تراءى لجماعة مصر وحدهم، لأنهم المقصودون بالدسيسة المرتبة. ولكن أهل المدينة لم يشعروا بثوار الامصار الثلاثة قد رجعوا جميعاً، كأنما كانوا على ميعاد، فأتى محمد ابن مسلمة المصريين وقال لهم في مجلس علي :

- ما الذي أرجعكم بعد ذهابكم؟ قالوا : أخذنا كتاباً من البريد مع خادم عثمان لعامل مصر يأمره فيه بقتلنا. وسأل البصريين عن مجيئهم فقالوا : لنصر إخواننا. . وكذلك قال الكوفيون. فقال محمد بن مسلمة للبصريين والكوفيين، وقال لهم مثل ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنهما :

- كيف علمتم بما لقي أهل مصر، وكلكم على مراحل من صاحبه، حتى رجعتم إلينا جميعاً؟ هذا أمر دبر بليل! فقالوا : اجعلوه كيف شئتم، لا حاجة لنا بهذا الرجل، ليعتز لنا.

قال الشيخ محمد الخضري (في إتمام الوفا، ص ١٨٥) : ولم يلهم الله أحداً أن يحقق أمر هذا الكتاب، إذ كيف اتحدوا على الرجوع بعد افتراقهم في طرق مختلفة؟

وعلّق عليه فضيلة الأستاذ صادق عرجون شيخ علماء الاسكندرية في كتابه النفيس : (عثمان بن عفان، ص ١٢٩) فقال : بلى قد ألهم الله حكيم الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في رواية الطبري (٥ : ١٠٥)، أو الألمعيّ محمد بن مسلمة، كما ذكره الخضري نفسه في سيرته، فألقى ظلاً كثيفاً من الشك على قصة هذا الكتاب المزوَّر ، والغلام الأسود المختلق على

عثمان أو على مروان، وفضح أمر المزوِّرين [1].

لا تضره الفتنة :

إن محمد بن مسلمة لا تضره الفتنة كما سمع ذلك حذيفة من فم النبي ﷺ ، ولذلك استطاع أن يكون في الفتنة رجلاً صالحاً يرد كيد أعداء الله عن دين الله وعن أولياء الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

فلما تم لعثمان ما بشره به رسول الله ﷺ من الشهادة، ذهب محمد بن مسلمة إلى صخرة في جبل أحد فكسر عليها سيفه، واتخذ لنفسه سيفاً من خشب، وسكن الرَّبذة [2] وكان هو وسعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن عمر، وأبو موسى الاشعري وأبو مسعود عقبة ابن عمرو الأنصاري، وأسامة بن زيد، وأبو بكرة نفيع بن الحارث الثقفي، وحكيم تميم وعظيمها الأحنف بن قيس، على رأس جمهور الأمة الاعظم في الكف عن القتال بين المسلمين، إلى أن لقي محمد بن مسلمة ربه في شهر صفر من سنة ٤٣ عن خمس وسبعين سنة، فصلى عليه أمير المدينة مروان بن الحكم، وصلى عليه معه بقية الصحابة وصالحو التابعين.

رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، وبعث فينا أخلاقه وفضائله، ووفقنا إلى الاقتداء به في صدقه وجهاده وولايته للاسلام وأهله .

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر العواصم من القواصم ص ١٢٦ ـ ١٢٩، والطبري ٥ : ١٢٠ .

(٢) موضع قرب المدينة المنورة، مدفن أبي ذر الغفاري .

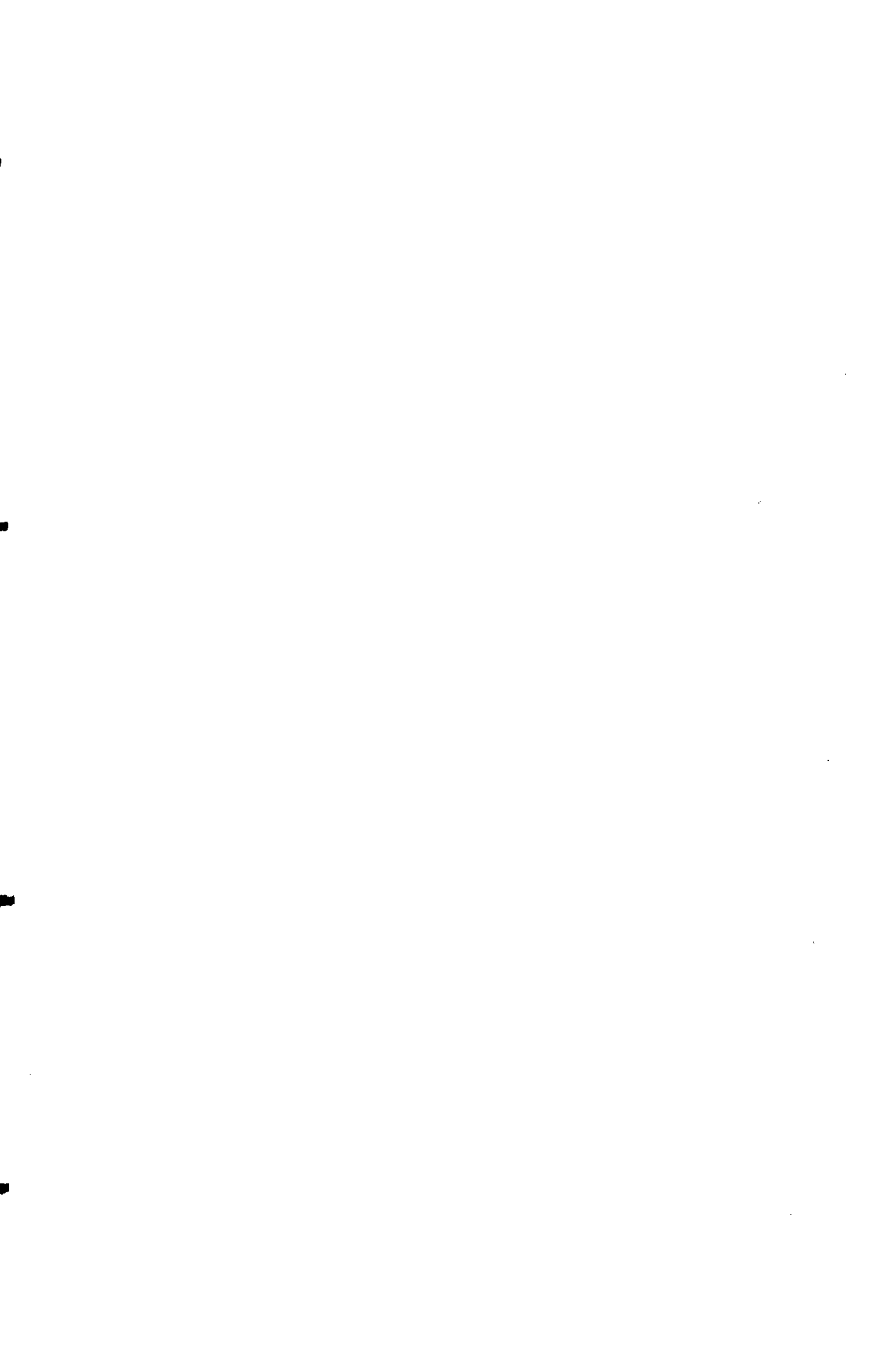
بشائر نور

و

إرهاصات نبوّة

للأستاذ

وهبي سليمان الألباني



بسم الله الرحمن الرحيم

بشائر نور

إرهاصات نبوة

مدخل: كما تهتز الارض بالربيع وتنتعش فتلبس حلة الخضرة والنضارة، كذا تهتز قلوب المسلمين وتنتعش بذكرى مولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسيرته العطرة. وكما ترنو العيون وتتوثب النفوس إلى الربيع الحي بعد الشتاء الهامد، كذا ترنو وتطير فرحاً قلوب المسلمين بذكرى مولد حبيب رب العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم وسيرته العطرة.

لقد كتب الكاتبون كثيراً في سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من عصر الامام الزهري وابن سعد إلى أيامنا هذه، ولكن مهما كتب الكاتبون في تلك السيرة المعطرة فلا بد للجديد أن يدرك في السيرة شيئاً تركه القديم، أو يستشف عبراً ودروساً فاتت سلفه لسابقين.

وهذه كلمة: هي باقة متواضعة غالية من زهور ونوَّار ورياحين الروضة النبوية التي فاقت رياض الوجود جميعها، ما أقصد بجمعها وتقديمها إلى القارىء الكريم إلا: أن أنظم في سلك

مدّاحي من مدحه ربه فقال له: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم [1] ﴾ وأن ينتفع بها المسلمون فأنظم في سلك: « من دعا إلى هدى كان له من الاجر مثل أجـور من اتّبعـه لا ينقص ذلك من أجورهـم شيئاً. . » [2]

إن حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل النبوة ـ وهذه الكلمة لتلك الفترة ـ سيرة كريمة، نيرة مستقيمة، طاهرة نقية في جو مظلم من الشرك والظلم والخيانة وسوء الخلق.

١ ـ زهرة بيضاء صافية: كان صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمناً بالله تعالى وحده، منكراً عبادة الاصنام منذ الطفولة.

أ ـ ذكر الحلبي في سيرته عن أم أيمن رضي الله تعالى عنها قالت: كانت (بُوانة) صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له ـ أي تذبح له وتحلق عنده ـ وتعتكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة. فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك، حتى قالت: رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه، وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ويقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً، فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلن ما دهاك؟ قال: «إني

---

(١) القلم ٥.

(٢) مسلم وغيره.

أخشى أن يكون بي لمم» ـ أي لمة وهو المس من الشيطان ـ فقلن ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: « إني كلما دنوت من صنم منها ـ أي من تلك الاصنام التي عند الصنم الكبير الذي هو بوانة ـ تمثل لي رجل أبيض طويل ـ أي وذلك من الملائكة ـ يصيح لي وراءك يا محمد لا تمسه ». قالت فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ صلى الله تعالى عليه وسلم.

ب ـ روى الحافظ البيهقي بسنده إلى زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه قال: كان صنم من نحاس يقال له إساف ونائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا تمسه، قال زيد فطفت فقلت في نفسي لأمسنَّه حتى أنظر ما يكون، فمسحته فقال رسول الله ﷺ ألم تُنه!، قال البيهقي: زاد فيه عن محمد بن عمر باسناده قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى. وقصة الطفل محمد ﷺ مع بحيرا الراهب، وقول الراهب له: أسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما أسألك عنه، وقوله ﷺ: لا تسألني باللات والعزى شيئاً فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، هذه القصة مشهورة وصحيحة يشار اليها ولا تكتب تفصيلا، لعلم القارىء بها.[1]

(١) قد لا يكون عجيباً أن يزعم بعض كفار الغرب أن رسول صلى الله تعالى عليه

٢ ـ **زهرة خضراء نقية**: كان النبيﷺ بعيداً غريباً عن الفجور والاثم، محفوظ العيش من حياة الطيش والفسق وهي حياة الشباب في زمانه! وحياة كثير من شباب المسلمين ما توصف به اليوم؟!.

ذكر ابن سيد الناس في عيون الأثر بسنده إلى علي بن بي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما هممت بقبيح مما يهمُّ به أهل الجاهليه إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمني الله عز وجل منها: قلت لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها أبصر لي غنمي حتى اسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال نعم، فخرجت فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير فقلت ما هذا؟ قالوا فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش. فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عينى فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال ما فعلت؟

= وسلم تعلم الذين من بحيرا.. وزاد ما شاء.. ووضع قرآناً!، لكن العجيب أن يزعم هذا الزعم بعض كفار العرب وهم يعلمون أن بحيرا أعجمي. وأن لقاء النبي الكريم به كان مرة، وبين أهله من قريش، ولكن هو كفر العناد! وقد لا يكون عجيباً أن يزعم بعض كفار الغرب أن القرآن وضع الرسول صلىالله تعالى عليه وسلم فانهم لا يدركون بلاغة القرآن وأسراره الخالدة، لكن العجيب أن يقول مسلم (!) استاذ للغة العربية أمام طلابه الثانويين: هناك نظريتان في شأن القرآن! احداهما تقول: ان القرآن من عند الله تعالى، والاخرى تقول أن القرآن وضع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وكل نظرية لها دليل! قاتله الله ما أكفره؟!.

فأخبرته، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فسمعت كما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس ثم رجعت إلى صاحبي فقال ما فعلت؟ فقلت ما فعلت شيئاً، قال رسول الله ﷺ « ما هممت بغيرهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته » [1].

وذكر الحلبي في سيرته عن علي رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: قيل للنبي ﷺ هل عبدت وثناً قط؟ قال لا، قالوا هل شربت خمراً قط؟ قال لا، قال: وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الايمان.

٣ ـ **بنفسجة عطرة**: كان ﷺ الامين الذي لا يخون والصادق الذي لا يكذب، الوفي الذي لا يخلف الوعد.

قال ابن كثير في تاريخه... وشبَّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها لما يريد من كرامته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقاً وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى، ما رؤي

---

(١) فانظر رعاك الله هذا الموقف. وقارنه بموقف مسلمين كبار يجبلون آلات الغنى والموسيقى « في أكثر أحوالها » إلى بيوتهم ويدفعون لها مئات الليرات، ويطربون بسماع الاغاني ورؤية المغنيات وغيرهن. ثم يندبون حظ الاخلاق والدين. يقولون فسد الزمان وهم فساده!.

ملاحياً ولا ممارياً أحداً، حتى سماه قومه (الأمين) لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث، فبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فاذا هو في مكانه، فقال: « يا فتى لقد شققت علي، أنا هنا منذ ثلاث أنتظرك » [1] كان يحضر في الموعد المضروب بينهما.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت الآية ﴿ فاصدعْ بما تُؤمرْ وأعرضْ عن المشركين﴾[2] صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي (لبطون قريش) حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش: فقال النبي ﷺ: « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي يريد أن يغير عليكم أفكنتم مصدقي؟ » قالوا ما جربنا عليك كذبا، قال: « فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ تبَّت يدا أبي لهب وتب.. ﴾.

٤ ـ ريحانة ملهمة: كان ﷺ يهتم بمصالح المجتمع ويقوم على خدمته باللسان والسنان والرأي والتدبير. روى الحُميدي بسنده إلى رسول الله ﷺ أنه قال: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان

---

(١) أبو داود.

(٢) الحجر: ٩٤.

حلفاً لو دُعيت به في الاسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وأن لا يعزّ ظالم مظلوما، وكان أول من تكلم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الاحلاف ـ عبد الدار ومخزوما وجمحا وسهما وعدي من كعب ـ فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل، وزبروه ـ أي نهروه ـ فلما رأى الزبيدي الشر أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس ـ وقريش في أنديتهم حول الكعبة ـ فقال بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحِجر والحجر
ان الحرام لمن تَمَّت كرامته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب وقال ما لهذا مترك. فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار عبدالله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه مابلَّ بحر صوفة، ومارسى ثبير وحراء مكانهما وعلى التأسي في المعاش، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل

فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه، وقال الزبير بن عبد المطلب في ذلك:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا
أن لا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا
فالجار والمعترُّ فيهم سالم

وذكر ابن اسحاق بسنده إلى محمد بن ابراهيم بن الحارث التميمي حدثه: أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير على المدينة أمّره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة، فكان الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومنّ في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعونّ بحلف الفضول، قال: فقال عبدالله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال، وأنا أحلف بالله دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً، قال وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك، وقال عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي، فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي. قلت ما أحوج المسلمين في جميع أقطارهم إلى حلف كحلف الفضول! ألا من داع يدعو اليه فقد بلغ السيل الزبى!

ب ـ ذكر ابن سعد بسنده أن النبي ﷺ شهد حرب الفجار وله عشرون سنة، وقال: قال رسول الله ﷺ : « قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت ». وسمي حرب الفجار لأن القتال وقع في الشهر الحرام ففجروا جميعاً. وقد كانت بين قريش ومن معها وبين قيس عيلان.

ج ـ قال ابن اسحق. . . ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ـ أي الكعبة المشرفة زادها الله مهابة وشرفا ـ كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها، حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاروا أو تحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا وهم بنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا لعقة الدم، فمكثتْ قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ثم أنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ـ وكان عامئذ أسنّ قريش كلها ـ قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم ففعلوا، فكان أول داخل دخل رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال رسول الله ﷺ : « هلموا إليَّ ثوباً » فأتي به، وأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: « لتأخذْ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً »

ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ الامين.

٥ ـ **ياسمينة زاهية**: كان صلى الله تعالى عليه وسلم لكمال خلقه وطيب شيمه يحبه الناس أكثر مما يحبون أهليهم وأوطانهم. ذكر ابن حجر في الاصابة في ترجمة زيد بن حارثة ما يلي: زارت سعدى أم زيد بن حارثة قومها وزيد معها فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على ابيات بني معن فاحتملوا زيداً وهو غلام يفعة، فأتوا به في سوق عكاظ فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهبته له، وكان أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده قال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل
أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل؟

في أبيات يقول منها:

أوصي به عمراً وقيساً كلاهما
وأوصي يزيداً ثم بعدهم جبل

يعني بعمرو وقيس اخويه وبيزيد أخا زيد لأمه وهو يزيد بن كعب بن شراحيل ولده الاكبر. قال: فحجّ ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فقال: ابلغوا اهلي هذه الأبيات:

احنّ إلى قومي وان كنت نائياً
بأني قطين البيت عند المشاعر

في أبيات.

فانطلقوا فاعلموا اباه و وصفوا له موضعه، فخرج حارثة وكعب أخوه بفدائه فقدما مكة فسألا عن النبي ﷺ فقيل هو في المسجد فدخلا عليه فقالا يا ابن عبد المطلب يا ابن سيد قومه، انتم أهل حرم الله تفكّون العاني وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عبدك فامنن علينا واحسن في فدائه فانا سنرفع لك، قال: وما ذاك؟ قالوا زيد بن حارثة، قال: « أو غير ذلك؟ ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني فداء » قالوا: زدتنا على النَّصف، فدعاه فقال: « هل تعرف هؤلاء؟ قال نعم هذا أبي وهذا عمي، قال فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما ». فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الاب والعم، فقالا ويحك يا زيد اتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال نعم، إذ قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: « اشهدوا ان زيداً ابني يرثني وأرثه ». فلما رأى ذلك ابوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدُعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالاسلام.

أقول: ثم نزل تحريم التبني بقوله تعالى: ﴿ ادعوهم لآبائهم.. ﴾ فلا يجوز التبني في الاسلام، اعني إلحْاق الغريب بالنسب لعدم الولد أو لسبب آخر، كما يفعل غير المسلمين في

بلادهم من إلحاق اللقطاء أولاد الزنا أو غيرهم بهم وأنسابهم، وينزلق إليه بعض جهال المسلمين الذين رخص عندهم الاسلام حتى افتخروا بجهلهم به ولا حول ولا قوة إلا بالله . . !

وبعد:

فقد روى ابن سعد بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: « رأت أمي حين وضعتني سَطَع منها نور أضاءت له قصور بصرى » [1]. فان كانت ولادة الرسول ﷺ جاءت على نور فأكرمْ بها حياة أولها نور، وأعظمْ بها سيرة يقول الله تعالى في صاحبها: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُور ﴾ [2].

لقد عرف المشركون سيرته ﷺ قبل النبوة، أنها سيرة المؤمن بالله تعالى المنزّه عن عبادة الأصنام، سيرة الرجل المستقيم البعيد عن الفجور والأثم، سيرة الرجل الصادق الأمين كريم الخلق، الساعي لخدمة الجماعة الموفق في ذلك، لذا نجد القرآن الكريم يعيب على المشركين عدم الايمان بنبوته ﷺ فيقول: ﴿ أمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُم فَهُم لَهُ مُنكِرون ﴾ [3] ويقول: ﴿ وَمَا لكم لا تُؤْمِنُونَ بالله والرسولُ يَدْعوكم لِتؤمنُوا بربِّكم وقد أخَذَ ميثاقكم ﴾ [4].

ولقد كانت تلك السيرة العطرة قبل النبوة بشائر النور

---

(١) الجامع الصغير: صحيح.

(٢) المائدة ١٦.

(٣) المؤمنون ٢٣.

(٤) الحديد ٦٧.

وارهاصات النبوة فيما بعد، فقد تربّى ﷺ في يتمه ولطمه، في صغره ورعيه الغنم، في شبابه وتجارته، في كهولته واتصاله بالناس، تربى في ذلك على عين الله تعالى ورعايته، قال الله تعالى في حق أخيه موسى عليه السلام ﴿ . . وَلِتُصْنَعَ على عَيْني﴾ [1].

أما المسلمون اليوم، فانهم يزيدون على المشركين في معرفتهم للنبي ﷺ ، فهم يعرفون سيرته لبعد النبوة أيضاً، وانها قدوة اسلامية في دروب الحياة ومسالك العيش في سبيل مرضاة الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رسولِ الله أسْوَةٌ حَسنةٌ لمن كانَ يَرْجُو الله واليَومَ الآخر وَذَكَرَ الله كثيراً﴾ [2].

فلماذا؟ لماذا يهجر المسلمون اليوم سيرة الرسول ﷺ ولا يجعلونها نبراسهم في الحياة؟.

أجاءهم بعده ﷺ رسول منهم يقتدون به؟ كلا، فان الله تعالى قال: ﴿مَا كان محمدٌ أبا أحَدٍ مِنْ رِجالِكُم ولكنْ رَسولَ اللهِ وخاتمَ النَّبِيِّين﴾ [3] وهو ﷺ يقول لعلي رضي الله تعالى عنه حين استخلفه على المدينة في خروجه لغزو الروم بتبوك: « . . أمَا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي » [4].

أم جاءتهم بعده رسالة أعم وأشمل وأكمل من رسالته ﷺ من عند ربه؟ كلا، فان الله تعالى يقول: ﴿ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لكُمْ دينَكُمْ

---

(1) طه ٣٨.

(2) الاحزاب ٢١ .

(3) الاحزاب ٤٠.

(4) رواه البخاري وغيره الاعراف ١٥٨.

وأَتْمَمْتُ عَليكم نِعمتي وَرَضِيتُ لكم الإِسلام ديناً﴾ [1]. . ﴿يا أيهُّا النَّاسُ إنِّي رسولُ الله إلَيْكُمْ جميعاً﴾ [2].

أم بدا لهم أنهم استغنوا بعقولهم وعلومهم وقرونهم عن هديه صلى الله تعالى عليه وسلم؟ كلا، فإن الله تعالى يقول: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ [3].

أم. . .؟ لا هذا ولا ذاك! لكن هو إيثار العاجلة على الآجلة وتقديم الدنيا على الآخرة!

قد يكون هذا الشيء وحده هو الذي يزهّد أكثر المسلمين في إسلامهم، ويقطع عنهم طريق الاقتداء به صلى الله عليه وسلم. . . وحب الدنيا رأس كل خطيئة!

قد يكون الذي يزهّد أكثر المسلمين عينُ ما كان يزهِّد عديا رضى الله تعالى عنه فيه حين اجتمع به صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يسلم فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم: «. . أسلم تسلم، قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها ممن حولي وإنك ترى الناس علينا إلْباً واحداً؟» قال: هل أتيت الحيرة؟ قلت لم آتها وقد علمت مكانها، قال يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتغنمنَّ علينا كنوز كسرى بن هرمز، فقلت

---

(١) المائدة ٣ ـ الأعراف ١٥٨ (٢) الأعراف ١٥٨.

(٣) سورة العصر.

كسرى بن هرمز؟ فقال نعم، وليفيضنَّ المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته، قال عدي فرأيت اثنين: الظعينة وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة. يعني - رضي الله تعالى عنه - فيضان المال، وقد جاءت.. فقد كان صاحب الصدقة يخرج - بعد - بصدقته يبحث عن فقير محتاج فلا يجد من يقبل صدقته، فقد أغنى تطبيق نظام الاسلام جميع الناس.

فهل للمسلمين أن يعيدوا تطبيق نظام الاسلام، ليقضوا على الفقر، وليعيشوا على الحب سادة إخوة؟!

ما أراني بحاجة إلى سرد نصوص التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة [1]. ولا أراني بحاجة إلى تذكير المسلمين بأن اسلامهم أفضل وأكمل وأشمل مما في الأرض من مبادىء ونظم، ولا أراني بحاجة إلى عقد مقارنة بين رسول الله ﷺ وزعماء البشر!!! فما فيهم رجل يثبت في الميزان فضلا عن أن ترجح به كفته.

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط

محمد الهادي الذي ... عليه جبريل هبط

(١) اجتزىء بهذا الحديث: «يؤتى بأنعم الدنيا من اهل النار فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط». رواه مسلم.

.. فضعف المسلمين.. تفرقهم.. جهلهم.. تأخرهم.. فقرهم.. هوانهم.. تداعى دول الاعداء عليهم من كل جانب.. استحالتهم أيتاماً على مأدبة اللئام ما جاءهم من قبل اسلامهم.. واقتدائهم به ﷺ لكن جاءهم من قبل تركهم اسلامهم، وافتقادهم نبراس النبوة في حياتهم.. قال الله تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾[1]

عبرة وأية عبرة! عظة أعظم بها من عظة. فهل من مُدَّكر؟! اللهم نعم.

نماذج:

أقدم لك أخيراً ـ أخي القارىء ـ نماذج لأولئك الذين تلقفوا تلك الباقة من روضة النبوة، وعاشوا في جنة تلك الروضة سنين طويلة، ثم عاشوا على طيبها وأريجها فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

وما يزال الطيب الذي تلقفوه وعاشوا في روضته ينعش القلوب، قلوب المسلمين، ويهيج النفوس، نفوس المتقين، فرضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين.

أ ـ روى حماد بن سلمة بسنده إلى سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى أنه قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبعه نفر من

---

(١) الشورى ٣٠.

قريش فنزل عن راحلته وانتشل ما في كنانتـه، ثم قال: يا معشر قريش! قد علمتم أني من أرماكم رجلاً وأنتم والله لا تصلون إليَّ حتى أرمي بكل سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ثم افعلوا ما شئتم، وإن شئتم دللتكم على مالي وقُنيتي بمكة وخليتم سبيلي، قالوا نعم - أي فدلّهم فرجعوا عنه - فلما قدم على النبيﷺ قال: ربح البيع، ونزلت: « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَه ابتغاءَ مَرضاةِ الله والله رَؤوفٌ بالعباد » [1]

ب - ذكر ابن كثير عن ابن اسحق. . وحدثني عاصم ابن عمر بن قتادة، أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول اللهﷺ - بيعة العقبة الثانية - قال العباس بن نضلة الانصاري أخو بنى سالم بن عوف: يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعـون هذا الرجـل؟ قالـوا نعم، قال انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس، فان كنتم ترون أنـكم إذا نُهـكت أموالـكم مصيبـة وأشرافـكم قتـلا اسلمتموه، فمن الآن. فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون انكم وافون بما دعوتموه اليه على نهكة الاموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الاموال وقتل الاشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: « الجنة » قالوا: أبسطيدك، فبسطيده فبايعوه.

ج - أخرج البيهقي عن شداد بن الهاد أنَّ رجلا من الاعراب

---

(١) البقرة ٢٠٧.

جاء رسول الله ﷺ فآمن به واتبعه، وقال أهاجر معك، فأوصى به ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنِم رسول الله ﷺ، فقسمه وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه اليه فقال ما هذا؟ قالوا قسمٌ قسمه لك رسول الله ﷺ، فقال ما على هذا اتبعتك ـ يقول هذا لرسول الله بأبي هو وأمي ﷺ ـ ولكني اتبعتك على أن أرمى ههنا ـ وأشار الى حلقه ـ بسهم فأموت، فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك. ثم نهضوا الى قتال العدو، فأتي به رسول الله ﷺ يُحمل وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: هو هو؟ قالوا نعم. قال صدق الله فصدقه! وكفنه النبي في جبته ﷺ، ثم قدّمه فصلى عليه، وكان مما ظهر من صلاته: اللهم! هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك قتل شهيداً، وأنا عليه شهيد [١].

د ـ أخرج البيهقي وابن عساكر عن أبي رافع قال: وجه عمر بن الخطاب جيشاً الى الروم وفيهم رجل يقال له عبدالله بن حذافة من أصحاب النبي ﷺ، فأسره الروم فذهبوا به الى ملكهم، فقالوا له: إن هذا من اصحاب محمد ﷺ فقال له الطاغية هل لك أن تتنصّر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ فقال له عبدالله: لو اعطيتني ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن ارجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين

---

(١) وقد روى النسائي نحوه، وأخرجه الحاكم بنحوه.

ما فعلت [1]. قال إذن أقتلك، قال أنت وذاك، فامر به فصلب، وقال للرماة ارموا قريباً من يديه، قريباً من رجليه وهو يعرض عليه وهو يأبى، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ثم دعا بأسيرين من المسلمين فامر باحدهما فألقي فيها وهو يَعرض عليه النصرانية وهو يأبى، ثم أمر أن يلقى فيها، فلما ذُهب به بكى، فقيل له إنه قد بكى فظن أنه جزع، فقال ردوه فعرض عليه النصرانية فأبى، فقال ما أبكاك إذن؟ قال أبكاني اني قلت في نفسي: تُلقى الساعة في هذه القدر فتذهب فكنت اشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفسٌ تُلقى في الله، فقال الطاغية هل لك أن تقبّل رأسي وأخلي عنك؟ قال له عبدالله وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: وعن جميع أسارى المسلمين. قال عبدالله، فقلت في نفسي: عدوّ من اعداء الله اقبل رأسه يخلي عني وعن اسارى المسلمين لا أبالي، فدنا منه فقبل رأسه فدفع اليه الأسارى. فقدم بهم على عمر رضي الله تعالى عنه، فأُخبر عمر بخبره، فقال عمر: حقٌ على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة وأنا أبدأ، فقام عمر فقبل رأسه.

ح ـ أخرج أبو نعيم في الحلية عن عثمان قال: لما رأى عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء ـ وهو يغدو ويروح في أمان من ا لوليد بن المغيرة ـ قال:

---

(١) هكذا كانت صفات المؤمنين.

والله! ان غُدُوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من الاذى والبلاء ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس! وفت ذمتك قد رددت اليك جوارك قال لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال لا. ولكني أرضى بجوار الله عز وجل ولا أريد أن أستجير بغيره. قال فانطلق إلى المسجد فارْدد عليَّ جواري علانية كما آجرتك علانية. قال: فانطلقا ثم خرجا حتى أتيا المسجد فقال لهم الوليد، هذا عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ قد جاء يرد عليّ جواري. قال لهم قد صدق قد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره، ثم انصرف عثمان ولَبيد بن ربيعة بن مالك بن كلاب القيسي في المجلس من قريش ينشدهم. فقال لبيد وهو ينشدهم:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل.

فقال عثمان صدقت. فقال:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم أهل الجنة لا يزول، قال لبيد بن ربيعة، يا معشر قريش: والله ما كان يُؤذى جليسكم فمتى حدث فيكم هذا؟ فقال رجل من القوم ان هذا سفيه في سفهاءٍ معه قد فارقوا ديننا فلا تجدنّ في نفسك من قوله، فردّ عليه عثمان حتى سرى ـ أي عظم ـ أمرهما فقام اليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها ـ جعلها خضراء أي سوداء ـ والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ

من عثمان. فقال أما والله يا ابن أخي ان كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة. فقال عثمان: بلى والله! إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز وأقدر يا أبا عبد شمس! فقال عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه فيما أصيب من عينه:

فـان تك عينـي في رضـا الـرب نالها
يدا ملحـدٍ في الـدين ليس بمهتد

فقـد عوض الرحمـن منهـا ثوابه
ومـن يُرضـه الرحمـن ياقـوم يسعد

فانـي وان قلتـم غوي مضلل
سـفيه على دين الرسول محمد

أريد بذاك الله والحـق ديننا
على رغـم من يبغـي علينا ويعتدي

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ـ فيما أصيب من عين عثمان بن مظعون ـ:

أمـن تذكر دهـر غـير مأمون
أصبحـت مكتئبـاً تبـكى كمحزون

أمـن تذكر أقـوام ذوي سفه
يَغشـون بالظلـم من يدعـو إلى الدين

لا ينتهـون من الفحشـاء ما سلموا
والغـدر فيهـم سبيل غـير مأمون

ألا ترون - أقل الله خيرهم -
أنّا غضبنا لعثمان بن مظعون
إذ يلطمون ولا يخشون مقلته
طعناً دراكاً وضرباً غير مأفون [1]
فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلا
كيلاً بكيل جزاء غير معبون
وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

* * *

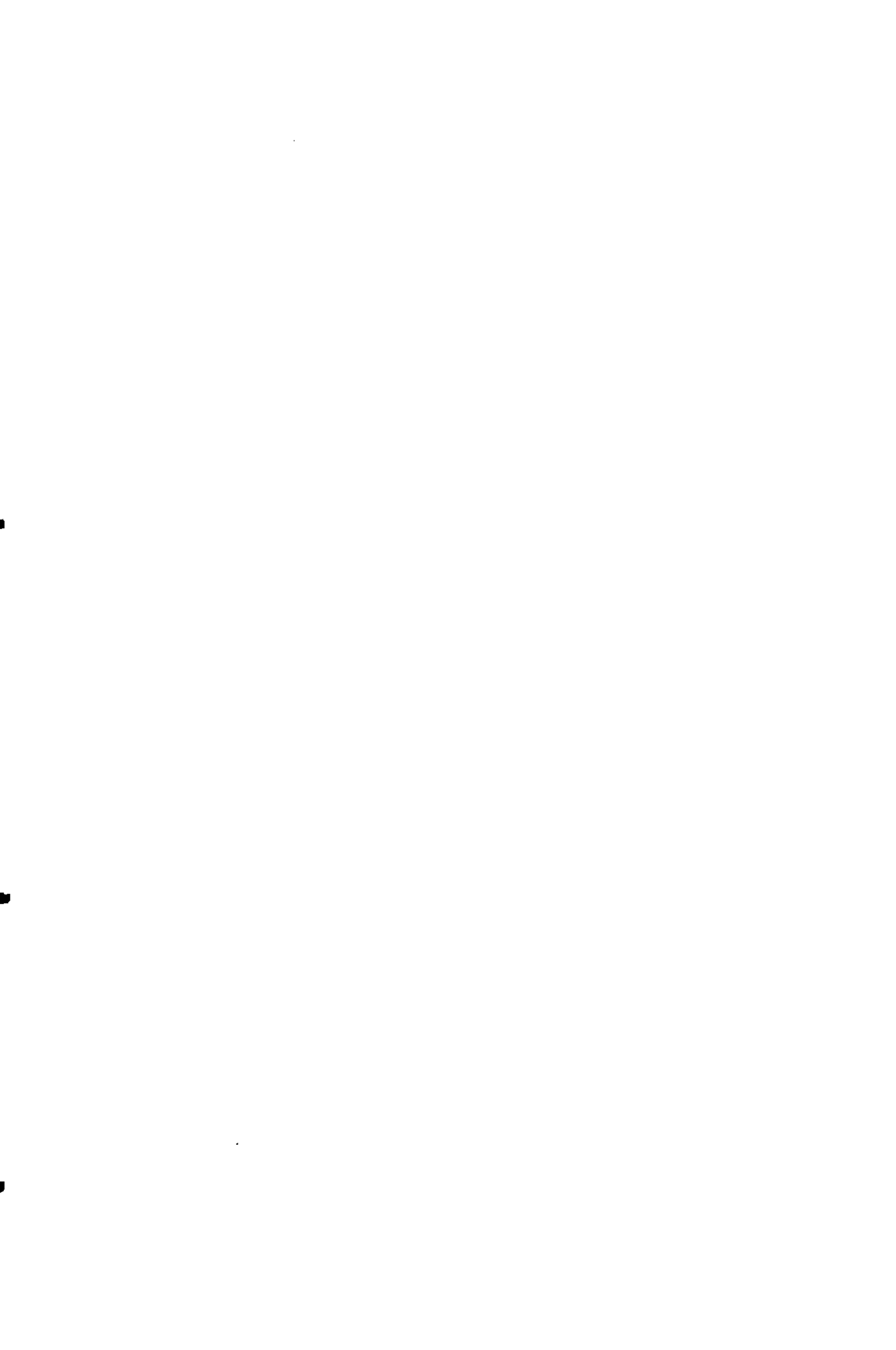
(١) دراكا: متتابعاً. غير مافون: غير ناقص.

الملك المظفر

أوّل مَن احتَفَل بالمولد

للأستاذ

علي الطنطاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

الاحتفال بالمولد

إن أول من ابتدع الاحتفاء به، هو الملك المظفر، صاحب اربل [1]، فمن هو هذا الملك المظفر؟ وما خبره؟ سأحدثكم عنه هذا الحديث.

* * *

كان الملك المظفر قائداً من قواد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعاملاً من عماله. أما لقب الملك فكان في اصطلاح تلك الأيام يطلق على كل وال أو حاكم، ولو كان والي مدينة، أو حاكم قرية، بل لقد جرت عادة الأيوبيين - وهذا من قبيح عاداتهم، التي أدت الى الانقسام المستمر - أن يطلقوه على الولد من أولادهم، وهو صبيّ، كما يطلق ملوك أوربة على أبنائهم لقب (البرنس).

وكان أبوه من شجعان التركمان، وكان يلقب بـ (كجك) ومعنى كُشُك في التركية، الصغير، لأنه كان قصير القامة، صغير الجسم ولكنه كان قوياً مفرط القوة، جريئاً بالغ الجراءة وكان من

---

(١) وهي ولاية إلى جنب الموصل، ويسمونها اليوم اربيل.

قواد آل زنكي، حضر الوقائع العظيمة، وفتح الفتـوح الجليلـة، وولي أعالي العراق والجزيرة؛ فسار فيها السيرة الحميدة، وأوقف فيها الأوقاف، ولما شاخ وقارب المائة، نزل عما كان يليه، ولم يبق لنفسه إلا مدينة إربل.

وكان ابنه الملك المظفر ـ هذا يدعى كوكبوري، ومعناه في لسانهم (الذئب الأزرق) وكان منقطعاً الى صلاح الدين، رحمة الله على روحه، شهد معه المشاهد كلها، وكان أحد قواده الكبار، وكان من أثبتهم في المعارك قدماً، وأجرئهم قلباً، وأعرفهم بفنون القتال، ما عرف الهزيمة قط.

ولما تضعضع الجيش الاسلامي غداة معركة حطين، وكاد ينكسر ويتمزق، بقي ثابتاً في الميدان مع السلطان صلاح الدين، والملك تقي الدين صاحب حماة في قطعة صغيرة من الجيش، وتلقوا بصدورهم هجمة الافرنج ثم ردوها كما تتلقى صخرة الشاطىء الموجة العالية العاتية، ثم تردّها، وعاد بذلك الجيش الاسلامي إلى مواقعه، وكان الظفر الأبلج، الذي لا تزال تتحدث حديثه العصور.

وفي حصار عكا، كان له مع السلطان أشرف موقف، يعرفه ويعرف أمثاله، من عاد يقرأ هذه الصفحات الغرّ المحجّلات من تاريخنا، صفحات البطولة المعجزة التي احتواها تاريخ « الأبطال الثلاثة »: نور الدين، وصلاح الدين، والظاهر. وأنا أوجب على كل مسلم اليوم أن يقرأها مرة ثانية، ليجدد إيمانه بالله، وبأن

فلسطين ستعود الينا، وليعرف من أين الطريق إلى استرجاع فلسطين.

* * *

أما سيرة الملك المظفَّر في السلم فلم تكن دون سيرته في الحرب، هنالك النجدة والثبات والظفر، وهنا العدل والاحسان والكرم، وليس ذلك عجباً ولا نادراً في ذلك العصر، فان الناس - كما قال القائلون - على دين ملوكهم ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين، كان الامراء مثل الملك المظفر.

لقد قرأت سيرته، وسمعت خبره من شاهد عيان، وعصريّ صادق، هو القاضي ابن خلِّكان، فما دريت أأقرأ سيرة ملك من الملوك؟ أم رئيس جمعية خيرية للمواساة والصدقات والترفيه والاحسان؟ هذا هو عمله الذي يعيش له ويعش منه، ولا همَّ له غيره، ولا عمل له سواه.

ولقد عرفت سير كرماء ضربوا بكرمهم الأمثلة، ولكنهم كانوا يعطون الشعراء والمغنين والسائلين، ويبذِّرون ويضعون الاموال في غير مواضعها. أما الملك المظفر فكان كرمه للناس جميعاً، ولولا ما سنّ من سنن سيئة في يوم المولد، من اللهو والسماع لشهدت بأنه لم يكنَ له من بَابته نظير - أي من أشباهه ونظائره - .

لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة والبذل، لا

للشعراء فما كان للشعراء منه حظ، ولكن للفقهاء والفقراء والوعاظ والمحتاجين، وكان يجلّ العلماء، ويدني مجالسهم. ويستسلم لهم، ويهشّ للوعظ، ويصغي الفوائد.

وكان له كل يوم قناطير من الخبز توزع توزيعاً عاماً على الفقراء، في أماكن خصصها لذلك في نواحي البلدة، فلا يطلب أحد شيئاً منه الا اعطيه، فكان العامة يأكلون خبزهم من ماله، ولا يتكلفون له، ولا يفكرون فيه.

وكان يرى الخبز حقاً لكل انسان، يأخذه مجاناً، كالماء والهواء، وهذه الثلاثة هي ضرورات الحياة، وهي على درجات، أما الهواء الذي لا يصبر عنه الحيّ لحظة، فهو ميسور في كل مكان، أما الماء فيصبر عنه قليلاً، لذلك كان كثيراً موفوراً، وإن خلت منه مواضع، أما الخبز فيصبر عنه أمداً أطول، لذلك كان أقل.

وكان إذا عاد من الديوان، وجد على بابه كل يوم طوائف من المحتاجين فيوزع عليهم الثياب الرخيصة النافعة التي اتخذت لدفع البرد ورد المرض، لا للفخفخة والفخر، ويعطي كلاً عطية صغيرة: دينارين أو ثلاثة.

ورأى المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء - الزَّمنى - والعميان فبنى لهم أربعة مستشفيات. وتلك هي سنة الاسلام، شرع بها من الملوك الوليد بن عبد الملك، ثم صارت شعار الملوك الصالحين من المسلمين، وقرر لهم كل ما يحتاجون اليه من الفرش والحمامات والمراحيض والخدم والممرضين، ورتَّب لهم المطابخ تقدم لهم الطعام

والشراب، وعينّ لهم وعاظاً يعظونهم ويعلمونهم، ومحدثين يقرؤون لهم ويسلُّونهم، وكان يزورهم زيارات مفاجئة، ويقف عليهم واحداً واحداً، يسأل كلّاً عن طعامه وشرابه، وما يشكو منه، وما يشتهيه، ويبرُّهم بالمال والفاكهة والطُّرف.

وأنشأ داراً للضيافة، ينزل فيها كل مسافر ثلاثة أيام، يتغدى فيها ويتعشى، وإذا أراد السفر أعطوه نفقة ومعونة. وفتح مدرسة عظيمة، جعلها قسمين: قسماً للحنفية، وقسماً للشافعية، وأقام لها المدرسين، وجعل لهم وللطلبة المرتَّبات والعطايا، وفتح مدرستين للصوفية!

وكان له عمال يسافرون مرتين في السنة إلى البلاد الساحلية التي كانت بيد الافرنج، يفكون أسرى المسلمين، ويعينوهم على العودة إلى ديارهم.

وجعل للحج بعثة رسمية، تذهب كل سنة مع الحُجاج، تخدمهم وتتعهدهم وتعين الفقير والمنقطع منهم. وأرسل معها ستة آلاف دينار لفقراء الحرمين. وكان له بمكة المآثر الجليلة، منها أنه كان أول من أجرى الماء إلى عرفات ليلة الموقف، وكان الحجاج يشكون قلة الماء، وأنفق فيه النفقات الطائلة.

* * *

وكان يؤخذ عليه، أنه كان على طريقة مبتدعة المتصوفة، الذين يقيمون حفلات السماع، ويتواجدون ويرقصون، ويأتون اعمالاً

ليست من الدين، ولا يعرفها السلف ولا أوائل الصوفيين، وكان مولعاً بها، يزور مدارس الصوفية التي أنشأها لهم فيُجمع له المغنون ـ المنشدون ـ فيسمع منهم، مثل الذي تسميه إذاعة دمشق الأناشيد الدينية، والدين بريء منه [1]، ولم يسمع مثله الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا التابعون، ولا عرفوه، ومن هذه الاناشيد ما لا يخلو من كفر صريح، وسؤال الرسول ﷺ ما لا يقدر عليه إلا الله، ووصفه بما لا يوصف به إلا الله. ومنها ما هو وقاحة وسوء أدب وغزل بالرسول ﷺ ووصف جماله، وذكر للهجر والوصال...

والدين ما كان عليه الرسول وصحبه، ومن زعم أن في المحدثات ما هو من الدين، فقد نسب النقص إلى الشريعة، وادَّعى بأنه زاد في القربة والطاعة على الرسول ﷺ، وسيصدم هذا الكلام كثيراً من القارئين، ويرون فيه غير ما عرفوا وألفوا، ولكنه هو الحق، والحق أحق ان يتبع.

أعود إلى الموضوع. لقد قلت لكم، ان الملك المظفر كان أول من سن الاحتفاء بالمولد، وأنا أنقل اليكم وصفاً لذلك الاحتفاء، نقلاً عن المؤرخ الفقيه ابن خلِّكان وهو شاهد عيان لتروا أنه لم يكن احتفالاً دينياً ولم يكن مجلس عبادة وذكر، ولا مقام طاعة

(١) أي من هذا الفاسد.

وتبتل، وإنما كان (معرضاً) كهذه المعارض التي تقيمها دول أوربة في هذه الأزمان فيه اللهو وفيه الغناء وفيه كل شيء.

كان الناس يتوافدون إلى (إربل) حتى تصير مثل أرض المحشر؛ يصحب كل منهم أهله، ويحمل تجارته إن كان تاجراً، وبدائع مصنوعاته إن كان صانعاً مبتكراً، ويعدُّ خطبه ومواعظه إن كان خطيباً أو واعظاً، وقصائده إن كان شاعراً.

ويقيم المظفر ابنية مؤقتة من الخشب، كل واحدة بطبقات أربع أو خمس يؤجرها لمن شاء، فإذا كان شهر صفر زيّنوها بأنواع الاصباغ والستائر والأوراد والصور والأعلام والأضواء، حتى تكون اعجوبة، ويدع لنفسه وحشمه عشرين منها ينتقل اليها، وكذلك يفعل القواد وكبار رجال الدولة.

ويكون في الباقي جوقات المغنين والممثلين وأصحاب الخيال - شيء مثل كراكوز - وتبطل معايش الناس، وتتعطل المدارس إلى يوم المولد.

والملك يدور كل ليلة فيقف على المغنين وأصحاب الخيال وعلى كل بناء وقبة يتفرج ويعطي العطايا، وكان يجعل المولد سنَةً في الثامن من ربيع الأول وسنة في الثاني عشر منه للخلاف الوارد في تعيين يوم مولده صلى الله عليه وسلم.

وتبدأ الاحتفالات ليلة المولد بسَوق عدد هائل من الإبل والبقر والغنم بالطبول والأناشيد والناس وراءها بالاعلام والمزامير والصياح حتى تذبح ويعدُّ لحمها للولائم، فتقام القدور، ويعد

الطعام الكثير، ثم يذهب إلى المسجد فيخرج من صلاة العشاء وبين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس وراءه حتى ينتهي إلى (الخانقاه) فيقيم تلك الليلة سماعاً عظيماً - أي ما يسمونه اليوم ذكراً، وما هو بالذكر - ويأتي الصوفية بعجائب الانشاد والرقص والتواجد، فإذا كان يوم المولد، نصب له برج كبير فيجلس عليه مع رؤساء دولته، وبرج أوطأ للصوفية والعلماء، ويمر الجيش بين يديه في عرض عظيم، بفرسانه ورجّالته وأعلامه وراياته وطبوله، وجماعات الصوفية والمنشدين، وطلبة المدارس، وعامة الناس ثم يقوم الخطباء والوعاظ. وينشد المنشدون ويخلع على الجميع ويعطيهم، ثم يدعى كل من حضر - وهم آلاف مؤلفة - إلى الموائد فيأكلون جميعاً.

وقد الّف له الحافظ ابن دحية رسالة في المولد كانت أول مولد الّف.

* * *

وقد اختلف العلماء في هذه البدعة التي ابتدعها، فمنعها الاكثر، ومنهم من قال بجواز الاحتفال بالمولد، بشرط خلوِّه من المنكرات، وأنا أرى أن الاحتفال بالمولد، بحيث تنشر في الناس سيرته ﷺ ، ويذاع هَدْيه، ويدعى إلى الاستنان بسنَّته، واتباع شرعته، أمر مطلوب وإن لم يفعله السلف، لأنه من الأمر بالمعروف الذي يحسن في كل وقت. أما قراءة هذه الموالد

المكذوبة، والاجتماع على اللهو والغناء واغتياب الناس وأمثال هذا فلا يجوز أبداً.

هذه سيرة رجل كان من انفع الناس للناس، ومن أعدل الملوك في الرعية، ومن نماذج الحكم الصالح، وكان ذلك طبعاً فيه لا تطبُّعاً، وكان يقدَّم إليه الطعام فيأكل منه لقمة فيستطيبه فيقول: ارفعوه وخذوه إلى فلان الفقيه أو فلان الفقير. وكان يستحسن الثوب فيخلعه ويقول: خذوه إلى فلان الصالح أو فلان المحتاج. وكان قائداً من أبرع القواد ومحارباً من عباقرة المحاربين.

توفي ليلة الاربعاء ١٨ رمضان سنة ٦٣٠ هـ

رحمه الله وغفر له ما أساء فيه.

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

خاتمة

والحق الذي لا يعدل عنـه، هو ما جاء فيه نص صريح، من كتاب أو سنة ثابتة الورود قطعية الدلالة، أما ما كان فيه آية ليست نصاً في المسألة، وحديث يحتمل وجهاً آخر من وجوه الاجتهاد فلا مانع من تعدد الأقوال فيه.

فالدين ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من بعده، ومن زعم أن في المحدثات ما هو من الدين، فقد نسب النقص إلى الشريعة وادعى بانه زاد في القربة والطاعة على الرسول صلى الله عليه وسلم.

﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكم وَأتممتُ عَليكم نعمتي وَرَضيتُ لكم الاسلامَ ديناً ﴾ [١]

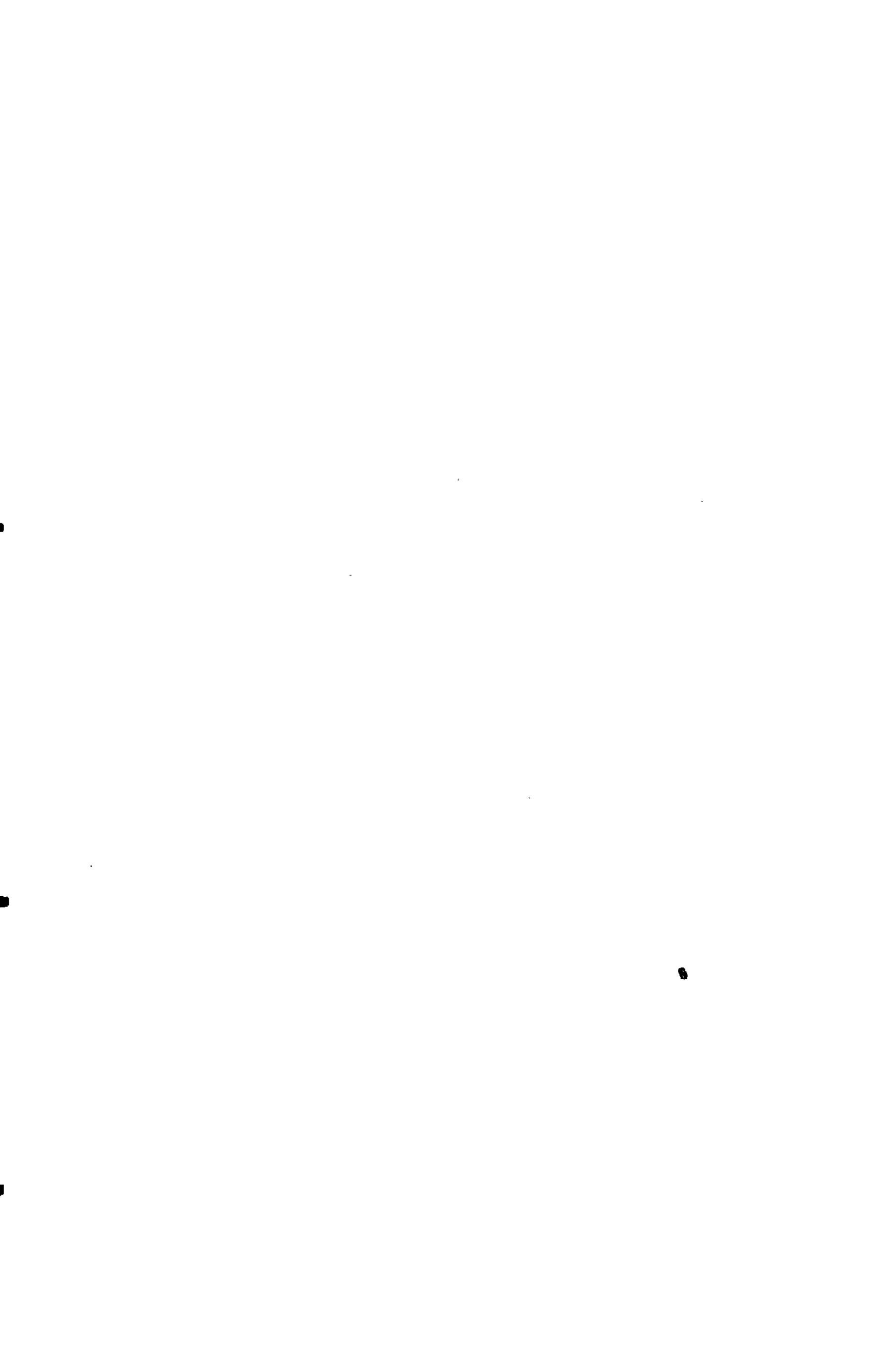
نسأل الله تعالى أن يجنبنا الزلل، ويبعد عنا الشيطان، ويهدينا سواء السبيل.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) المائدة : ٣.

لم هذا الرعب كله من الإسلام ؟

جمع الأستاذ
جودت سعيد



بسم الله الرحمن الرحيم

لم هذا الرعب كله من الاسلام؟

١ ـ من المفيد أن نعرف الافكار والنتائج التي وصلت اليها عناصر الاستطلاع وجهود المتنبئين للمستقبل من الغربيين، لأن النتائج التي يصلون اليها قد تكون مفيدة بالنسبة لنا سواء كانت هذه النتائج صائبة أم خاطئة اذا عرفنا أن نضعها في موضعها.

فمن أواخر القرن الماضي الى يومنا هذا تتوالى الدراسات والبحوث في اوروبا وأميركا عن الشرق سواء كان باسم الادنى أو الاوسط او الاقصى أو آسيا أو افريقيا، فعلى اختلاف انواع الدراسات يتبين من الأساليب المختلفة التي يستعملونها اهمية الاسلام في افكار هؤلاء الدارسين المستطلعين للاحوال الحاضرة والمستنبطين للامور المستقبلة.

وليس هذا الاهتمام مما يخفى على الباحث العادي بل يظهر بأدنى تأمل في صور متعددة منها ما يتلبس بالحذر المتطور الى الخوف والرعب ومنها الشامت المغير ومنها المغري بالاغارة او الالهاء.

٢ ـ ان هذه المواقف التي يقفونها عبّر عن دوافعها (ليو بولد فايس : محمد اسد) في قوله : « ان هذه المواقف المختلفة غير المطمئنة التي يقفونها سببها انهم عرفوا ـ ولو لا شعورياً ـ ان الفكر

الاسلامي هو الفكر الكفء الرزين الذي يمكن أن يقف امام الفكر المعاصر وينزله منزلته الصحيحة من غير محاباة ولا ظلم فلا يعطيه اكثر مما يستحق ولا يبخسه حقه.

فهم يتضايقون من هذا الموقف ويأنفون ان يروا من يقف معهم على هذا النحو، فلذا يعجزون عن كتم هذه المشاعر ».

٣ ـ وكنت اعجب اول الامر حين يظهر لي هذا التوجس والخوف والرعب من مطالعاتي ، فبعضهم كان يطرح الموضوع كاحتمال وتوقع، ومن هؤلاء : جورج سارتون الاميركي الذي عبر عن هذا الاحتمال في رسالته (حضانة الشرق الاوسط للثقافة الغربية) . قال :

« ان المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة العربية وذلك بين القرن ٩ ـ ١٢ كانت عظيمة لدرجة تخمل افهامنا. وان شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم في مرحلتين طوال الفي عام على الاقل قبل أيام اليونان وفي العصور الوسطى لمدة أربعة قرون.

وليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد »

٤ ـ ومن هؤلاء الذين تعرضوا لهذا الموضوع « لوثروب ستودارد الاميركي حيث اشار الى اهتمام المعنيين من الاوروبيين والاميركيين بقوة الاتحاد الفكري الموجود عند المسلمين والروابط المتينة التي عجزوا عن فصلها، فهو يشير الى الآراء المقترحة لوسائل هدم هذا

الاتحاد فيذكر منها هدم النظام السياسي الملتحم مع العقيدة (الخلافة). ثم أن المؤلف نفسه لا يرى وجاهة هذا الرأي فيذكر للاتحاد سبباً آخر غير ذلك ويعتبر السبب الحقيقي في رأيه هو الركن الخامس من اركان هذا الدين (الحج) ثم يفصل في تبرير وجهة نظره فيقول :

(الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي، وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة، أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتفَّ من حوله المهاجرون والانصار معتصبين معه بعصابة الاسلام لقتال المشركين. وقد ادرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الادراك، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام في قلوب المؤمنين، فغرس غريستها بيديه في نفوسهم، فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت اغصانها وفروعها وأينعت ثمارها. فقد كرَّ عليها أكثر من ١٣ قرناً فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً، ولاضعضع لها كياناً، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً.

حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين غير المسلمين، ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون قتالاً شديداً بعضهم مع بعض، بيدْ أن هذا الجدال ليس له من الشأن أكثر مما لأحقر نزاع

ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة المشتبكة الأرحام من الشأن، إذ لاحقد في الاسلام. فعند الشدائد تذهب الأحقاد بين المسلمين فيصطلحون على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جموعاً متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم.

ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلينظر الى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سر الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين.

وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لابنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمساك بعروتها كدين الاسلام.

وعلى اختلاف أجناس المسلمين واتساع آفاق بلادهم لم يسمع قط شعباً قليلاً كان أو كثيراً انتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه.

قد حدث أن أجلي المسلمون عن بعض البلاد التي كانوا فتحوها وشيدوا فيها ملكاً ودولة كالاندلس، غير ان اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائغ اعتباره جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام. إن الوحدة الاسلامية انما هي قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما :

الحج الى بيت الله الحرام والخلافة

وقد غلب على رأي الكثيرين من رجال الغرب وهْمٌ في هذا الموضوع، فهم ما برحوا يخالون الخلافة لا الحج العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولاً وعواطف تشاركاً مؤدباً

الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها، على أن هذا لمن الوهم الصرف، فالأمر حقاً على الضد منه.

ان محمد ﷺ قد فرض الحج [1] على من استطاعه فرضاً مقدساً، ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام اكثر من مائة الف حاج [2]، وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي، وهناك امام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الالسنة والاجناس، ويتباثُون العواطف الدينية، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية، ثم ينقلبون الى اوطانهم نائلين لقب الحاج لقباً يُعرف صاحبه بالتقوى، فيجلُّه اخوانه المسمون، ويعلون منزلته بينهم ما دام حياً.

فالمقاصد والاغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل، انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح، بل يكفي ان نقول ان الحج هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام، فيه يتباحث الوفود الاسلامية، والنواب المسلمون الطارئون من اقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام، والذب

---

(١) هذا كلام لوثروب. أما المسلمون فيعتقدون أن الله عز وجل هو الذي يفرض ويشرع، والرسول صلى الله عليه وسلم كان مبلغاً ومفسراً لأوامر الله تعالى.

(٢) كان هذا عدد الحجاج منذ ثلاثين عاماً، أما الان (١٤٠٣ هـ) فقد قارب عددهم الثلاثة ملايين حاج.

عن حياض المسلمين، ونشر الدعوة في سبيل الرسالـة. وفي هذا المؤتمر العظيم كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وابطالها كمحمد ابن عبد الوهاب والسنوسي وجمال الدين الافغاني تشعـر بجـلال الواجب الاسلامي المقدس، وتتقد من خطـورة المشهـد وروعـة المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين.

أما الخلافة فقد كان لها ـ حقاً ـ شأنٌ تاريخيٌ عظيمٌ ولاسيما في اوائل عهدها. ولـكن أخـيراً أفضـت في النهـاية الى أن أُطفـيء سراجها الوهاج، فانقلبـت الى صورةٍ وهميةٍ. وسلاطـين التـرك اتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة الاسمية، بيد أن سلاطين الترك في القسطنـطينية ما كانوا ليحرزوا من المكانة الدينية في العالم الاسلامي مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بني العباس في بغداد.

وقد جهد السلطـان عبـد الحميد جهـداً كبـيراً لاحياء عظمـة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلال والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الديني، بل بسبب الشعور العام الذي ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى.

هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة اوروبا حتى وجلوا من عبد الحميد فحسبوه في الاسلام كالبابا في النصرانية. وما زلنا نرى حتى اليوم اكثر ساسة الغرب يهَمُونَ في ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية إنما كان ومبعثها الخلافة.

ونرى ايضاً غالب حملة الاقلام يفيضون في الكلام فيما إذا استبقيت الخلافة في السلطان التركي على ظَلعِه [1]، أو نقلت الى شريف مكة، أو قضي عليها القضاء الاخير. وأي هذه الوسائل تكون خيراً لهيض جناحي الجامعة الاسلامية؟

ان هذا ـ وايم الحق ـ لغاية ما يرتكب من الخطل، لا ينكر ان الخلافة ما برحت رفيعة المكانة في عيون المسلمين بلا ريب، غير ان قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ذوي العقول الثاقبة والذكاء المتوقد، ما فتئوا منذ عهد بعيد يجدُّون في سبيل الجامعة في نطاق اوسع وأفق أبعد وقد ايقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التي تستمدها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ولكن من بيت الله الحرام حيث الحجيج إذ يأتمرون كل عام مؤتمراً عظيماً، ومن إنشاء الطرق الدينية المؤدية إلى الجامعة الاسلامية كالطريقة التي أنشأها السنوسي [2].

٥ ـ ومن هؤلاء الذين تناولوا هذا الموضوع المستشرق الانكليزي المعاصر (جب) حيث طرح هذا التساؤل : هل يمكن أن نقع يوماً ما تحت وطأة الخطر الاسلامي؟ فحاول أن يذكر الأجوبة المختلفة من استبعاد هذا الخطر أو توقعه. ثم اضاف الى

---

(١) أي عرجه.

(٢) صفحة ٧٢ من كتاب حاضر العالم الاسلامي تأليف لوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض.

ذلك كله فقال : « أجل إنهم اليوم ضعاف متفرقون لا نرى عزماً اكيداً لدى شبابهم يحملهم على التضحية، ولا نرى عند ذوي الرأي والوجاهة فيهم انهم يستطيعون الجلوس معاً جلسة جدية يتحدثون فيها عن مشاكلهم فضلاً من أن يتمكنوا من حلها ».

ثم يصف حالة العالم الاسلامي كما يراه فيقول :

(ففي طول ثلاثة عشر قرناً ونصف من تاريخ الاسلام يصعب أن نشير ـ حتى سنوات قليلة ـ الى حالة واحدة اجتمع فيها ممثلون من جميع اصقاع العالم الاسلامي ليتشاوروا في مشاكل تعنيهم جميعاً وليقرروا اتباع طريق واحد في العمل ولكن من ۱۹۰۰ نرى فكرة عقد المؤتمرات الاسلامية تشق طريقها الى الامام شيئاً فشيئاً..

فيصف احد هذه المؤتمرات فيقول :

اجتمع على غرض نظري.. أما هيئته فكانت فيها اغلبية ساحقة من رجال الدين وكانت نتائجه سلبية (كما كان ينتظر) أما اللجان الدائمة التي وضع نظامها مقدماً فالظاهر انها لم تبرز الى عالم الوجود، كأن في الأمر حظ من الجد قليل جداً وكانت وسائل البحث من الطراز العتيق الذي لا يتلاءم مع حاضر العالم الاسلامي.

ثم قال بعد أن استعرض ما يمكن أن تؤدي اليه اهداف هذه المؤتمرات :

وحتى اذا زعمنا أن العالم الاسلامي يمكنه اخيراً أن يجد في هذا

النظام وسيلة يستثمر بها موارد القوة الهائلة التي تملكها شعوبه أحسن ما يكون الاستثمار، فان المؤتمرات وما شاكلها لن تؤدي البتة الى بلوغ هذه الآمال، ولا نستطيع القول انها ستبلغ غايتها حتى بعد مدة طويلة من الزمن. ولكن ينبغي ألا نبالغ في تقدير طول هذه المدة لأن هناك ظاهرة كثيراً ما يهلمها الباحثون في حركات المجتمع الاسلامي مهما كان نوعها وهي انها تنضج بسرعة مدهشة حتى أن وجودها ـ كما اشار الاستاذ ماسينيون ـ يندر أن يخطر على بال احد قبل أن يندلع لهيبها ويروع العالم. والمسألة الكبرى هي مسألة الزعامة [١] فحينما يجد الاسلام « صلاح الدين » [٢] الجديد رجلاً يجمع بين الحنكة السياسية العظيمة وبين شعور برسالته الدينية يبلغ اعماق نفسه فان ما عدا ذلك ينحل من تلقاء نفسه [٣]).

٦ ـ ونحو هذا ما ذكره الدكتور احمد شوكت عن (البرمشادور) الذي تناول الحديث عن المسلمين فقال: (إن هذا المسلم الذكي الشجاع قد ترك لنا حيث حل آثار علمه وفنه، آثار مجده وفخاره، ان هذا المسلم الذي نام نوماً عميقاً مئات السنين قد استيقظ وأخذ

---

(١) مالك بن نبي له رأي في هذا الموضوع في آخر كتاب شروط النهضة حين تحدث عن خرافة الرجل الوحيد والشيء الوحيد.

(٢) يعني به صلاح الدين الايوبي.

(٣) كتاب وجهة الاسلام لجب ص ٢٣٢.

ينادي ها أنذا لم امت. إني أعود الى الحياة لا لأكون أداة طيعة أو كتلا من البشر تسيرها العواصم الكبرى) ثم يقول : (ومن يدري؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الفرنج مهددة بالمسلمين فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب أو الزمن الموقوت. لست أدَّعي النبوءة، ولكن الامارات الدالة على هذه الاحتمالات كثيرة لا تقوى الذرة ولا الصواريخ على وقف تيارها).

٧ - إنهم يعبرون عن هذا المعنى بأساليب مختلفة ووجهات نظر متعددة، إلا أن الجميع يتفقون على توقع الخطر وموضع الخطر فيكتب في مجلة (التاريخ الجاري) الأميركية مقال بعنوان « محمد ﷺ يتهيأ للعودة » ويعقب ذلك عنوان آخر معناه : إن المسلمين رقدوا ٥٠٠ عام وهم يتحركون الآن ويتوثبون إلى السلطان.

٨ - والأدعى للتأمل من ذلك ما يذكر عن نابليون من أنه تنبه حين وجوده في الشرق إلى ذلك، وإن كان نظر الى الموضوع نظراً آخر، وهو أن يستغل هذه القوى. وقد قيل عن أفكاره في هذا الموضوع شيء كثير، ومن ذلك ما ورد في مذكرات المؤرخ « لاكاز » فقد سأل « لاكاز » الذي رافق نابليون إلى جزيرة « سنت هيلانة » وقيد جميع ما سمعه من أحاديثه.

سأل لاكاز عن هذا الموضوع نابليون، فاعترف له انه كان عزم على الدخول في الاسلام ويشيع ذلك في جيشه ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات بحيث يتمكن

بعمله هذا من الاستيلاء على الشرق. ونحن لا يهمنا صدقه في اعتناقه الاسلام لأنه كان لا ينظر الى ذلك الا من جهة الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها بواسطته، ولاسيما اذا تذكرنا ما نقل عنه « غوستاف لوبون » من قوله في مجلس شورى الدولة :

(لقد أنهيت حرب « فاندة » بانتحالي الكثلكة، واستوليت على مصر بانتحالي الاسلام، واستملت قساوسة ايطاليا بانتحالي مبادىء البابوية. ولو ملكت شعباً يهودياً لأعدت هيكل سليمان).

الا أن الذي يعنينا هنا هو تنبيهه السريع الى الطاقات الكامنة في العالم الاسلامي في وقت مبكر، وتفكيره في الطريقة التي يمكن أن يستغل بها هذه الطاقات.

إنه كان يعلم أن وراء خمول هذه الامة خزائن لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة، وكان يؤمن أنه إذا وفق الى ايقاظ هذه الامة يمكن أن يغيروجه الارض قاطبة، لهذا كان يرى أنه لا بد أن يكون في نشأة هذه الأمة سر لا تعلمه، وان هناك علة أولى مجهولة ـ كما جاء في مذكرات سانت هيلانة ـ

٩ ـ ونجد تطور هذه الفكرة في صورة اخرى في حديث رجل فرنسي مع طلابه ابان الاحتلال الألماني لفرنسا في الحرب العالمية الثانية ينقله رجل من العرب شاهد عيان، حيث كان يتلقى العلم هناك في ذاك الوقت.

ان هذا الاستاذ الفرنسي قال لمن يريد أن يربيهم للمستقبل من أبناء بلاده ـ منبهاً إياهم ومعزياً لهم عن الاحتلال الالماني ـ (إن

الخطر الذي داهمهم من الالمان ليس هو الذي يخافه عليهم وعلى مستقبلهم، وإنما الخطر الجدير بالخوف هو ما يمكن أن تأتي به هذه الشعوب التي تربض خلف البحر الابيض المتوسط، لأن خطرها هو الذي يهز الكيان ويزلزل الاركان).

١٠ ـ ونحو هذا ما صرح به « سالازار » في حديث له مع بعض الصحفيين، من أن الخطر الحقيقي إنما هو الذي يمكن أن يحدثه المسلمون من تغيير نظام العالم. فقيل له : إنهم في شغل عن أن يفكروا في هذا بخلافاتهم ونزاعاتهم. فقال : إني أخشى أن يخرج من بينهم من يوجه خلافهم الينا.

١١ ـ وعبر عن هذا « مرماد يوك باكثول » بطريقة أخرى، وهي أن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم في الدنيا الآن بنفس السرعة التي كانوا نشروها بها سابقاً اذا رجعوا الى الاخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الاول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع أن يقف امام روح حضارتهم.

١٢ ـ ولأحد الألمان المستطلعين للامور قولٌ في هذا، وهو أنه يخشى أن تتحول الجامعة العربية الوهمية الخيالية الآن الى جامعة حقيقية فتقع اوروبا في خطر أعظم من الخطر الأصفر الذي كانوا يخافونه.

١٣ ـ وذكر هذا « لورنس براون » بوضوح اكثر حين قال : لقد كنا نُخوف بشعوب مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف. لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر

الاصفر ـ باليابان وتزعمها على الصين ـ وبالخطر البلشفي، الا أن هذا التخوف كله لم نجده كما تخيلناه لأننا وجدنا اليهود اصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد. ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا اثناء الحرب العالمية الثانية. أما الشعوب الصفراء فان هناك دولاً ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها. . ولكن الخطر الحقيقي كامن في المسلمين وفي قدرتهم على التوسع والاخضاع وفي الحيوية المدهشة العنيفة التي يمتلكونها. ألا انهم السد الوحيد في وجه الاستعمار الاوروبي.

١٤ ـ ومن هذا ما ذكره احد المكافحين من رجال المغرب في محاضرة له، فقد ذكر قول احد جنرالات فرنسا الذي قدم للمحاكمة بتهمة التقصير في اداء الواجب في الجزائر، فكان من جوابه لهم « كيف تطلبون مني أن أصل الى ما تريدون من مقاصد في شعب يظل الواحد منهم ـ حتى بعد أن ندوس على رقبته ـ لا يزال يحمل في قلبه رسالة يشعر انه ينبغي أن يؤديها في قلب فرنسا ».

١٥ ـ يقول احد علماء السوربون في مؤلفاته : ان العالم فيه ثلاث قوى ... قوة الشرق وقوة الغرب، وهناك قوة ثالثة لو عَرفت نفسها لأمكنها أن ترث القوتين. وهذه القوة هي القوة الكامنة وراء يقظة المسلمين لأن لهم نظرة انفردوا بها عن العالم في تنشئة الرجال.

١٦ ـ ألف « غوستاف يونج » كتاباً تحدث فيه عن الحساب

الأخير الذي اقترب. الحساب الذي سيتولى القيام به العالم الاسلامي ضد اوروبا الاستعمارية والصهيونية التي تحاكيها، وخلاصة مؤلفه : « ان العالم الاسلامي قد افلت من قبضة الموت الذي اعده ونسق اكفانه الاستعمار الاوروبي، وان العالم الاسلامي يسرع الخطى الى الشباب ليصفي حسابه مع الاستعمار الاوروبي الصهيوني وهو حساب عسير رهيب ».

١٧ - وفي تاريخ محاضرات عن الشرق الادنى حررها « أ. البا » جاء هذا التساؤل : « ماذا كانت حال العالم لو أن المسلمين انتصروا علينا؟ اذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين ».

١٨ - ونختم انباء هذه التنبوءات والاستطلاعات بالتفصيل الادق الذي جاء في كلمة لأحد المسؤولين في وزارة خارجية فرنسا ١٩٥٢ قال : « ليست الشيوعية خطراً على اوروبا فيما يبدو لي فهي حلقة لاحقة لحلقات سابقة واذا كان هناك خطر فهو خطر سياسي عسكري فقط، ولكنه على أي حال ليس خطراً حضارياً، تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والانساني للزوال والفناء.

ان الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديداً مباشراً عنيفاً هو الخطر الاسلامي، والمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات اصالة، وهم جديرون ان يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة الى « الاستغراب » أي دون حاجة الى اذابة

شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية. وفرصتهم في تحقيق احلامهم هي في اكتساب التقدم الصناعي الذي احرزه الغرب، فاذا اصبح لهم علمهم واذا تهيأت لهم اسباب الانتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الفتي، وانتشروا في الارض يزيلون منها قواعد الروح الغربية ويقذفون رسالتها الى متاحف التاريخ.

وقد حاولنا خلال حكمنا الطويل في الجزائر ان نتغلب على الشخصية التاريخية لشعب هذا البلد فلم نأل جهداً في صوغ شخصية غربية له، فكان الاخفاق الكامل نتائج مجهودنا الضخم الطويل.

ان العالم الاسلامي يقعد اليوم فوق ثورة خيالية من الذهب الاسود والمواد الاولية الضرورية للصناعة الحديثة، وهو في حاجة الى الاستقلال في استغلال هذه الامكانيات الضخمة الكامنة في بطون سهوله وجباله وصحاريه،فهو في عين التاريخ عملاق مقيد، عملاق لم يكتشف نفسه بعد اكتشافاً تاماً، فهو حائر، وهو قلق، وهو كاره لماضيه ـ في عصر الانحطاط ـ راغب رغبة يخالطها شيء من الكسل، او بعبارة اخرى من الفوضى في مستقبل احسن وحرية اوفر. فلنعط هذا العالم ما يشاء، ولنقوِّ في نفسه الرغبة في الانتاج، ولنصنع له ما يشاء من منجزات الصناعة الحديثة، شرط أن نبتعد به عن حقل الانتاج الصناعي والفني فاذا عجزنا عن

تحقيق هذه الخطة وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعـور بعجزه عن مجاراة الغرب في الانتاج فقد بُؤنا بالاخفاق الـذريع، واصبح خطر العالم العربـي ومـا وراءه من الطاقـات الاسـلامية الضخمة خطراً داهماً يتعرض به التراث الحضاري الغربي لكارثة تاريخية ينتهي بها الغرب وتنتهي معه وظيفته القيادية ».

ومن جملة ما نفهم مما سبق :

سمات رجل الحضارة الاوروبي ومفاهيمه

١٩ ـ فمن مفاهيم هذا الرجل ان العدل والحق والكرامة ليست من حقوق الانسان لأنه انسان، بل لأنه يحمل سلاحاً ويُعطى له الحق لأنه يستطيع أن يأخذه بقوته إن لم يعطه فهذا المفهوم المتسلط على رجل الحضارة الاوروبي يجعله يرتعب جداً لأنـه يشعـر أنـه سيفقد الكرامة والعدل والحق اذا ملك غيره مثلما يملك او اكثر. فاذا استحضر هذه الصورة فقد السيطرة على نفسه. واوضح مثل على ذلك فكرة الأرض المحروقة في الجزائـر فهـي أثـر محلي لهـذا الشعور عند المستوطنين الفرنسيين. فرجل الحضارة الاوروبي لم ينس تاريخه، فهو يعرف كيف عامل الناس كأنه مروِّض وحوش منذ ثلاثة قرون، فشعر لذلك بذنبه فحصل عنده اضطراب نفسي وتسلط عليه الشعور بالاساءات التـي صدرت منـه والخـوف من القصاص لأن الامر اخذ يخرج من يده الى يد غيره فما يعرف كيف سيكون موقفه غداً، فهو كالمجـرم الـذي شعـر أن حرية اجرامـه

اخذت تضيق عليه يوماً بعد يوم، وبدأ يتصور انه ربما وقف أمام العدالة.

فهذا الانسان لم يعد سوياً لأنه نتاج حضارة غير سوية فهو لا يمكن أن يتصور العيش الا قوياً ظالماً أو ضعيفاً مظلوماً لأن فلسفته الحضارية كذلك. وكذلك فهم تنازع البقاء، وهكذا عاش ولا يزال يعيش.

ان العالم اليوم في حاجة الى حضارة تنتج انساناً يشعر اذا مشى بين الناس بأنه آمن لا لأنه يحمل سلاحاً لا يحمل غيره مثله بل لأن له مفهوماً عن السلاح والانسان مخالفاً للمفهوم الذي كان للحضارة التي آذنت شمسها بالمغيب.

فالانسان الجديد المنتظر ناتج الحضارة الجديدة يمكن أن يكون حريصاً جداً على السلاح ولكن لا ليعيش ظالماً بل ليمنع الظلم وينشر الأمان.

أظن أنك يمكن أن تضحك وتضحك كثيراً لو رأيتَ رجلاً يمتقع لونه إذا رأى شرطياً يحمل سلاحاً ثم يأخذ يحدثك برعب عما يمكن أن يقوم به هذا الشرطي من الافساد. فهذا الرجل المتقع اللون قد يكون عقله الكترونياً ودخله كبيراً جداً، وقد يكون رائداً للفضاء ولكن مفهوم حضارته ملازم له مع كل هذا فهو إما قوي ظالم أو ضعيف مظلوم، قد استولى عليه هذا المفهوم وتأصل فيه، ولا يمكن أن يتصور غير ذلك. فكرة رسخت وترسبت منذ قرون. فاذا جاء الى هذا الرجل المتقع اللون الواقف عند مركبته الفضائية

أحد الحفاة الحديثي السن الرث الثياب من رعايا المستعمرات في الجنوب العربي وقال له لا تخف من هذا الشرطي الذي يحمل القنبلة الروحية ـ وان كان انفجارها أشد تأثيراً من انفجار المادة ـ أو أنه قد يركب البراق ليخترق السبع الطباق لأن المجتمع الذي يعيش فيه هذا الشرطي يفهم وجهاً ثالثاً لحياة الانسان لم يستطع أن يصل اليه عقلك الالكتروني بعد، فهذا الوجه الثالث هو أن حضارتنا لا يشعر الانسان فيها بالأمن لأنه قوي مسلح بل يشعر فيها بالأمن لأنه غير ظالم. فهنا يتحول امتقاع لونه الى انفعال جنوني ويقول : هذا الهزيل المهلهل الثياب اخطر من الشيوعية لأن الشيوعية لم تخرج عن مفاهيمنا بعد ولكن هؤلاء الحفاة العراة هم الذين في امكانهم أن يحولوا حضارتنا الى متحف التاريخ ويزيحونا عن مكان القيادة، ويمحوا فلسفاتنا عن الوجود، لأن مثل هذه الافكار الخطرة التي يحملها هذا الفقير أعمق اثراً في نفس الانسان من دعوة العمال أو حماية رأس المال.

فلنصنع لهم السيارات ولننتج لهم البرادات ولنبتكر لهم الافلام وما لم يخطر على بال احد من وسائل اللهو حتى لا يفكروا ولا يصنعوا، والا فسيؤول حالنا الى :

ما تنبأ به المستر غلادسون [1] واعلنه في مجلس العموم البريطاني قبل أن يحل هذا القرن حين قال : ما دام هذا القرآن الذي يحمله

---

(١) سياسي بريطاني ولد سنة ١٨٠٩ ومات سنة ١٨٩٨.

المسلمون موجوداً فلن تستطيع اوروبة السيطرة على الشرق ولا أن تكون أوروبا نفسها في امان .

أما بالنسبة لنا فإنا أظن أنه من المفيد أن نذكرهم أننا من عاداتنا أن نقول في مثل هذه المواقف :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » ولكن الذي ينبغي لنا أن نسعى اليه هو الوصول إلى ذلك اليوم الذي يحق لنا فيه أن نصدر هذا الحكم .

فهناك نكون قد حللنا عقدة رجل الفضاء ذي البشرة البيضاء فيعود سوياً ويزايله القلق الممض ويشعر براحة عظيمة وسعادة تامة ما كان يحلم بها حتى يوم كان يقوم بدور المروض لأن الرعب ما كان يفارقه .

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

مراجع البحث *

١ ـ من كتب العقاد .

٢ ـ الطريق الى مكة « محمد أسد » .

٣ ـ الشرق الأوسط في مؤلفات الأميركيين .

٤ ـ حاضر العالم الاسلامي .

٥ ـ وجهة الاسلام « جب » .

٦ ـ مجلة المعرفة « السنة الثانية » .

٧ ـ مجلة الرسالة، مقال للعقاد بعنوان : يهمون به هل يعرفونه؟

٨ ـ محمد رسول الله « ايتيان دينية » .

١١ ـ مجلة المباحث للعشماوي من مقال لمحبّ الدين الخطيب .

١٣ ـ التبشير والاستعمار .

١٤ ـ من محاضرة للفضيل الورتلاني .

١٥ ـ من محاضرة لمصطفى الحفناوي نشر مجلة الازهر .

١٦ ـ دولة القرآن « عبد الباقي سرور » .

١٧ ـ مقدمة نداء الاسلام « رمضان لاوند » .

١٨ ـ من اتجاهات الفكرة الافريسيوية « مالك بن نبي » .

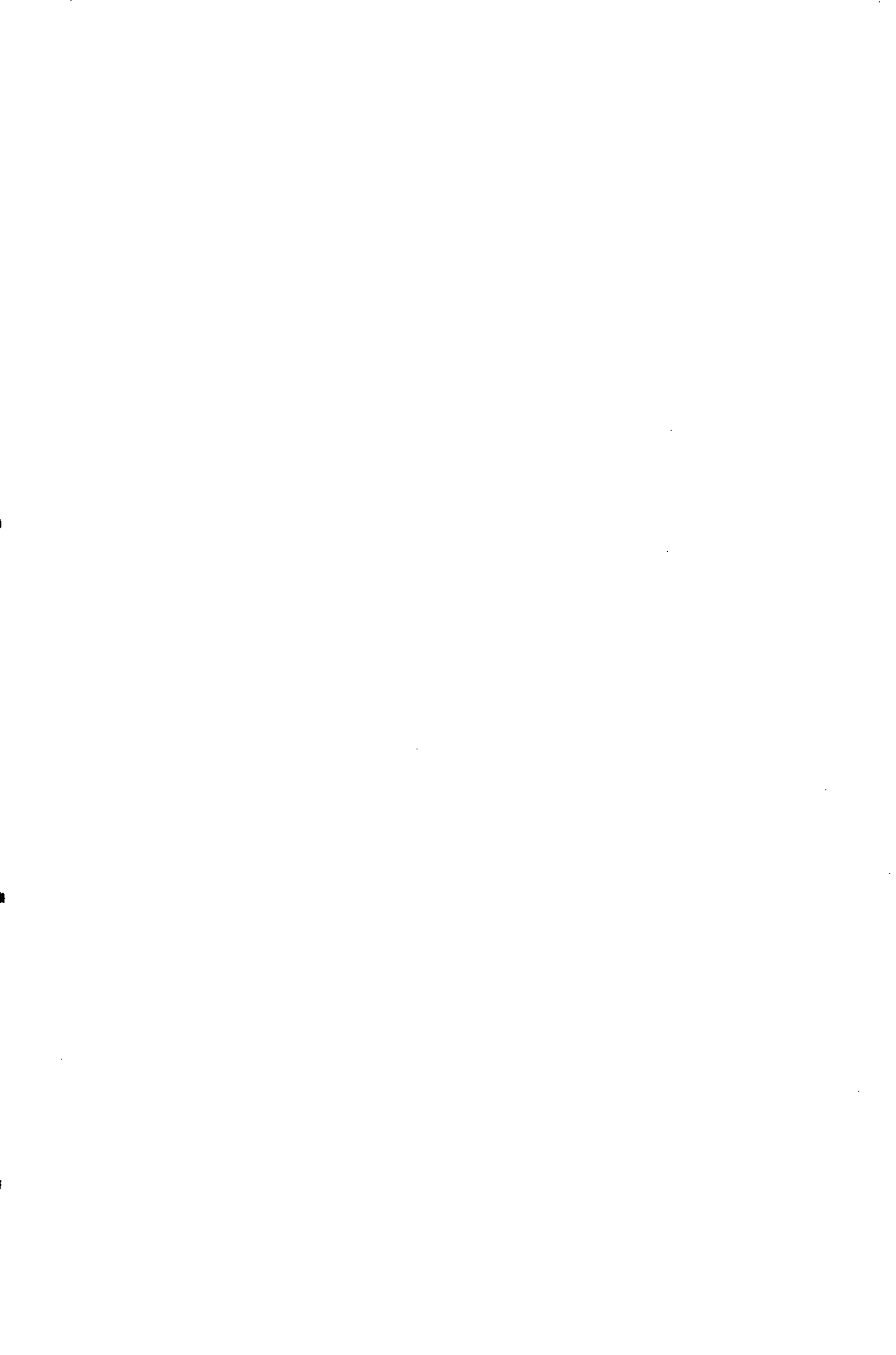
١٩ ـ الاسلام على مفترق الطرق « محمد أسد » .

---

* كل فقرة من فقرات البحث يقابلها مرجعها .

جمال الدين الأفغاني

للأستاذ
محمد سعيد الطنطاوي



بسم الله الرحمن الرحيم

هو السيد محمد جمال الدين بن صفتر ـ أو صفدر، ومعناها مخترق الصفوف ـ الحسيني الأفغاني. ولد بأسعد آباد من أعمال كابُل قاعدة بلاد الافغان سنة ١٢٥٤ هـ، فهو اذن شريف النسب ينتمي الى الحسين بن علي رضي الله عنهما، ولما كان في الثامنة من عمره، انتقل به والده الى كابل، وألحقه ببعض مدارسها القديمة، فأخذ على اساتذتها علوم العربية والتاريخ والانشاء، والعلوم الدينية والفلسفية على اختلاف انوْاعها، ولما أتم دراسة هذه العلوم على الطريقة القديمة، رحَل الى الهند، فدرس فيها بعض العلوم الحديثة، وتعلم اللغة الانجليزية، فجمع بذلك بين الثقافة القديمة والحديثة.

وتعلم الفرنسية وهو كبير، أتى بمن يعلمه الحروف الهجائية، ثم انفرد بتعليم نفسه نحو ثلاثة اشهر، يحفظ من مفرداتها، حتى استطاع ان يقرأ من كتبها ويترجم منها، ثم توسع في ذلك أثناء اقامته في باريس.

وفي سنة ١٢٧٣ هـ توجه الى الحج ودعا خلال ذلك الى فكرة الجامعة الاسلامية، لايقاظ المسلمين وتنبيههم الى اخطار الاستعمار، وأنشأ لهذا جمعيةً سماها « جمعية ام القرى »، ومجلةً تحمل نفس الاسم.

ثم عاد الى أفغانستان، واتصل بأميرها « دوست محمد خان » ثم اتصل من بعده بالأمير « محمد أعظم »، فجعله رئيس وزرائه لينهض ببلاد أفغانستان حتى تقوى على رد الطامعين فيها من الانجليز وغيرهم، فعمل الانجليز على اثارة الفتن في أفغانستان، حتى تمكنوا من عزل الامير « محمد اعظم » وتولية أمير آخر يرضون عنه، فأخذ جمال الدين يعمل على إثارة الشعب الافغاني على الانجليز والامراء المستبدين ليقضوا على نفوذ الانجليز في بلادهم.

ثم أراد أن يجعلها ثورة إسلامية عامة على الانجليز وغيرهم من الأوربيين الطامعين في المسلمين، وكأن الاسلام قد أعدَّه لهذه الثورة بما منحه من لسان فصيح، وقلب قوي، وثقافة واسعة، فرحل الى الهند وأخذ يدعو الى الاصلاح الديني والسياسي والعلمي والاجتماعي بين أهلها، حتى ضاق الانجليز به واحاطوه بجواسيسهم في كل حركاته وسكناته، واضطروه ان يرحل من الهند الى مصر، وذلك سنة ١٢٨٦ هـ .

واقام بمصر اربعين يوماً، ليتركها الى استنبول بدعوة من السلطان عبد العزيز، ولكن اصراره على دعوته لتنبيه المسلمين من غفلتهم، وشدته في ذلك، اثارت عليه عدداً من العلماء، الذين لم يألفوا الأسلوب الجديد، ولم تهدأ الفتنة بينهم إلا برحيله عنها الى مصر عام ١٢٨٨ هـ .

وبقي في مصر ثمان سنين ينبه النفوس، ويوقظ العقول، ويثير

الناس على الاستعمار والاستبداد. ويواصل في الوقت نفسه دروسه لخيرة الطلاب، لتثقيفهم وتعويدهم على النظر الواعي والتفكير الصحيح. وكان يأخذ بتلاميذه فيرفعهم الى مستوى يسيطرون فيه على الكتاب، ولا يستعبدهم الكتاب، ويسْمون عن قيود الالفاظ والجمل الى معرفة الحقيقة ذاتها. وكان من انبه هؤلاء الطلاب الشيخ محمد عبده، الذي أصبح من أعلام عصره في مصر.

ولم يكتف جمال الدين بهذه الدروس التي كان يثقف بها هؤلاء الطلاب ويهذبهم، فأخذ يعقد الندوات، لبث الوعي الصحيح، على أوسع نطاق يستطيعه. ولما استبطأ هذا أيضاً ورآه أضيق من جهوده وحماسه، انتسب الى المحفل الماسوني ليكون ميداناً له يبث فيه آراءه بحرية، فلما تبين له أن اعضاءه إنما يتشدقون بالالفاظ الرنانة ليخفوا بها حقيقتهم الكالحة، وانهم كرهوا كلامه ومحاولاته، ووقفوا في طريقه، نقدهم باسلوبه العنيف، وقرَّعهم بقارص الكلام، واستقال من محفلهم لينشيء محفلاً آخر يكون فيه مطلق الحرية، فعظم الاقبال عليه، واتسعت دائرة نشاطه، واحدثت هزة في البلاد لا تقل عن الهزة الفكرية التي احدثتها بدروسه وندواته.

●●●

ماذا كان يريد السيد جمال الدين في مصر؟

كان يريد في درسه النظامي توسيع عقول الطلبة وتفتيح آفاق

جديدة في فهم العالم، وتعليم الحرية في البحث، وايجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتنقد وتحكم، خالفت النص او وافقته [1]، خالفت المألوف المعروف أو وافقته.

وكان يريد في درسه العام أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام، ويفهموا موقفهم من الحاكم، وموقف الحاكم منهم، كل يعرف حدوده ويؤدي واجبه، فاذا تخطى الحاكم هذه الحدود، قال له الشعب: لا، بملء فيه.

كما كان يريد تكوين رأي عام واسع الثقافة، قوي، حازم، يفهم الامور الداخلية والخارجية ويكوِّن في كل ما يعرض من الحوادث العظام رأياً يقنعه، ثم يفرضه على أولي الامر منهم حتى لا يتلاعبوا به، يفهم ان من حقه ان يعيش عيشة صالحة ينعم بدخله، وله غلة جهده، فاذا اخذت الحكومة منه الضرائب فعلى قدر ما تستدعيه المصالح العامة، لا الشهوات الشخصية. ولذلك كان من حقه الاشراف على وجوه الدخل والخرج.

وكان يريد في السياسة أن يقتنع الشعب بحقه في الحكم فاذا فهم ذلك ـ وهذا ما عمله جمال الدين وصحبه ـ طالب بالمجلس النيابي، فيُعطاه بناء على فهمه وطلبه وقدرته، لا على أنه منحة تمنح له، فاذا ما اعطيه بجهده كان أجدر بالمحافظة عليه، وحرص عليه حرصه على دمه، فاستقر وثبت، ولم تستطع سلطة ما أن تلغيه أو تهمله.

---

(١) المقصود من كلمه « النص » غير الشرعي.

ولكن هذا كان اكثر من ان يحتمله الانجليز ـ الذين كانوا قد بدؤوا يتسلطون على مصر ـ او الحكام المستبدون، فقرروا ـ في ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ ـ نفيه عن مصر، واودع باخرة سارت به الى بومباي.

وبقي جمال الدين في الهند ثلاث سنوات ألَّف اثناءها رسالته في الردِّ على الدهريين، ابطل فيها مذهبهم، واظهر جهلهم وسفه الحادهم، وبينَّ أن الأساس الوحيد للفرد الصالح والمجتمع الصالح هو الدين. ثم بلغته اخبار الثورة التي قام بها عرابي في مصر على توفيق باشا وان الانجليز يريدون استغلال هذه الثورة للاستيلاء على مصر، فأراد ان يشغلهم عن ذلك، بثورة يقوم بها في الهند، ولكن الانكليز شعروا به فضيقوا عليه حتى تمكنوا من التغلب على الثورة المصرية وتشريد زعمائها، ومنهم الشيخ محمد عبده الذي نفي الى بيروت.

ثم نفاه الانجليز عن الهند، فذهب الى لندن، ولكنه لم يقم بها طويلاً فغادرها الى باريس، وهناك استدعى اليه الشيخ محمد عبده من منفاه في بيروت، فقدم اليه سنة ١٣٠١ حيث أسسا معاً هناك جمعية « العروة الوثقى » من مسلمي الاقطار المختلفة، ومجلةً سمياها أيضاً مجلة « العروة الوثقى » لتدعو المسلمين الى النهوض في دينهم ودنياهم، وتحرضهم على المستعمرين لبلادهم، ولاسيما الانجليز، كما تحرضهم على الثورة على المستبدين من ملوكهم

ليكونوا احراراً في بلادهم، ويمكنهم النهوض بما بقي منها في ايديهم.

وقد تألب المستعمرون، والملوك المستبدون، على هذه المجلة، وحاولوا دون تمكين المسلمين من قراءتها، وحرّموا دخولها الى مصر والهند، فاضطرت الى التوقف بعد ثمانية اشهر ـ من ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١، الى ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ ـ صدر خلالها ثمانية عشر عدداً. وكان لها اثر كبير في ايقاظ كثير من المتنورين في الشرق، وتبصيرهم بالشرور التي جلبها لهم الاحتلال. ولم يقتصر اثرها على الشرق، بل تعداه الى اوروبا نفسها، حتى ان الانجليز ـ وقد أحسوا بأثر العروة الوثقى في تهييج الرأي العام على انجلترا ـ طلبوا من جمال الدين ان يتفاهموا معه، فأرسل اليهم الشيخ محمد عبده، الذي اجرى عدة مباحثات مع ساستهم ـ لم تأت بنتيجة بالطبع ـ كمباحثته مثلاً مع لورد هرتنكتن وزير الحربية الانجليزية، الذي سأله: ألا يرضى المصريون ان يكونوا في آمن وراحة تحت سلطة الانجليز، وهي خير من سلطة الاتراك ومن جاء على اثرهم، خصوصاً وان الجهالة عامة في اقطار مصر، وانهم جميعاً لا يفرقون بين حاكم اجنبي وحاكم مصري؟ فرد الشيخ محمد عبده ما خلاصته: ان هناك في المصريين من يحبون اوطانهم حب الشعب الانجليزي لبلاده، وارض مصر منذ زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والمعارف، واخذ كل من ابنائها نصيباً على قدره، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين، يقرؤون الجرائد

العربية ويوصلون ما فيها الى من لم يقرأ، والنفرة من ولاية الاجنبي من طبيعة البشر، فضلاً عما لتعاليم الاسلام في هذا الشأن.

وبقي جمال الدين في اوروبا الى ان دعاه ملك فارس الشاه ناصر الدين، فسافر اليه جمال الدين سنة ١٣٠٣، فأكرمه وقربه وعينه وزيراً للحربية، على ان يجعله بعد ذلك رئيساً لوزرائه، فقام بدعوته الاصلاحية في فارس، حتى كثر انصاره فيها، وقوي سلطانه على نفوس المثقفين من ابنائها، فخاف منه الشاه على سلطانه، وخشي منه الجامدون من العلماء على سلطانهم، فأخذوا يناهضون ما يدعو اليه.

فطلب جمال الدين من الشاه ناصر الدين أن يأذن له في رحلة الى روسيا، فساح فيها مدة، ثم انتقل منها الى فرنسا ـ وكان الشاه ناصر الدين قد رحل الى فرنسا ايضاً ـ فلقي جمال الدين فيها، وألح عليه ان يعود معه الى فارس، على ان يجعله رئيس وزرائه، فرجع معه اليها، وعاد الى دعوته الاصلاحية فيها، ثم عرض على الشاه ان يجعل حكومته دستورية على نظام حكومات اوروبا، فقاومه اعداء الاصلاح، وعملوا على الافساد بينه وبين الشاه ناصر الدين حتى نفاه من فارس.

فقصد جمال الدين الى العراق، ثم غادرها الى انجلترا حيث انشأ فيها مجلة سماها « ضياء الخافقين »، نهج فيها منهج مجلة « العروة الوثقى »، وكان يحمل فيها على الشاه ناصر الدين،

ويؤلب عليه الاحرار من ابناء فارس. وحاول الشاه اغراءه ليكف عن حملاته فلم يفلح اغراؤه، فاستعان عليه، فيما يقال، بالسلطان عبد الحميد، الذي ما زال يتلطف بدعوة جمال الدين الى استانبول حتى رضي بالقدوم عليه، فقربه منه، وجعل يستشيره في شؤون دولته، ولا يقصد من ذلك الا ان يراقب حركاته ويبقيه على القرب منه، وخاصة لما وردت الاخبار بمقتل الشاه على يد احد اتباع جمال الدين.

وبقي جمال الدين على هذا الحال الى ان مرض بالسرطان في فكّه الاسفل وتوفي سنة ١٣١٤ هـ رحمه الله تعالى.

* * *

وقد وصفه تلميذه محمد عبده، بأنه كان ربعة في طوله، وسطاً في بنيته، قمحياً في لونه، عصبياً دموياً في مزاجه، عظيم الرأس في اعتدال، عريض الجبهة في تناسب، واسع العينين، عظيم الاحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل المنظر، هشاً بشاً عند اللقاء، قد وفاه الله من كمال خُلقه ما ينطبق على كمال خَلقه.

أما اخلاقه، فسلامة القلب سائدة في صفاته، وكان له حُلُم عظيم يسع ما شاء الله ان يسع، الا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه، فينقلب الحلم الى غضب تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم

أواب اذا هو أسد وثاب. وكان كريماً يبذل ما بيده، قوي الاعتماد على الله، لا يبالي بما تأتي به صروف الدهر.

وكان قليل الاحتفال بالاكل، قليل النوم، كثير السهر، قوي الشهوة للكلام، تواتيه المعاني ويطاوعه اللسان.

ولما أخرج من مصر، ذهب بعض محبيه يحملون له إلى السويس، مقداراً من المال عرضوه عليه وسألوه أن يقبله قرضاً، فأبى وقال: انتم الى هذا المال احوج، والليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب.

ورأى بعض الناس مرة يجمعون اعانة لأحد الاشخاص فسألهم: أهو مريض؟ قالوا: لا. قال: هل هو صحيح البنية؟ قالوا: نعم. قال: صحة البدن وذل السؤال لا يصح ان يجتمعا لانسان.

ولما استدعاه السلطان عبد الحميد الى استانبول، كان في انتظاره لما وصل اليها الياور السلطاني، فسأله: اين صناديقك ايها السيد؟ فقال: ليس معي غير صناديق الثياب، وصناديق الكتب. قال الياور: حسناً اين هي؟ فقال السيد: صناديق الكتب هنا - واشار الى صدره - وصناديق الثياب هنا - واشار الى جبته - .

وعاش جمال الدين - كالشيخ عبد الحكيم وابن عابدين - عزباً طول حياته. وكان كلما شكا اليه احد كثرة العيال وقلة ذات اليد يعينه على قدر استطاعته، فعرض عليه السلطان يوماً ان يزوجه

جارية حسناء من قصر يلدز، فامتنع السيد من ذلك. فسُئل: هل تؤيد رأى ابي العلاء:

هذا جنـــاه أبـــي عليـ ـيَّ ومـــا جنيت على أحد؟

قال: كلا، وكيف يصح لعاقل ان يعتبر الزواج جناية، وبه بقاء النوع واستكمال العمران؟ اما انا فمعرفتي بما تتطلبه حكمة الزواج من معاني العدل وعجزي عن القيام به دفعني ان اتقي عدم العدل ببقائي عزباً.

وكان السيد كثير الاعجاب بذكاء الشيخ محمد عبده وفضله، وكان كلما ذكره يقول: صديقي الشيخ. وكان السيد عبدالله نديم في آخر ايامه يكثر التردد على منزل جمال الدين، فقال له يوماً: قد اكثرت من الثناء على الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن لك صديق غيره، وتنعت غيره بقولك: صاحبنا او فلان من معارفنا. فتبسم السيد جمال الدين وقال: وانت يا عبد الله صديقي، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ أنه كان صديقي في الضراء، وانت صديقي في السراء.

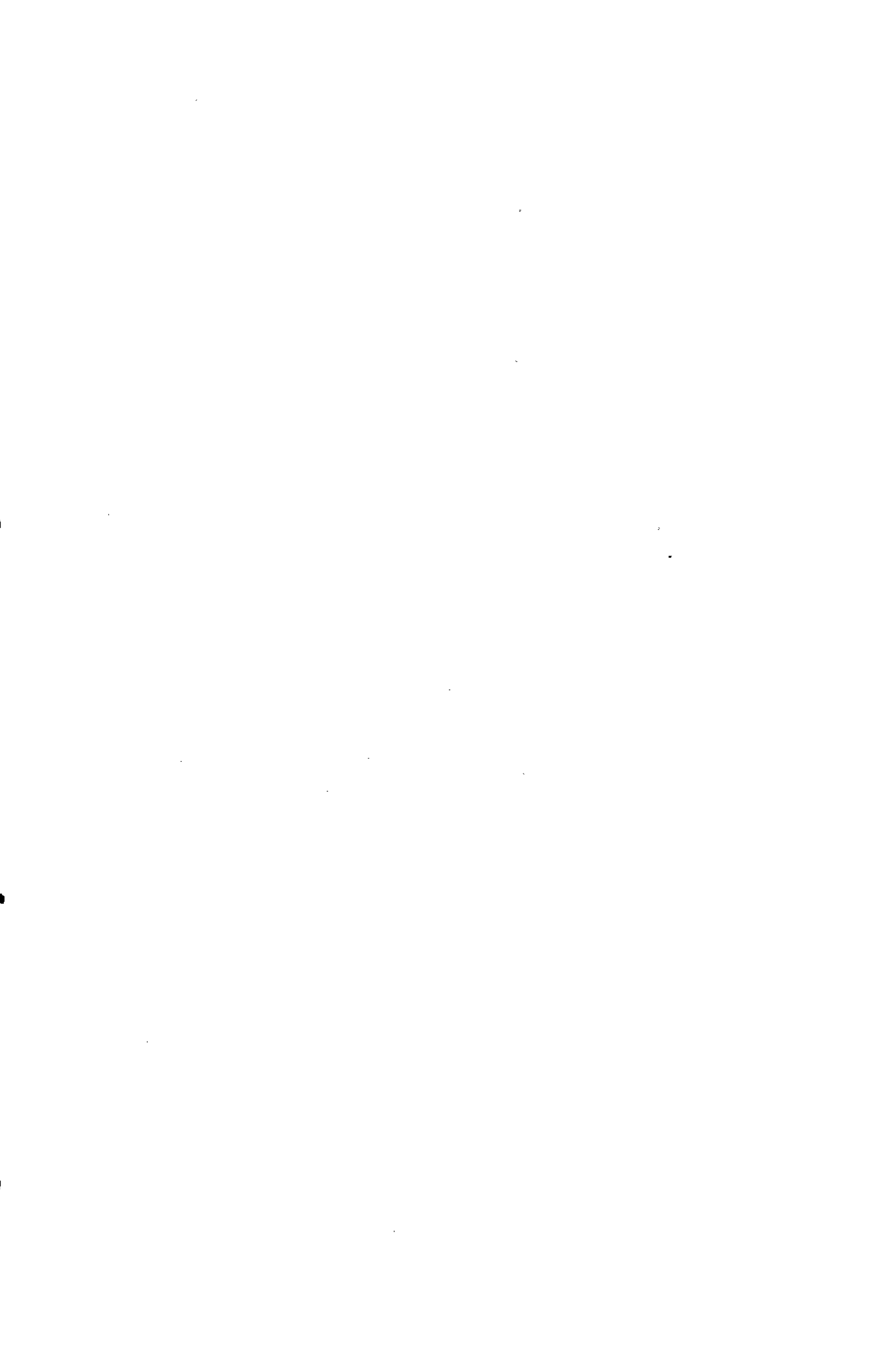
* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الطريق إلى الاتجاه السليم

الدكتور

محمد حسين هيكل



مُقـدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى من اتبعه باحسان الى يوم الدين، وبعد :

فاننا اذ نقدم اليوم الى اخواننا المؤمنين هذه الرسالة المتواضعة ليضموها الى أخوات لها سابقات، ولتساهم ـ على قدر المستطاع ـ في نشر الفكرة الاسلامية الصحيحة واحياء تراثنا الاسلامي العظيم.

واننا في هذه المقدمة الصغيرة لن نعرف الدكتور محمد حسين هيكل، فقد دل على نفسه بكتابته : فهو الأديب الذي سلك الطريق الوعر الشاق ليصل الى الحق وليهتدي الى الدواء.. وليحمل بعد ذلك راية التوحيد بجرأة وقوة. وانما نوجز بعض الحقائق التي تشتمل عليها هذه العجالة :

الحقيقة الأولى : الاجتهاد أساس كل انتاج حي، وهو اكتشاف حقائق الاشياء والامور بجهد الانسان الذاتي، ولا ننظر الى آثار مجتهد حر الضمير إلا وجدنا فيه قوة الحجة ونصاعة الحق، لا نعهده في أولئك الذين يجترون آثاراً بعد أن يسلبوها روحها ان

كانت فيها روح، قبل أن تدخل في ساحتهم المظلمة، فانها بمجرد دخولها في اجوائهم يحل الخسوف بها فلا تعود ترى لها رونقاً ولا تلمح لها بريقاً.

والحقيقة الاسلامية انما تزكو ما دام العقل يتمتع باشباع الحق - فان اللائمة العنيفة التي يلحقها الاسلام والقرآن بأولئك الذين يشترون الضلالة بالهدى - ويبيعون في سوق الآباء الكاسدة عقولهم لأن حقيقة الاسلام لا تتجلى للبشرية المكبلة بأوزار الاسر والاغلال وهذا قول الله الحق في بيان مهمة الرسول ﷺ وصفة الذين يتبعونه حقاً ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.. ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً﴾. (١٥٧، ١٥٨ الاعراف).

الحقيقة الثانية : التي يصلح هذا الموضوع مثلاً لها هي : أن الانسان الصادق الاخلاص الجاد لخدمة هذه الامة - سيصل - ما دام مخلصاً - إلى أن لا نجاة لها الا بالاسلام - سيصل إلى هذه الحقيقة عن اجتهاد لا عن تقليد ما دام مخلصاً محباً حقيقياً لصلاح الامة مهما امتدت به طرق التجارب وأبعد في التماس الدواء.

فان اخلاصه وسعيه سيكشفان له أن لا دواء إلا بالحقيقة الاسلامية كما فعل (هيكل) حين جلب للامة دواء الالحاد والعلمانية - ودواء الفرعونية فلقد اجهد نفسه في تجربة كل دواء

سنين طويلة وكانت له كتابات كثيرة وجريدةخاصة في ذلك ـ ولكن طريقته العلمية ابت عليه السير في الفراغ فأوصله اخلاصه وجده في النهاية الى طريق الحقيقة كما هو صريح في اعترافاته الرائعة في هذا الموضوع.

ومن هنا نعلم أن الذين لم يهتدوا الى الدواء في مدى نصف قرن. نعلم انهم يفقدون الجد في السعي ويفقدون قبل ذلك الاخلاص الذي يدفعهم للسعي.

الحقيقة الثالثة : وهي شجب فكرة العصبية بقوة المجتهد وجرأة العالم المحقق ـ وشجاعة من توضح له الحق في مجتمع لم يجرؤ فيه معه احد مثل جرأته ووضوحه في هذا. حتى ولا الذين حملوا الراية التي كتب عليها التوحيد (لا إله إلا الله) فكان له بذلك ـ مع تبنيه الفكرة السابقة زمناً ـ شرف الانفراد في مكافحة الصنم الكسيح وان ظل خوار العجل وغوغاء سدنته حيناً من الزمن سائراً للصنم، فان هذه البذور القوية ستحيل هذا العجل الى مصير عجل السامري.

الحقيقة الرابعة : ان دراسة تطور مراحل فكر هذا الرجل تعطينا الخط البياني لسير الانسان المجتهد ـ وهو أصدق تعبير لسير الفكر المعاصر تجاه الامور المختلطة في العالم الاسلامي والغربي. وكيف أن الفكر الواعي يخرج منه الانسان الذي يملك المناعة ضد الخرافة سواء في صورة التمدن الأصيل أو صورة التدين فاقد

الاصالة ومن هذا الخط البياني تعرف قلة العدد الذي استطاع أن يجتاز عقبات هذا الخط البياني ليرتفع الى مستواه.

ويمكننا أن نتعرف بعد ذلك على الناس بوضعهم في مواضعهم من هذا الخط.

« ربنا أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ».

والحمد لله رب العالمين.

لجنة المسجد

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد عليه الصلاة والسلام :

بهذا الأسم الكريم تنطق ملايين الشفاه، وله تهتز ملايين القلوب كل يوم عدة مرات، وهذه الشفاه والقلوب به تنطق وله تهتز، منذ أربعمائة وألف سنة إلا خمسين.

وبهذا الاسم الكريم ستنطق ملايين الشفاه، وتهتز ملايين القلوب إلى يوم الدين. فاذا كان الفجر من كل يوم وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهاب المؤذن بالناس أن الصلاة خير من النوم، ودعاهم إلى السجود لله والصلاة على رسوله، فاستجاب له الألوف والملايين في مختلف أنحاء المعمورة يحيون بالصلاة رحمة الله وفضله المتجليين في مطلع كل نهار. وإذا كانت الظهيرة وزالت الشمس، أهاب المؤذن بالناس لصلاة الظهر. ثم لصلاة العصر فالمغرب فالعشاء. وفي كل واحدة من هذه الصلوات يذكر المسلمون محمداً عبد الله ونبيه ورسوله ﷺ في ضراعة وخشية وانابة، وهُمْ فيما بين الصلوات الخمس ما يكادون يسمعون اسمه حتى تجف قلوبهم بذكر الله وبذكر مصطفاه.

قلوبهم كذلك كانوا، وكذلك سيكونون، حتى يظهر الله الدين القيم، ويتم نعمته على الناس أجمعين.

وقلوب المسلمين جميعاً تهفو إلى البلاد التي كانت منزل الرسول ومنزل الوحي، هذه البلاد المهمة استوقفت المسلمين وغيرهم عبر العصور دراسة وتمحيصاً على أن ما تحتفظ به من تراث دائم الجدة بالغ غاية الدقة في تشعبه خلال التاريخ واتصاله بسائر أرجاء العالم، قد حال دون التنقيب في هذا التراث.. عند الباحثين المسلمين الجدد لما له من القداسة في نفوسهم تصدهم عن التعمق فيه، وعند الباحثين غير المسلمين لأنهم لا يشعرون بهذه القداسة. فرأيت أن أصنف كتاباً يحوي ما أحسست به حين كررت بالزمن راجعاً إلى عهد الرسول ﷺ والمسلمين في العهد الأول، والمسلمين بعدهم الذين سرت معهم في تدهور عبر العصور حتى الوقت الحاضر، وما آمله وأرجوه لهم من نصر في المستقبل حتى يكون الدين كله لله.

ولقد شغلني هذا الأمل - أمل نصر المسلمين وعزتهم - فأجهدت نفسي للتعرف على طريق الوصول إلى ذلك. وأول ما بدأت به في ذلك الطريق هو انتقادي لأوضاع المسلمين، وأوضاع البلاد العربية والاسلامية، للتعرف على أسباب تدهورها، وذلك لاقتناعي بأن النقد فاتحة الاصلاح وبأن تحري الأسباب التي أدت إلى الضعف تشخيصٌ للمرض يسهل معه وصف العلاج. ومع وقوفي موقف الناقد، وجهت همي إلى العناية بأثار الرسول ﷺ في الجزيرة العربية فصرت أسير حيث سار، ألتمس الأسوة والعبرة - وأرجو أن أقف على السر الذي حبا الله به هذه البلد لتكون مهبط

الوحي ـ ولم أتقيد في تفكيري وتأملي أمام أي شيء مما رأيت، بغير منطقي وعقيدتي الذاتية ـ الذين كونتهما الطريقة العلمية الحديثة ـ فأنا لا أسلّم بالعقيدة الموروثة إذا لم يكن لها أساس غير ما وجدنا عليه أباءنا ـ ما لم أمتحنها وأمحّصها وما لم أصل من أمرها إلى الايمان بأنها هي الحقيقة، كما يسيغها عقلي ويطمئن إليها ضميري، وأنا لا أحب الذين يدينون بعقيدة ما، لغير شيء إلا لأنهم وجدوا آباءهم مؤمنين بها حقاً.

بل أرى واجباً على الأنسان، لكرامته الأنسانية. أن يحاول ما استطاع فهم ما يُلْقى إليه ـ أتصل ذلك بالعقيدة أو التشريع أو بالعلم أو الفن. . فاذا اهتدى للحق فذاك وإلا فليلتمس الهدى عند أهل العلم وليطالبهم باقناعه.

والعالم الجدير باسم العالِم ـ هو من أقنع سامعه بالحقيقة التي اهتدى إليها عن طريق المجادلة بالتي هي أحسن فلا إكراه في الدين ـ ولا يماري في الحقيقة ـ متى تبين الرشد من الغي ـ إلا مَنْ أضله هواه.

وكان حديث الآثار الصحيحة التي وقفت عندها كله البلاغة في التعبير عما تدل عليه وتوحيه الى النفس من آي الجلال والعظمة التي حاولت أن أسجلها في هذا الكتاب [1] كجبل حراء ومسجد العقبة وجبل ثور ومَيْدان بدر. .

---

(١) كتاب في منزل الوحي.

لقد كان العرب قبل الأسلام، ذوي عقائد وثنية يعضون عليها بالنواجز، وكانت هذه العقائد هي التي تمسكهم دون قبول الفكرة التي يثبون بها إلى العالم. وما جاء به الرسول ﷺ يتلخص في عبارة موجزة هي :

تكريس الحياة لمثل اعلى، يوجه الانسانُ إليه جهودَه فيبلغُه، أو يموت دونه، مستشهداً في سبيله. فالمثل الأعلى في الاسلام هو رضا الله بالبر والتقوى، وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، صوِّر هذه المعاني النفسية صورة مادية، واجعل منها مثلَك الأعلى الذي تكرس له جهود حياتك : هذا التصوير وحده عظيم شاق ويقتضيك مجهوداً جسيماً.

فالانسان يريد الغنى والجاه، ولا مانع من ذلك، على أن يكون في تحصيله براً تقياً. فاذا صور المرء مثله الأعلى، وجب عليه أن يسعى إليه غيرَ وانٍ، يوجه إليه كل جهوده، وأن يستهين في سبيله بكل تضحية، وإن كانت بالحياة، ولا عليه إن أصابه مكروه، ما دام رضا الله مبتغاه، لكن الأمثال العليا تتفاوت تفاوتاً عظيماً، وأسمى هذه الأمثال لا ريب ما بعث الله به نبيه ﷺ هدى للناس ونوراً.

ولقد بلغ من إيمان العرب في الصدر الأول بهذا المثل، أن جعله كل منهم غرض حياته، وأن أخضع له ما في الحياة من غرضٍ دونه، وكان الاستشهاد في سبيله أملاً، فيتمنى أن يجعله الله نصيبه، فالتاجر له من تجارته حظ معلوم، يدفعه للسائل والمحروم.

وهو متخلي عن تجارته إذا دعى داعي الجهاد، فقد علّمهم الدين الجديد أن للامة مثلاً أعلى كما للافراد، وأن المؤمنين في كل الأرض الفرد منهم يحب أخاه ويبذل روحه في سبيل عزته، والجميع يعلمون الناس بذلك أنه لا إله إلا الله، وأنه خلق الناس ليتعاونوا على البر والتقوى، حتى تبلغ الانسانية كمالها.

: ﴿ فانْ بَغَتْ إحْداهما على الأخْرى فَقَاتِلوا الَّتي تَبْغي حتّى تَفيءَ الى امْر الله ﴾ الحجرات (٩)

وكان العرب يتيهون فخراً بما تمّ لهم من الفتح والنصر، وحسبوا أن الله قد نصر دينه على الدين كله، منذ هذا العهد الأول.

وأقبل أهل الجزيرة على الفتح يزدادون منه ثراءً، ويزدادون بأنعم المال متاعاً، وخيل اليهم أن العهد الذهبي الذي فتح الله لهم أبوابه لا نهاية له، وأنهم ناهلون من ورده هم وأبناءهم وحفدتهم أبد الآبدين حتى يرث الله الارض ومن عليها، ولم يدر بخلد أحدهم، وهو يعب من هذا النعيم، أن للزمن دورته، وأن لكل يوم غده، وأن الله مغير ما بقوم يوم يغيرون ما بأنفسهم، ولقد غيروا ما بأنفسهم، فغيرَّ الله ما بهم حتى صاروا إلى ما هم عليه من حالٍ تبعث الحسرة إلى النفس.

وقفت غير مرة إزاء هذه الظاهرة أسائل نفسي وأسائل غيري عن سببها. والسبب الواضح هو أن الكثير من العرب الفاتحين نسوا الغرض الأسمى الذي يدعوا هذا الدين اليه، وشغلوا بتنظيم الدنيا عندما تدفقت عليهم كنوزها واكتفوا بأن يعلموا الناس

فروض الدين دون أن يفقّهوهم فيه. شغل المسلمون بالدنيا عن الآخرة، وبالغرض عن الجوهر، وبحكم الناس عن سياسة أمورهم في دينهم ودنياهم، فعم الاضطراب واتخذ الملوك من العلماء والفقهاء ألسنة دعايتهم، كما اتخذهم الثائرون ألسنة كذلك..

وقفتُ عند هذه الظاهرات غير مرة أحاول تحليلها، والغاية التي ابتغيها من وقوفي هو التعرف على أسباب تأخر العالم الاسلامي، منذ العهد الاسلامي الأول إلى زمننا الحاضر، ولا أريد سرد التاريخ، وإنما إكتفي بالاشارة إلى ذلك لأبين أنَّ تنكُّب سنة الله في قوله: ﴿ انَّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ هو المفسر الحقيقي لأوضاع العالم الاسلامي.

وفي مواقفي هذه التي وقفتها، لم أتقيد بما جاء في كتاب غير كتاب الله الكريم، ولم أخضِع تفكيري لحكم غيري وما كان لي أن أخضعه، وقد كنت أحس في كثير من المواقف أنني بين القوم، اسمع وأرى، وأتمنى لو كنت أجاهد معهم فأفوز فوزاً عظيماً، وما كان لي أن أفعل ثم أخدع نفسي، فأزعم انني إذ أحدّث الناس إنما أقص عليهم ما رأيته وما أحسست به، في حين لا أقص إلا ما رآه غيري وما سبقني إلى تسطيره. لقد تركت نفسي على سجيتها تتوجه بوحي روحي، وتستلهم الحق مما حولي، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلي وتقدير ضميري، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغي به إلا رضا الله وحسن المثوبة عنه، فليقل هذا أو ذاك من

كتّاب المسلمين أو غير المسلمين، عن أيٍ من هذه المواقف ما شاء، وليستند في حكمه أو رأيه الى أي سند يطيب له أن يستند اليه، إنما ذلك قول له عندي احترامه، ما اطمأننت الى حسن القصد فيه، لكن لحكمي المكان الأول من الاحترام عندي، وإذ لم يكن من حسن القصد أن نعجّل بالحكم قبل أن نطمئن اليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه، كانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله، فليس من حسن القصد، ولا من احترام المفكر عقله، أن ينحل نفسه حكم غيره، قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره اليه، ومن الجمود الذي لا يقاس عليه طيش، أن نأبى تقليب الامور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن الى بلوغ غاية ما نستطيعه من الحق فيها.

واقف هنا لأدفع زعماً حَسِبه الذين زعموه مغمزاً غمزوني به بعد تأليف كتابي «حياة محمد» حسب هؤلاء أنني انقلبت بكتابة السيرة « رجعياً » وكنت عندهم في طليعة المجددين وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد جعلت القرآن حجتي وما جاء فيه عن السيرة سندي، ولم أضعه كما يقولون ـ موضع النقد العلمي. وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبي ﷺ جماعة من المبشرين المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين؟ وكيف ساغ لي بعد ذلك أن أزعم أمامهم في « حياة محمد » وأن أزعم اليوم ها هنا أنني طليقٌ من القيود، عدو الجمود، نصير للبحث العلمي الحر، وأنني أؤمن بحرية الرأي

واعتبرها الاساس، لا أساس غيره لمن يريد معرفة الحقيقـة؟ هم يرون ذلك خداعاً يأباه العلم في البحث الحر، وأنا بنظرهم رجعي انقلبت الى الجمهور أتابعه ابتغاء رضـاه، وقـد كنـت قبـل ذلك أتقدمه أريد هدايته وتوجيهه.

أقف هنا لأدفع هذا القول، وما ألتمس في دفعـه سبيلاً غـير مواجهته، لا أقول أن قوماً غمزوني بنقيصة وزعموني خارجاً عن الاجماع، والتمسوا الحجة لتأييد قولهم، وليس يستقيم المنطق أن يغمزني هؤلاء وأولئك، لا أقول ذلك وأنا ما كتبت ابتغي رضا قوم أو أتقي سخط آخرين، إنما كتبت للحق ابتغيه وحده لكني أسائل أصدقائي «أحرار الرأي» عن غايتنا جميعاً حين ننتج، ألسنا نبتغي التقدم خطوة جديدة في سبيل الكمال؟ أو أن نحاول في انتاجنا أن نبلغ السعادة لأنفسنـا وللعالم؟.. وطـريق السعـادة أن نزيد في معارف الانسان القليلة الضئيلـة حـين تقـاس إلى هذا العالـم. لنطوع للانسان أن يزداد بالكون اتصـالا، وانـا بـين هؤلاء ارى رأيهم واعتقد كما يعتقدون أن التماس المزيد من المعرفة والطموح الى ذلك، الى ابعـد غاية هو وحـده المطمـح الخليق بالجانـب الانساني فينا. وإنما مطمحنا حـين نلتمس المزيد من المعرفـة ان تسموا بهذا الجانب الانساني في الافراد والجماعـات، ولقـد طالما التمسنا في شرفنـا الأدبـي اسبـاب النهـوض بعلمنـا، لنقف الى جانب الانسانية المهذبة، لا ينكس الخجـل رؤوسنـا ولا يحـز في

نفوسنا ذلك الشعور الممض بأننا دون الغرب مكانا . . [1] .

ولقد خيل إليَّ زمناً أن نقل حياة الغرب العقلية والـروحية هو سبيلنا الى النهوض وانا لا ازال أقول بنقـل حياة الغـرب العقلية دون الروحية [2] منها . لأن له تاريخاً غـير تاريخنـا ، وثقافـة غـير ثقافتنا ، فقد خضع الغرب للتفكير الكنسي ، على ما اقرته البابوية ، وبقي الشرق الاسلامي بريئـاً من الخضـوع لمثـل هذا التفـكير ، وحوربت المذاهب الاسلامية التـي حاولـت ذلك ، فلـم تتـم له قائمة .

وكانت الثورات في الغرب تقوم على النفوذ الروحـي ، الـذي تفرضه الكنيسة حسبما تشاء ، بينما بقي العالم الاسلامي بعيداً عن هذا ، ـ لأن الاسلام لا يعرف الكنيسة ونظامها ـ واقرب الناس فيه

---

(١) الاسلام لا يقسم الامر الى جانب عقلي واخر روحـي ، هذا اذا نظرنـا الى الاصول الحقيقية ، لا ما تعوده الكثير من الكتاب ممن لا رصيد لهم في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وانمـا هنـاك حق وباطـل في كل ما يمـكن أن يدركه الانسان ، فليأخذ الحق حيث كان ، وهو الحكمة التي هي ضالـة المؤمـن ، ويتـرك الباطل حيث كان ويبذل كل الجهد لاستئصال شأفته من الحياة « فماذا بعد الحق الا الضلال » .

(٢) تطبق القاعدة السابقة على النواحي العقلية أيضاً ، والسبب المباشر لهذا أن الاوروبيين اخطأوا في جوانب العقل أيضاً ، واقرب مثل على ذلك اعتبارهم الايمان باليوم الآخر في غير متناول العقل « لو كنـا نسمـع او نعقـل ما كنـا في أصحـاب السعير » .

الى الله اتقاهم فبقيت الثقافة الروحية في الشرق الاسلامي حرة لم تقيد إلا حين قصد الجهل بالناس ففترت الاذهان، وخمدت القرائح، وجمدت القلوب فلم تعرف بلاد الاسلام في عصور الازدهار قيداً لحرية الفكر طالما أن صاحبه بريء القصد، يبتغي برأيه سبيل الحق، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله، ولهذا لا نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية، فلا مفر إذاً من أن نلتمس في تاريخنا، وفي ثقافتنا، وفي اعماق قلوبنا، وفي اطواء ماضينا، هذه الحياة الروحية نحمي بها ما فتر من اذهاننا، وخمذ من قرائحنا، وجمد من قلوبنا.

هذا كلام واضح بين، ومن عجب أن يخفى على اصحابي فلا يرونه، وان يكون خفاؤه سبب تثريبهم علي ولكن لا عجب، فقد خفي هذا الكلام عني سنوات كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم.

وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية (١) لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً، ولكني ادركت بعد لائي انني اضع البذر في غير منبته، فاذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبت التمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين (٢) موئلا لوحي هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة، فاذا

---

(١) مثال على ذلك كتابه « تراجم غربية وشرقية » ذكر فيه حجج الملاحدة في اسلوب يزين هذا للناس ليقوم المسلمون بمعارضه الاسلام وحربة كقيام الغربيين في حربهم للكنيسة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم.

الزمن والركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب، قد يصلح بذراً لنهضة جديدة، ونظرت فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس، وتجعلها تهتز وتربو، ولابناء الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين.

والفكرة الاسلامية، المبنية على التوحيد في الايمان بالله تنزع في ظلال حرية الفكر الى وحدة الانسانية وهي وحدة اساسها الاخاء والمحبة. فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة، يتحابون بنور الله بينهم، وهذه الفكرة الاسلامية.

: « انمَّا المؤْمنون إخْوة »... « المؤمن للمؤمن كالبنيان... » (١)

تخالف ما يدعو اليه الحاضر من تصوير الامم وحدات متنافسة يحكم السيف، وتحكم باسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه.

ولقد تأثرنا، معشر أمم الشرق، بهذه الفكرة الآنفة واندفعنا ننفخ فيها روح القوة، نحسب اننا نستطيع ان نقف بها في وجه الغرب، الذي طغى علينا واذلنا، وخيل الينا في سذاجتنا انا قادرون بها وحدها، على أن نعيد مجد آبائنا وان نسترد ما غصب الغرب من حريتنا، وما اهدر بذلك من كرامتنا الانسانية. ولقد انسانا بريق الحضارة الغربية ما تنطوي هذه الفكرة ـ المذكورة ـ

---

(١) يراجع كتاب الاتجاهات الوطنية الحديثة في الادب المعاصر.

عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها، وزادنا ما خيم علينا من سجف الجهل إمعاناً في هذا النسيان، على أن التوحيد الذي أضاء بنوره ارواح آبائنا قد اورثنا ـ من فضل الله ـ سلامة في الفطرة، هدتنا الى تصور الخطر فيما يدعو الغرب اليه، والى أن الامة التي لا يتصل حاضرها بماضيها، خليقة ان تضل السبيل، والى أن الامة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها.

ومن ثم كانت الهوة، التي ازدادت عمقاً بين سواد الامم في الشرق الاسلامي، والدعوة الى إغفال ماضينا، والتوجه الى الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب سواد الناس عن الاخذ بحياة الغرب المعنوية، مع حرصهم على نقل علومه وصناعاته، والحياة المعنوية هي قوام الوجود الانساني للافراد والشعوب، لذلك لم يكن لنا مفر من العود الى تاريخنا، نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية، لنخرج من جمودنا المذل، ولنتقي الخطر الذي دفعت الفكرة ـ السابقة ـ الغرب اليه فأدامت فيه الخصومة، بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه.

لم البث حين تبينت هذا الأمر ان دعوت الى احياء حضارتنا الاسلامية، ومصدر الحضارة سناء الارواح المضيئة، وقوامها وثبة النفوس القوية، والارواح تضيء، ما اتصلت بروح اقوى سلطانا، وابهر سناء. ومحمد بن عبدالله رسول الله ﷺ هو النور الاول، الذي استمدت هذه الارواح منه ضياءها، لذلك جعلت

سيرته موضع دراستي، ومواقفه مصدر الهامي، فأين هذا من تملق الجمهور او متابعته التماساً لرضاه.

يقول الذين يغمزونني : لك رأيك، فما لك لم تقف عندما آخذ به المستشرقون محمداً ﷺ ؟ ولماذا جعلت القرآن سندك الاول في السيرة دون تمحيص ونقد لهذا القرآن؟ انك خشيت الجمهور فجاريته، ولم تخش العلم ولم ترع حقه.

غفر الله لكم ايها الصحب ـ بم آخذ المستشرقون المنصفون محمداً ﷺ ؟ وما الذي نقدوا القرآن به [1] لقد مرت القرون ولم تستر هذه المآخذ من ضياء الرسول ﷺ الا كما يستر كلف الشمس من ضيائها. . ولم تؤثر على سلطان الحق في كلام الله، وان كان علماء العالم يقول اليوم اقدرهم : ﴿ ربنا لاعلم لنا الا ما علمتنا ﴾ فاجدر بنا أن نقف اكثر ادباً مع القرآن والرسول ﷺ وان نكامن من غرورنا السخيف، خصوصاً ونحن نقف حائرين صغاراً امام هذا الكون العظيم وما فيه.

وأخيراً وانا اشكر كل من عاونني، لان هذه المعاونة جعلتني اقف بحرية وبنفسي على ما سبق ان قرأته في الكتب، كما كان لها اثر كبير في اطواء روحي. . . وانني لأعتبر هذه الحرية في الشعور فضلاً من الله عظيما، فنحن بحاجة الى أن نرى الاشياء في كل

---

(١) لقد عرض المؤلف لهذه الأمور في كتابه حياة محمد وفي مقدمة الطبعة الثانية رد عليها بالتفصيل.

عصر، بعين اهله، وان نحكم عليها بما بلغنا فيه من تقدم أو تطور في العلم والحضارة، فأما أن نتقيد بما شهده السلف، فذلك الجمود الذي لم يرضه الاسلام مذ بعث الله به نبيه ﷺ وذلك ما يجب أن نتنزه عنه ولهذا قدمت انني لم اتقيد امام شيء مما رأيت بكتاب غير كتاب الله [1].

ولم اجعل لي من التقدير اماما الا ما رضيه العقل وطابت به النفس، ولم اخش الا الله والا ضميري فيما افاضه الحس على القرطاس.

فليغمزني من شاء بالرجعية، وليتهمني من شاء بمخالفة الاجماع وليقدر هذا المجهود من شاء، بما شاء فاني ابتغي الجزاء من الله يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا يعرف حميم حميا والله وحده عليم بذات الصدور.

---

(١) كرر المؤلف هذه الفكرة. والحق أن المسلم انما يقيده كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهما المرجع، وهما الحكم في كل خلاف ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ ومن علماء الاصول ومنهم الشاطبي من يجعل السنة وغيرها من الادلة الشرعية راجعة الى الكتاب الكريم.



للأستاذ

وهبي سليمان الألباني



بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ توطئة

أ ـ أنزل خالق السموات والأرضين وما فيهنّ هذا الاسلام دين الخلود على الازمنة والامكنة، دين الابد للبشر كلهم الى يوم القيامة. ولله تعالى وحده كمال العلم بالبشر، وتمام الحكمة بما يشرِّع لهم، والسلطة المطلقة أن يفعل بهم ما يشاء ويختار، وليس لغيره سبحانه شيء من ذلك على الاطلاق، فان الله تعالى وحده هو الرب الخالق، العليم الحكيم، المشرع المدبر، وما سواه عبد له شاء أم أبى.

أرأيت هذا الانسان الكافر بالله والمؤمن بهواه؟ كم هو جاهل وضعيف! إنه لا يعرف نفسه، لا يدرك ذات روحه وفكره، هو ضعيف امام النوم الذي يجهل كنهه، ذليل أمام الجوع الذي يهدر قوته، . . ثم يشمخ في بأنفه ويرفع ـ وقاحة ـ عقيرته ليقول بصوت خُلق له : انه لا يؤمن بالله . . لأنه غارق في الطين، طين الحيوانية والشهوة فلا يدرك معبوداً من غير الطين والشهوة . . !

وقد اقتضى علمه وحكمته سبحانه أن يُنزل الاسلام فيختم به بناء الاديان، وأن يُكمل بهذا الدين ما شرع قبله من الاديان، ثم

أن يجعله دين البشر كافة من وقت نزوله الى آخر الزمان ﴿ وربُّكَ يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ ما كانَ لهم الخِيرَة ﴾ [1].

قال الله تعالى : ١ ـ ﴿ .. اليومَ اكملتُ لكمْ دينَكم وأتممت عليكم نِعتمي ورضيتُ لكم الاسلامَ ديناً .. ومنْ يبتغِ غيرَ الاسلامِ ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخِرة من الخاسرين.. ان الدينَ عند الله الاسلام.. ﴾ [2].

وقال سبحانه : ٢ ـ ﴿ قُلْ يا أيُّها النَّاس إني رسولُ الله اليكم جميعاً. وما ارسلناك الا كافَّة للناس... ﴾ [3].

وقال عز وجل: ٣ ـ ﴿ قل يا اهلِ الكتابِ تعالوا الى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ان لا نعبدَ إلا الله.. قُل يا أهلِ الكتابِ لَسْتم على شيءٍ حتَّى تقيموا التَّوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربِّكم.. وقُل للَّذينَ أوتوا الكتاب والاميين أأسْلمتم؟ فانْ أسلموا فقد اهتدَوْا وان تولَّوْا فانما عليك البلاغ.. ﴾ [4].

روى أبو موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « اعطيت خمساً : بعثت الى الاحمر والأسود وجُعلت لي الارض مسجداً وطهوراً، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لمن كان قبلي، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت

---

(١) القصص ٦٨ .

(٢) المائدة ٣، آل عمران ٨٥ و١٩ .

(٣) الاعراف ١٥٨، فاطر ٢٤ .

(٤) آل عمران ٦٤، المائدة ٦٨، وآل عمران ١٩ .

الشفاعة، وليس من نبي الا وقد سأل الشفاعة واني قد أختبأت شفاعتي ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئاً ». رواه احمد.

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار ». رواه مسلم

وقال جابر رضي الله عنه : « جاءت ملائكة الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم، وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم إنه نائم، وقال بعضهم ان العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن اجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدُبة، فقالوا أوِّلوها له يفقهها، فقال بعضهم انه نائم وقال بعضهم أن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا فالدّار الجنة والداعي محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فمن اطاع محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد اطاع الله، ومن عصى محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد عصى الله ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بين الناس »[1]. رواه البخاري

(١) رؤيا الانبياء وحي، قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام. ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر. . ﴾

ب ـ الانسان أخو الانسان على اختلاف الاعراق والالوان والاقاليم والاوطان، فلا يختلف التكوين الطبيعي والفكري والنفسي في انسانٍ عن اخيه الانسان باختلاف اللون والعرق، ولا يتجه سلوك الانسان اتجاهاً معيناً تبعاً للاقليم والوطن، وإنما يختلف الانسان عن اخيه الانسان تبعاً لاختلاف العقيدة والمبدأ والسلوك المنتظم في ذلك المبدأ وما مَثَل اختلاف الناس في الألوان والأعراق مع اتفاقهم في الحقيقة والجوهر إلا مَثل الصورة نراها في نور قوي وباهت أو في ظلام، فأنت على يقين ان حقيقة المرئي واحدة وإنما جاء الخلاف الخارجي لسبب خارجي وشتان ما بين الحقيقة والمثال.

قال الله تعالى :﴿يا أيُّها النَّاس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارَفوا إنَّ أكرمكم عند الله اتْقاكم.. يا أيُّها النَّاس اتّقوا ربكم الذي خلقكم منْ نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء...﴾ [1] وقال صلى الله تعالى عليه وسلم في خطبته المشهورة بحجة الوداع ؛ (لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا احمر على أبيض ولا أبيض على أحمر إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد..) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لأبي ذر رضي الله تعالى عنه « انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » رواه أحمد.

---

(١) الحجرات ١٣، النساء ١.

ولكن حين يرتكس الانسان في الجاهلية ـ وما سوى الاسلام جاهلية ـ يجعل من الأعراق والألوان والأقاليم والأوطان مدعاة للتميز والتفاخر أو الاسفاف. استمع الى المتنبي التاجر بشعره والذي يمدح كافوراً الأخشيدي الأسود بما يمدحه به طمعاً في امارة أو جائزة، ولا ينالها. . فتتحرك في نفسه بقايا جاهلية العاطفة فيذم كافوراً بداليته التي يقول فيها :

من علم الأسود المخصي مكرمة
أقومه البيض أم أباؤه الصيد

وجندي بريطاني يقاتل لاخماد ثورة في كينيا من قبائل ماوماو التي نالت استقلالها اخيراً ـ وقضية فلسطين لما تحل بالحق بعد ـ يقول لجندي مثله : ان هؤلاء الافريقيين وحوش. تصور أن أحدهم عضني وانا اقتله. . !

واليك قصة من اميركا : جلست زنجية أميركية في احدى السيارات العمومية في مقاعد البيض ورفضت الانتقال من مقعدها عندما طلب اليها الانتقال الى المقاعد المخصصة للزنوج، فقبض عليها رجال الشرطة واقتادوها الى قسم البوليس، ثم قُدمت للقضاء فقضت المحكمة بتغريمها، فقرر جميع الزنوج في الولاية مقاطعة السيارات العمومية احتجاجاً على ذلك، ولكن هيئة المحلَّفين في الولاية أصدرت قراراً بأن هذه المقاطعة غير مشروعة

واعتقل على اثر ذلك مائة زنجي مّن المتزعمين لهذه المقاطعة وتقرر تقديمهم للمحاكمة [1].

ان الانسان هو الانسان لا يرتفع به أو يرتكس زمانٌ أو مكان، وإنما يرتفع به أو يرتكس إسلام وغير إسلام. لا يسمو به علمٌ ولكن يسمو به دين. لا تهذبه مدنية ولكن يهذبه خُلق.

٢ ـ ونتساءل الآن : هل فقد الاسلام جدته على مرور أربعة عشر قرناً منذ إنزاله إلى الأرض وعلى تبدل مظاهر الحياة وتقدم المدنية؟ ونجيب كلا. . ان الاسلام لم يفقد جدته ولن يفقدها الى أن يرث الله تعالى الأرضَ ومَن عليها. ونؤيد هذا الجواب فيما يلي :

إن الاسلام يخاطب حقيقة الانسان وهي واحدة دوماً، يخاطب فطرة الانسان ويحكم على حاجاته العضوية وهي واحدة دوماً، يهدي الانسان ويقيه الشر، وهو في خسر وضلال دوماً الا حين يعيش بالاسلام.

وهذا بيان يساعد هذه الافكار على البيان.

أ ـ حقيقة الانسان واحدة ما مر عليها فترات من التطور والترقي من دودٍ الى حيوانٍ فانسانٍ ثم يصبح «سوبرمان». إن الله تعالى يقرر هذه الحقيقة صراحة في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿يا أيُّها الناس اتَّقوا ربَّكم الذي خلقكم منْ نفسٍ واحدةٍ وخلق منها

(١) نقلها الدكتور علي عبد الواحد في سلسلة كتب اقرأ المساواة في الاسلام.

زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء. . . ﴾ [١] ويقرر أنه خلق الانسان في أحسن تصوير وتكوين، فيقول سبحانه : ﴿لقد خلنا الانسان في احسن تقويم. .﴾ [٢] ويقرر - وهو الخالق العظيم العليم - انه قد عاقب اقواماً من اليهود فنكس خلقهم وجعلهم قردة وخنازير، فيقول جل جلاله : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السَّبت فقُلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [٣]. . ﴿واسألهم عن القرية التي كانتْ حاضرة البحر إذ يعدون في السبت. . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين. . قل هَل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شرٌ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل﴾ [٤].

قال الطبري : حدثني المثني، قال حدثنا عبد الله بن صالح، قال حدثنا:حدثني معاوية عن علي، عن ابن عباس قوله : ﴿وإذ قالتْ أمَّة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ [٥] هي قرية على شاطىء البحر بين مكة والمدينة يقال انها « أيلة » فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرَّعاً في ساحل البحر، فاذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم أن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله

(١) سورة النساء ١.
(٢) التين ٤.
(٣) البقرة : ٦٥
(٤) الأعراف : ١٦٣، المائدة ٦٠.
(٥) الأعراف : ١٦٤

عليكم يوم سبتكم! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم. فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تعلموا ان هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب لِمَ تعظون قوماً الله مهلكم، وكانوا [١] اشد غضباً لله من الطائفة الاخرى [٢]، فقالوا: ﴿معذرةً الى ربِّكم ولعلَّهم يتقون﴾. وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تعظون قوماً الله مُهلكهم﴾ والذين قالوا: ﴿معذرة الى ربكم﴾ وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة وخنازير [٣].

روى الطبري هذا الخبر بسنده الى ابن عباس من اكثر من طريق مع اختلافٍ في الروايات. والعلماء يقولون: تفسير الصحابي له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع الى اسباب النزول وكل ما ليس للرأي فيه مجال. أما ما يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم [٤].

قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: ... وحينئذ اذ لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك الى اقوال الصحابة فانهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والاحوال التي اختصوا

---

(١) أي الطائفة من النهاة. (٢) أي التي سكتت.

(٣) تفسير الطبري ج ١٣ ص ١٨٦ طبعة المعارف.

(٤) التفسير والمفسرون: محمد حسين الذهبي ج ١ ص ٩٥.

بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولاسيا علماؤهم وكبراؤهم كالائمة الاربعة والخلفاء الراشدين والائمة المهتدين المهديين وعبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنهم « ج ١ ص٣ ».

قلت وخبر ابن عباس ترجمان القرآن مما لا مجال للرأي فيه فله حكم الحديث المرفوع والله أعلم.

ولطالما دعا الله تعالى الاقوام المختلفة بأولاد آدم، وما احلى النداء الرباني للمؤمنين في حق أدب من آدب الصلاة كدنا نتخذه مهجوراً : ﴿ يا بني آدم خُذوا زينتكم عند كلِّ مسجدٍ وكُلوا واشربوا ولا تُسرفوا انَّه لا يُحبُّ المسرفين ﴾ [1]. وقد كذّب المفسرُ الآلوسي دعوى بعض الباطنية الذين نسبوا كذباً الى ابن عباس أو غيره ـ وما اكثر ما افتري عليه رضي الله تعالى عنه في التفسير حتى نسبوا اليه تفسيراً سموه « تنوير المقياس من تفسير ابن عباس » وليس هو له، لكنه جمعٌ لما نسب إليه قام به مجد الدين الفيروزبادي صاحب القاموس، وليس كل ما فيه له رضي الله تعالى عنه ـ أنه قال : كان قبل آدم عليه الصلاة والسلام آدامٌ كثيرون. وميل الشيخ محمد عبده إلى هذا الرأي وذكْر احمد امين ذلك لا عبرة به، فلهما ميل الى غير الحق كثير.

ذلك ان الله تعالى ذكر آدم واحداً. وبينّ لنا في القرآن كيف

---

(١) الاعراف ٣١.

خلقه وعلّمه أسماء الاشياء كلها وأسجد له الملائكة وأنـزل عليه الهدى وجعله نبياً. وقد انتهى العلم الطبيعي بأدلتـه المعتبـرة الى تأكيد إخبار الله تعالى عن خلق الانسان وتكذيب الخبيث دارون الذي احتضن اليهود فريته.

أما وقد بان أن حقيقة الانسـان واحـدة، وانهـا فوق الزمـان والمكان ـ شأن جميع الحقائق ـ فالاسلام الذي صلح لنوع من البشر في زمن يصلح لكل نوع منه في كل زمن. والاسلام الـذي أحيا العرب من الموت الادبي يوماً يحيي كل قوم كل يوم، الاسلام الذي اقام في بقعة من الارض المدنية الفاضلـة يقيمهـا في سائـر بقـاع الارض، الاسلام الذي نهض بالانسانية زماناً ينهض بهـا في كل زمان، لذا لا نجد غريباً أن يشرع الاستعمار كل سلاح، وان يبذل كل طاقة ليحول بين الاسـلام وعيش اهلـه. وأن يسلـط زبـانيه الدعاية ودهاقين السياسة ودجاجلة الفكر وتجار المبادىء لينهشـوا من الاسلام وينتقصوا الدعاة اليه. واحيلك على كتاب : التبشير والاستعمار لترى كل عجيبة . .

ب ـ **فطرة الانسان واحدة**، ما مرّ عليها فترات من التطـور أو الزيادة والنقصان.

واليك فطرة حب الحياة والبقاء الدائم. لقـد استطـاع ابليس عليه من الله ما يستحق ـ لحكمة يعلمها الله تعالى ـ ان يوسوس لآدم عليه السلام بأن يأكل من الشجـرة التـي نُهـي عن اكلهـا، وسوس له بالقسم ـ وما ظن آدم عليه الصلاة والسلام أنَّ أحـداً

يقسم بالله كذباً ـ بأنه اذا أكل من الشجرة فسيخلّد ابداً ويقيم على النعيم والطاعة دوماً، وذلك شيء محبوب في فطرة كل إنسان. وقد حكى الله تعالى ذلك في القرآن الكريم فقال : ﴿ . . قال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشَّجرة الاَّ أنْ تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين. . ﴾ الاعراف: ٢١ :

فهل يأتي على البشرية طور لا تحب فيه الحياة؟

ان الانسان يسعى أن يعمر ألف سنة وألفي سنة ويحب الخلود. . ولو في ذريته.

ان الذي يقاتل في سبيل الله تعالى يسعى الى الحياة لا الى الفناء، بل ان الذي يموت في سبيل دنيا يطمع في الخلود ولو على ورقة أو حجر. .

إن حب الانسان الحياة طبيعة انسانية قديماً وحديثاً، والشذوذ عنها جنون ولا حساب للجنون.

واليك فطرة التدين : التدين فطرة في كل انسان وطبيعة، وإنه يستحيل ان يعيش الانسان دون دين [1]. لكنه إما أن يدين لله الحق، وهو ما يعني الفطرة المستقيمة من لدن آدم عليه الصلاة والسلام الى أن يرث الله الارض ومن عليها، وإما أن يدين لهوى أو شخص أو مبدأ أو مظهر من مظاهر الكون. انظر الى تاريخ الانسان في الأرض تجد أن الدين كان دوماً أهم مقومات حياته.

(١) احيلك في هذا الموضوع على كتاب الاستاذ محمد قطب القيم التطور والثبات في حياة البشرية.

وهذا الدين المنحرف الذي بدأ بالشيطان عدو الانسان الألدّ ويستمر به وبأمثاله الى أن يرث الأرض ومن عليها، هذا الدين المنحرف تميل اليه النفوس المريضة، لأن تعاليمه وعباداته متابعة للاهواء وانغماس في الشهوات، استباحة للظلم والفساد، وانتهاك الاعراض وانكار الحقوق، وتخلص من القيام بالواجبات الفطرية كما تجد هذا في عبّاد الطبيعة في ايامنا هذه! إن دين الانحراف سهل لأنه دين لا تكاليف فيه، ولا يخلو عن صعوبة لأنه يخالف العقل والفطرة لذا يسعى اصحابه لطمس العقل بالخمر ووأد الفطرة بدعوى التطور!

ان التدين لا ينشأ عن الخوف، فان المؤمن بالله سبحانه يحب ربه ويقدم في سبيل مرضاته كل شيء، تفيض عينه بالدمع شوقاً الى لقائه، وترتقي نفسه صعداً الى طلب مرضاته، والخوف لا يورث حباً وتضحية. قالت مجلة لواء الاسلام : شرعت الشيوعية في تنظيم دروس في مدارسها لتعليم الالحاد ومقاومة النزعات الدينية في الأفراد حتى لا ينشؤوا على عقيدة الايمان بالله تعالى. فلينظموا من الدروس ماشاؤوا وليبذلوا من الجهود ما استطاعوا فسيظل الايمان في صدر الانسان، وسيبقى الدين فطرة في النفوس البشرية : ﴿فِطرة الله التي فطر النَّاسَ عَليها لا تبديلَ لخلق الله ذلكَ الدين القيم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ [1] وإن الايمان بالله العلي الأعلى موجد الخلق ومجري الرزق سيظل في الصدور

---

(١) الروم : ٣٠

والقلـوب ما دامـت هنـاك عيون ترى، وعقـول تفـكر ورؤوس تدرك، لأن الله نور السموات والأرض، ولأن مشاهد الكون كلها تنادي بألوهيته ووحدانيته ﴿ وإنْ من شيء إلا يسبّح بحمده﴾ [1].

يقول الله تعالى: ﴿والذين آمنُوا بالبَاطلِ وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون. . أفرأيت من اتخذ إلهـه هواه واضلـه الله على علـمٍ وختم على سمعهِ وقلبهِ وجعل على بصرِه غشاوة. . ﴾ [2].

فهل يأتي على البشرية طور تحيا فيه دون دين؟ كلا.

ولكن واويل من يؤمن بالباطل ويكفر بالله! فانه خاسر في الدنيا إذ يبقى مرغماً على الخضوع لنظـام الله تعـالى في نفسـه وجسمـه وتكوينه وعيشته، ويزيد عليه الخضوع لضعيف مثله. . ! وخاسرٌ في الآخرة ﴿ يوم يُدعُّون الى نارِ جهنمَّ دعّاً هذه النار التي كنتم بها تكذِّبون. أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون! اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم، إنما تُجزون ما كنتم تعملون﴾. الطور ١٢ - ١٦.

وشتان بين : ﴿يوم نحشرُ المتقـين إلى الرَّحمـن وفـداً﴾. و : ﴿ ونسوقُ المجرمين إلى جهنَّم ورْداً﴾. مريم ٨٥.

وحاجات الانسان العضوية الطبيعية ما مرًّ عليها فترة من فترات التطور بالزيادة أو النقصان.

حاجة الانسـان الى الطعـام والشراب والمسـكن هل استغنـى

---

(١) لواء الاسلام ذو القعدة سنة ١٣٨٣

(٢) العنكبوت ٢٩، الجاثية ٢٣.

الانسان عنها يوماً من الايام؟ وهل ترك الانسان طلبها في صورة من صور التقدم؟ اللهم إلا هذا الانسان المجنون الذي يترك الملبس ساعات قليلة لا استغناء عن الحاجة الطبيعية ولكن تلبية لدعوة شيطانية!

وحاجة الانسان الى الجنس، هل استغنى الانسان عنها؟ هل ترفع الانسان عنها في صورة من صور التقدم والتطهر؟ كلا بل هو التمادي والاصرار. إن الظاهرة العامة الشاملة في الدول الاشتراكية والرأسمالية على السواء هي ان الجنس يأخذ القسط الأوفر من الحرية! وما تلك القصص الداعرة والأفلام الماجنة والأزياء الفاسقة والمعروضات المهيجة والستريوهات المنتشرة هنا وهناك ووسائل الاعلام التي تبث ساعات وساعات، ما هذه جميعاً إلا إعلاناً بأن حاجة الانسان الجنسية لا تزول بل انها تأخذ قسطها الاوفر من الحرية في التمادي والظهور وإنها تنحرف ـ كغيرها ـ حين ينحرف الايمان ويضل العقل وتطمس الفطرة.

من يقرأ الاحصاءات الاميركية والبريطانية والفرنسية والروسية عن آثار انحراف الجنس في الامراض واولاد الزنا وتفكك الاسر، يلمس حقيقة : ان حرية الجنس تأخذ الحظ الأوفر من الحريات في بلدان العالم.. وانها كفيلة باهلاك الانسان [1].

---

(١) ولا اطيل في هذه العجالة بل احيلك الى : « الاسلام ومشكلات الحضارة، التطور والثبات، نظام الاسلام ». وتفسير آيات المائدة في ذكر نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً..

اما وقد بان ان فطرة الانسان واحدة ، وانها فوق الزمان والمكان، فالاسلام الذي صلح لنوع من البشر في زمن يصلح لكل نوع منه في كل زمن، الاسلام الذي احيا العرب من الموت الادبي يوما يحيي كل قوم كل يوم، الاسلام الذي اقام في بقعة من الارض المدنية الفاضلة يقيمها في سائر بقاع الارض، الاسلام الذي نهض بالانسانية زماناً ينهض بها في كل زمان.

٣ ـ حاجة الانسان الى هداية ربه دائمة

هل شبَّ الانسان عن الطوق واستغنى عن هدى الله تعالى في الحياة؟ ان نظرة واحدة الى العالم اليوم وما فيه من اصطراع الحكام كباراً وصغاراً، وتهديداتهم، ومناوراتهم ودعاويهم العريضة، وحروبهم الباردة والساخنة، تعطينا النتيجة الميئسة من الانسان! إن دراسة الأوضاع الاجتماعية في المجتمعات التي تعيش غير مهتدية بهدي الله تعالى، وما فيها من الظلم والغش والسرقة، والبغض والانانية، وألوان الجريمة والاثم ما يندى له جبين انسان الغابة ـ كما يقولون ـ تلك الدراسة تعطينا النتيجة الميئسة من هذا الانسان. . الانسان الذي ينسى أنه عبدٌ لله، فقير اليه، جاهل بنفسه ومعمي عن مستقبله [1].

---

(١) واذا شئت معرفة حالة الحكام والشعوب قبل الاسلام فدونك كتاب : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي.

قال الله تعالى : ﴿ والعصر انَّ الانسان لفـي خُسرٍ إلا الـذين آمنوا وعملوا الصَّالحات وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصبر ﴾.

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : « إنّـي حرَّمتُ الظُّلم على نفسي وجعلتُه محرماً بينكم فلا تظالموا. يا عبادي كلُّكم ضال الا من هديته فاستهدوني اهدكم. يا عبادي كلـكم جائع الا من اطعمته فاستطعموني اطعمكم. يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني اكسكم. يا عبادي انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا اغفر الذنوب جميعاً ـ غير الشرك ـ فاستغفروني اغفر لكم. يا عبادي انكم لن تبلغوا ضرُي فتضرُّوني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجِنكم كانوا على اتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجِنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن اولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحـد فسألونـي فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي شيئـاً الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر. يا عبادي إنما هي اعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ الا نفسه » [1].

* * *

---

(١) مسلم وابن حبان والحاكم.

٤ ـ حاجة البشرية الى الاسلام [1]

هذه الحضـارة التـي نعيشهـا اليوم ليسـت ملـكاً لهـذا العصر وليست صنيعة اقوام اوروبا، انهـا اثـر العلـم الـذي اسهـم فيه المصريون والهنـود والفينيقيون والفـرس واليونـان والمسلمـون واوروبا أخيراً، اما الانحـراف في هذه الحضـارة فهـو من صنـع اوروبا التي نظـرت الى هذا الانسـان نظـرة تكاد تكون محـدودة بالبطن والشهوة، وتغابت عن روحه ونفسه. تجاهلت ان الانسان كما هو قبضة من طين فهو نفخة من روح رب العالمين ـ كما قال الاستاذ محمد قطب ـ ومن هنا كان الانحراف والانحدار والتسفل في تلك الحضارة، والتردي في الهاوية الفاغـرة فاهـاً تريد اهـلاك البشرية!

هذه الحضارة التي يمسك قيادها انـاس لا يؤمنـون بالله تعـالى ويتجاهلون حقيقة الانسان، لا ينتظر منها خـير للبشرية قط، ان ذاتها وكنهها فاسد وروحها مدّمرة مخربة وكما لا يقال للماء النازل لا تنزل، وللصخرة المترداة من علٍ لا تردي، كذا لا يقال لهـذه الحضارة لا تفسدي ولا تدمري، لأنها جميعاً لا تملك أن تنحرف عن طبيعتها.. وفاقد الشيء لا يعطيه!

الحضارة اليوم تعيش تجارب! تجارب يجربها قادتها على معمل

---

(١) انظر مستقبل البشرية في التطور والثبات ص ٢٩، فهذا الفصل من روح ذلك البحث، وهذه الرسالة من روح ذلك الكتاب.

التجارب وهو هذا العالم، وعلى هذا الساكن المسكين وهو الانسان! تعمَّق تلك التجربة وتوسعها و. . . و. . ثم يظهر فسادها، فترقع من هنا وهناك، وتوتد من هنا وهناك (باسم التطور لا الجهل والخطأ). . ولكن لا بد من انهيار التجربة وغور عمقها. . فتظهر تجربة اخرى واخرى. . وهكذا دواليك. . حلقة مفرغة اشبه بحمار الرحى لولا ان الحيوان اسعد حالاً يوم القيامة من الكافر﴿ ويقول الكافر يا ليتني كُنت تُراباً﴾. النبأ ٤٠ .

الاسلام وحده كفيل بحفظ الحضارة الانسانية وتنميتها وتوجيهها في مصلحة الانسان، ذلك لأن الاسلام ينظر الى الانسان من جميع جوانبه، ويرشده في جميع ميادينه، يغذي روحه وإيمانه، يربي ضميره ووجدانه، يوجه عقله وفكره، ويدفعه الى الانتفاع بهذا الكون المسخّر له لأنه مخلوق من اجله، فما عليه الا أن يتعرف على قوانين الله تعالى فيه ليصل الى خيراته فينتفع بها ويعيش في سلام وامان. الانسان فيه اخ الانسان وقوام الأخوة فيه : حب وتعاون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان.

لقد جربت البشرية الاسلام قروناً فعاشت به في سعادة، وكانت الحضارة التي رعاها وغذاها عنصراً من عناصر الخير والسعادة للانسانية.

فمتى. . ؟ متى تعود البشرية الى فطرتها وانسانيتها؟!

الاسلام هو الدين الوحيد الذي يتفق مع الفطرة الانسانية.

نظام الاسلام هو النظام الوحيد الذي يتفق مع الفطرة الانسانية.

ان الانسانية بعد اربعة عشر قرناً من الزمان تحس انها محتاجة الى الايمان بالله تعالى وحده، لتطمئن وترضى ولتتخلص به من عبادة غيره سبحانه فترتفع عن الذلة والخنوع للبشر الى العزة بالعزيز القهار.

ان الانسانية بعد اربعة عشر قرناً من الزمان تجد نفسها محتاجة الى الايمان بالله تعالى لتسعد، ولتشفي نفسها من القلق والحرج وأمراض النفس والجنون.

انها تحس أنها محتاجة الى نظام الاسلام لتستقيم به في الحياة، وللتخلص به من تأله العبيد وتشريع الطواغيت، فترتفع في نظامها من السهو والسقط والعثرات وتجنب نفسها عاقبة التجربة، ومواقع الذل والهلاك!

انها محتاجة الى نظام الاسلام لتجد به طريق السعادة والرضا وحفظ الكرامة في الدنيا قال الله تعالى: ﴿ ومن اعرض عن ذِكري فانَّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى.. من عمل صالحاً مِنْ ذكرٍ أو انثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبة ولنَجْزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.. يا أيُّها الذين آمنوا اسْتجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحولُ بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون﴾ [1].

---

(١) طه ١٢٤، النحل ٩٧، الانفال ٢٤.

ان البشرية في أمسّ الحاجة الى نظام يعيد للانسان ـ كانسان ـ كرامته وحقه في الحياة. انها في أمسّ الحاجة الى نظام يطبق أخوة الانسان للانسان، فلا خلاف بالالوان والاعراق، ولا تمايز بالاجناس والقارات. انها في أمس الحاجة الى نظام يربط بين الانسان وأخيه الانسان، على حب وتعاون على البر والتقوى لا على الاثم والعدوان فلا ظلم ولا فساد ولا طغيان ولا استبداد، ولا تأله ولا استعباد، ولا حروب ولا أحقاد بين المجتمعات والطبقات.

ان البشرية في أمس الحاجة الى حياة السلام. السلام الذي ليس دعوى دون برهان، وليس استعماراً أو اضطهاداً للبشر، ليس محادَّة لله تعالى، ومحاربة للفطرة البشرية، بل السلام الذي هو ايمانٌ بالله تعالى وخضوعٌ لاحكامه من البشر جميعاً. ومن اجل هذا يجاهد المسلمون دون أن يكرهوا غير المسلم على الدخول في الاسلام. قال الله تعالى : ﴿ يا ايُّها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافَّةً ولا تتبَّعوا خُطوات الشَّيطان انَّه لكم عدوّ مبين. . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (١).

فمتى. . متى تعود البشرية الى فطرتها فتؤمن بالله وتعيش بالاسلام؟!

ان الكفرة الفجرة يرونه بعيداً ونراه قريباً، فان التباشير تبدو من

---

(١) البقرة ٢٠٨، الانفال ٣٩.

خلل الغمام، والانوار تلوح وراء افق الظلام، وكلما ازداد الغمام سواداً ازدادت الشمس بعد انقشاعها سطوعاً، وكلما أدْلَهَمّ الليل كان الفجر بعده اعظم ضياء، وفي كلام العرب : اشتدي ازمة تنفرجي. وفي القرآن الكريم : ﴿ فانَّ مع العسر يسراً. ان مع العسر يُسراً ﴾ اللهم لا يأس، فلا يأس مع الحياة، ولا قنوط : ﴿قال ومنْ يقنط من رحمة ربِّه الا الضَّالون ﴾. الحجر ٥٦.

وبعد فاني أختم هذه الرسالة القاصرة الفجة بما ختم به الاستاذ محمد قطب كتابه القيم التطور والثبات في حياة البشرية.

كلا لن يدع الاعداء الفرصة لنماء هذا الدين!

ولقد قاموا بالفعل بقتل جميع الامكانيات بالنسبة لقيام جماعة مسلمة في هذا الجيل! ولكن البشر ليسوا هم المحكَّمين في دين الله : ﴿ والله غالبٌ على امره ولكنَّ اكثر النّاس لا يعلمون ﴾. يوسف ٢١.

ذات يوم من التاريخ توغل الصليبيون في البحر الاحمر وقلبوا سفينة للحجاج وقتلوا من فيها، ونزلوا في جدة وساروا بالفعل نحو الأرض المقدسة باقدامهم المدنسة. لو أن انسانا وقف يرصد التاريخ في تلك اللحظة، مقطوع الصلة بالغيب المستور، لقال ان الاسلام قد انتهى ولن تقوم له قائمة بعد اليوم. . فليس بعد ذلك شيء. . ولكننا نعلم من التاريخ أن هذه الحادثة بالذات هي السبب في قومة صلاح الدين. . قاهر الصليبيين!

واليوم يخنق الصهيونيون و. . الاسلام في كل الأرض.

ثم . . ثم ينتشر الاسلام في افريقيا بصورة تزعج اعصاب . . !

وينتشر الاسـلام في زنـوج امـيركا المضطهـدين . . في داخـل السجون التي تضطهدم وتشردهم .

تلك اشارة الى المستقبل !

وتلك اشارة موحية للاجيال القادمة من المسلمين !

﴿ والله غالبٌ على امره ولكنَّ اكثر الناس لا يعلمون ﴾

وصلى الله تعالى على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه وسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

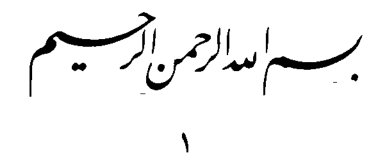


للأستاذ سيّد قطب



هذا الكتيب هو نص رسالة بعث بها الشـهيد سيد قطـب إلى أختـه الاديبـة أمينة قطب.

وقــد نشرتهــا لأول مرة مجلــة « الفكر » التونسية بعنوان اضـواء من بعيد. وذلك في العدد السادس، السنة الرابعة. آذار (مارس) ١٩٥٩ .



١

أختي الحبيبة.. هذه الخواطر مهداة إليك...

إن فكرة الموت ما تزال تخيل لك، فتتصورينه في كل مكان، ووراء كل شيء وتحسبينه قوة طاغية تظل الحياة والاحياء، وترين الحياة بجانبه ضئيلة واجفة مذعورة.

انني أنظر اللحظة فلا أراه إلا قوة ضئيلة حسيرة بجانب قوى الحياة الزاخرة الطافرة الغامرة، وما يكاد يصنع شيئاً إلا أن يلتقط الفتات الساقط من مائدة الحياة ليقتات!..

مد الحياة الزاخر هو ذا يعج من حولي!.. : كل شيء إلى نماء وتدفق وازدهار. الأمهات تحمل وتضع.. الناس والحيوان سواء. الطيور والأسماك والحشرات تدفع بالبيض المتفتح عن أحياء وحياة. الأرض تتفجر النبت المتفتح عن أزهار وثمار.. السماء تتدفق بالمطر، والبحار تعج بالأمواج. كل شيء ينمو على هذه الأرض ويزداد!

بين الحين والحين يندفع الموت فينهش نهشة ويمضي، أو يقبع حتى يلتقط بعض الفتات الساقط من مائدة الحياة ليقتات!.. والحياة ماضية في طريقها، حية متدفقة فوارة، لا تكاد تحس بالموت أو تراه!..

لقد تصرخ مرة من الألم، حين ينهش الموت من جسمها نهشة، ولكن الجرح سرعان ما يندمل، وصرخة الألم سرعان ما تستحيل مراحا.. ويندفع الناس والحيوان، الطير والأسماك، الدود والحشرات، العشب والأشجار، تغمر وجه الأرض بالحياة والأحياء!.. والموت قابع هنالك ينهش نهشة ويمضي.. أو يتسقط الفتات الساقط من مائدة الحياة ليقتات!!

الشمس تطلع، والشمس تغرب، والأرض من حولها تدور، والحياة تنبثق من هنا ومن هناك.. كل شيء إلى نماء.. نماء في العدد والنوع، نماء في الكم والكيف.. لو كان الموت يصنع شيئاً لوقف مد الحياة!.. ولكنه قوة ضئيلة حسيرة، بجانب قوى الحياة الزاخرة الطافرة الغامرة...!

من قوة الله الحي.. : تنبثق الحياة وتنداح!!

٢

عندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود!..

أما عندما نعيش لغيرنا، أي عندما نعيش لفكرة، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض!..

إننا نربح أضعاف عمرنا الفردي في هذه الحالة، نربحها حقيقة لا وهماً، فتصور الحياة على هذا النحو، يضاعف شعورنا بأيامنا

وساعاتنا ولحظاتنا. وليست الحياة بعدّ السنين، ولكنها بعداد المشاعر. وما يسميه « الواقعيون » في هذه الحالة « وهماً »! هو في « الواقع »، « حقيقة » أصح من كل حقائقهم!.. لأن الحياة ليست شيئاً آخر غير شعور الإنسان بالحياة. جرد أي إنسان من الشعور بحياته تجرده من الحياة ذاتها في معناها الحقيقي! ومتى أحس الإنسان شعوراً مضاعفاً بحياته، فقد عاش حياة مضاعفة فعلاً..

يبدو لي أن المسألة من البداهة بحيث لا تحتاج إلى جدال!..

اننا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة، حينما نعيش للاخرين، وبقدر ما نضاعف احساسنا بالآخرين، نضاعف احساسنا بحياتنا، ونضاعف هذه الحياة ذاتها في النهاية!

٣

بذرة الشر تهيج، ولكن بدرة الخير، تثمر، إن الأولى ترتفع في الفضاء سريعاً ولكن جذورها في التربة قريبة، حتى لتحجب عن شجرة الخير النور والهواء ولكن شجرة الخير تظل في نموها البطيء، لأن عمق جذورها في التربة يعوضها عن الدفء والهواء..

مع أننا حين نتجاوز المظهر المزور البراق لشجرة الشر، ونفحص عن قوتها الحقيقية وصلابتها، تبدو لنا واهنة هشة نافشة في غير صلابة حقيقية!.. على حين تصبر شجرة الخير على البلاء، وتتماسك للعاصفة، وتظل في نموها الهادىء البطيء، لا تحفل بما ترجمها به شجرة الشر من أقذاء وأشواك!..

٤

عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، نجد أن هناك خيراً كثيراً قد لا تراه العيون أول وهلة!..

لقد جربت ذلك. جربته مع الكثيرين.. حتى الذين يبدو في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء الشعور..

شيء من العطف على أخطائهم، وحماقاتهم، شيء من الود الحقيقي لهم، شيء من العناية - غير المتصنعة - باهتماماتهم وهمومهم.. ثم ينكشف لك النبع الخيِّر في نفوسهم، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم، في مقابل القليل الذي أعطيتهم اياه من نفسك، متى أعطيتهم اياه في صدق وصفاء واخلاص. إن الشر ليس عميقاً في النفس الإنسانية إلى الحد الذي نتصوره أحياناً. إنه في تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء.. فإذا أمنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية.. هذه الثمرة الحلوة، إنما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناس بالأمن في جانبه، بالثقة في مودته، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم، وعلى أخطائهم وعلى حماقاتهم كذلك.. وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله، أقرب مما يتوقع الكثيرون.. لقد جربت ذلك، جربته بنفسي. فلست أطلقها مجرد كلمات مجنحة وليدة أحلام وأوهام!..

٥

عندما تنمو في نفوسنا بذور الحب والعطف والخير نعفي أنفسنا من أعباء ومشقات كثيرة! . إننا لن نكون في حاجة إلى أن نتملق الآخرين لأننا سنكون يومئذ صادقين مخلصين اذ نزجي إليهم الثناء. إننا سنكشف في نفوسهم عن كنوز من الخير وسنجد لهم مزايا طيبة نثني عليها حين نثني ونحن صادقون، ولن يعدم إنسان ناحية خيرة أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة. . ولكننا لا نطلع عليها ولا نراها إلا حين تنمو في نفوسنا بذرة الحب! . .

كذلك لن نكون في حاجة لأن نحمل أنفسنا مؤونة التضايق منهم ولا حتى مؤونة الصبر على أخطائهم وحماقاتهم لأننا سنعطف على مواضع الضعف والنقص ولن نفتش عليها لنراها يوم تنمو في نفوسنا بذرة العطف! وبطبيعة الحال لن نجشم أنفسنا عناء الحقد عليهم أو عبء الحذر منهم فإنما نحقد على الآخرين لأن بذرة الخير لم تنم في نفوسنا نمواً كافياً ونتخوف منهم لأن عنصر الثقة في الخير ينقصنا!

كم نمنح أنفسنا من الطمأنينة والراحة والسعادة، حين نمنح الآخرين عطفنا وحبنا وثقتنا، يوم تنمو في نفوسنا بذرة الحب والعطف والخير!

٦

حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً، أو أطيب

منهم قلباً، أو أرحب منهم نفساً أو أذكى منهم عقلاً لا نكون قد صنعنا شيئاً كبيراً. . لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة!

إن العظمة الحقيقية : أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع!

انه ليس معنى هذا أن نتخلى عن آفاقنا العليا ومثلنا السامية أو أن نتملق هؤلاء الناس ونثني على رذائلهم أو أن نشعرهم أننا أعلى منهم أفقاً. . ان التوفيق بين هذه المتناقضات وسعة الصدر لما يتطلبه هذا التوفيق من جهد : هو العظمة الحقيقية!.

٧

عندما نصل إلى مستوى معين من القدرة نحس أنه لا يعيبنا أن نطلب مساعدة الآخرين لنا، حتى أولئك الذين هم أقل منا مقدرة! ولا يغض من قيمتنا أن نكون معونة الآخرين لنا قد ساعدتنا على الوصول إلى ما نحن فيه. اننا نحاول أن نصنع كل شيء بأنفسنا، ونستنكف أن نطلب عون الآخرين لنا، أو أن نضم جهدهم إلى جهودنا. . كما نستشعر الغضاضة في أن يعرف الناس أنه كان لذلك العون أثر في صعودنا إلى القمة. . أننا نصنع هذا كله حين لا تكون ثقتنا بأنفسنا كبيرة أي عندما نكون بالفعل ضعفاء في ناحية من النواحي . . أما حين نكون أقوياء حقاً فلن

نستشعر من هذا كله شيئاً . . إن الطفل هو الذي يحاول أن يبعد يدك التي تسنده وهو يتكفأ في المسير!

عندما نصل إلى مستوى معين من القدرة، سنستقبل عون الآخرين لنا بروح الشكر والفرح . . الشكر لما يقدم لنا من عون . . والفرح بأن هناك من يؤمن بما نؤمن به نحن . . فيشاركنا الجهد والتبعة . . إن الفرح بالتجاوب الشعوري هو الفرح المقدس الطليق! . .

٨

إننا نحن إن « نحتكر » أفكارنا وعقائدنا، ونغضب حين ينتحلها الآخرون لأنفسهم، ونجتهد في توكيد نسبتها إلينا، وعدوان الآخرين عليها! إننا إنما نصنع ذلك كله، حين لا يكون إيماننا بهذه الأفكار والعقائد كبيراً، حين لا تكون منبثقة من أعماقنا كما لو كانت بغير إرادة منا حين لا تكون هي ذاتها أحب إلينا من ذواتنا! . .

ان الفرح الصافي هو الثمرة الطبيعية لأن نرى أفكارنا وعقائدنا ملكاً للاخرين، ونحن بعد أحياء أن مجرد تصورنا لها أنها ستصبح ـ ولو بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض ـ زاد للاخرين ورياً، ليكفي لأن تفيض قلوبنا بالرضى والسعادة والاطمئنان!

« التجار » وحدهم هم الذين يحرصون على « العلاقات التجارية » لبضائعهم كي لا يستغلها الآخرون ويسلبوهم حقهم

من الربح أما المفكرون وأصحاب العقائد فكل سعادتهم في أن يتقاسم الناس أفكارهم وعقائدهم ويؤمنوا بها إلى حد أن ينسبوها لأنفسهم لا إلى أصحابها الأولين!

أنهم لا يعتقدون أنهم « أصحاب » هذه الأفكار والعقائد، وإنما هم مجرد « وسطاء » في نقلها وترجمتها.. إنهم يحسون أن النبع الذي يستمدون منه ليس من خلقهم، ولا من صنع أيديهم. وكل فرحهم المقدس، إنما هو ثمرة اطمئنانهم إلى أنهم على اتصال بهذا النبع الأصيل!..

٩

الفرق بعيد.. جد بعيد.. : بين أن نفهم الحقائق، وأن ندرك الحقائق. أن الأولى : العلم. والثانية هي : المعرفة!..

في الأولى : نحن نتعامل مع ألفاظ ومعان مجردة.. أو مع تجارب ونتائج جزئية..

وفي الثانية : نحن نتعامل مع استجابات حية، ومدركات كلية.

في الأولى : ترد إلينا المعلومات من خارج ذواتنا، ثم تبقى في عقولنا متحيزة متميزة..

وفي الثانية : تنبثق الحقائق من أعماقنا. يجري فيها الدم الذي يجري في عروقنا وأوشاجنا، ويتسق اشعاعها مع نبضنا الذاتي!..

في الأولى : توجد « الخانات » والعناوين : خانة العلم،

وتحتها عنواناته وهي شتى. خانة الدين وتحتها عنوانـات فصولـه وأبوابه. . وخانة الفن وتحتها عنوانات منهاجه واتجاهاته! . .

وفي الثانية : توجد الطاقة الواحدة، المتصلة بالطاقة الـكونية الكبـرى. . يوجـد الجـدول السـارب، الواصـل إلى النبـع الأصيل! . .

١٠

نحن في حاجة ملحـة إلى المتخصصـين في كل فرع من فروع المعارف الإنسانية أولئك الذين يتخذون من معاملهم ومكاتبهـم صوامع واديرة! . . ويهبون حياتهم للفرع الذي تخصصوا فيه، لا بشعور التضحية فحسب، بل بشعـور اللـذة كذلك! . . شعـور العابد الذي يهب روحه لالهه وهو فرحان! . .

ولكننـا مع هذا يجـب أن ندرك أن هؤلاء ليســوا هم الــذين يوجهون إلى الحياة، أو يختارون للبشرية الطريق؟ . .

إن الـرواد كانـوا دائماً. وسيكونـون هم أصحـاب الطاقـات الروحية الفائقة هؤلاء هم الذين يحملون الشعلـة المقدسـة التـي تنصهر في حرارتها كل ذرات المعارف، وتنكشف في ضوئها طريق الرحلة، مزودة بكل هذه الجزئيات قوية بهذا الزاد، وهـي تغـذ السير نحو الهدف السامي البعيد! . .

هؤلاء الـرواد هم الـذين يدركون ببصيرتهـم تلك الوحــدة الشاملـة، المتعـددة المظاهـر في : العلـم، والفــن، والعقيدة، والعمل، فلا يحقرون واحداً منها ولا يرفعونه فوق مستواه!

الصغار وحدهم، هم الذين يعتقدون أن هناك تعارضاً بين هذه القوى المتنوعة المظاهر، فيحاربون العلم باسم الدين، أو الدين باسم العلم. .

ويحتقرون الفن باسم العمل، أو الحيوية الدافعة باسم العقيدة المتصوفة! . . ذلك أنهم يدركون كل قوة من هذه القوى، منعزلة عن مجموعة من القوى الأخرى الصادرة كلها من النبع الواحد، من تلك القوة الكبرى المسيطرة على هذا الوجود! . . ولكن الرواد الكبار يدركون تلك الوحدة، لأنهم متصلون بذلك النبع الأصيل، ومنه يستمدون! . .

أنهم قليلون. . قليلون في تاريخ البشرية. . بل نادرون! ولكن منهم الكفاية . . : فالقوة المشرفة على هذا الكون، هي التي تصوغهم، وتبعث بهم في الوقت المقدر المطلوب!

١١

الإستسلام المطلق للاعتقاد في الخوارق والقوى المجهولة خطر، لأنه يقود إلى الخرافة. . ويحول الحياة إلى وهم كبير! . .

ولكن التنكر المطلق لهذا الاعتقاد ليس أقل خطراً : لأنه يغلق منافذ المجهول كله، وينكر كل قوة غير منظورة لا لشيء إلا لأنها قد تكون أكبر من ادراكنا البشري في فترة من فترات حياتنا! وبذلك يصغر من هذا الوجود - مساحة وطاقة، وقيمة كذلك، ويحده بحدود

« المعلوم وهو إلى هذه اللحظة حين يقاس إلى عظمة الكون - ضئيل.. جد ضئيل!..

إن حياة الإنسان على هذه الأرض. سلسلة من العجز عن ادراك القوى الكونية أو سلسلة من القدرة على ادراك هذه القوى، كلما شب عن الطوق وخطا خطوة إلى الأمام في طريقه الطويل!

إن قدرة الإنسان في وقت بعد وقت على ادراك إحدى قوى الكون التي كانت مجهولة له منذ لحظة وكانت فوق ادراكه في وقت ما.. لكفيلة بأن تفتح بصيرته على أن هناك قوى أخرى لم يدركها بعد لأنه لا يزال في دور التجريب!

إن احترام العقل البشري ذاته لخليق بأن نحسب للمجهول حسابه في حياتنا لا لنكل إليه أمورنا كما يصنع المتعلقون بالوهم والخرافة، ولكن لكي نحس عظمة هذا الكون على حقيقتها ولكي نعرف لأنفسنا قدرها في كيان هذا الكون العريض. وإن هذا الخليق بأن يفتح للروح الإنسانية كوى كثيرة للمعرفة وللشعور بالوشائج التي تربطنا بالكون من داخلنا وهي بلا شك أكبر وأعمق من كل ما أدركناه بعقولنا حتى اليوم بدليل أننا ما نزال نكشف في كل يوم عن مجهول جديد؛ وأننا لا نزال بعد نعيش!

١٢

من الناس في هذا الزمان من يرى في الاعتراف بعظمة الله المطلقة غضا من قيمة الإنسان وأصغاراً لشأنه في الوجود : كأنما

الله والإنسان ندان يتنافسان على العظمة والقوة في هذا الوجود!

أنا أحس أنه كلما ازددنا شعوراً بعظمة الله المطلقة زدنا نحن أنفسنا عظمة لأننا من صنع اله عظيم!

أن هؤلاء الذين يحسبون أنهم يرفعون أنفسهم حين يخفضون في وهمهم الهمم أو ينكرونه إنما هم المحددون الذين لا يستطيعون أن يروا إلا الأفق الواطىء القريب!

أنهم يظنون أن الإنسان إنما لجأ إلى الله أبان ضعفه وعجزه فأما الآن فهو من القوة بحيث لا يحتاج إلى اله! كأنما الضعف يفتح البصيرة والقدرة تطمسها!

أن الإنسان لجدير بأن يزيد احساساً بعظمة الله المطلقة كلما نمت قوته لأنه جدير بأن يدرك مصدر هذه القوة كلما زادت طاقته على الإدراك..

أن المؤمنين بعظمة الله المطلقة لا يجدون في أنفسهم ضعة ولا ضعفاً، بل على العكس يجدون في نفوسهم العزة والمنعة، باستنادهم إلى القوة الكبرى المسيطرة على هذا الوجود أنهم يعرفون أن مجال عظمتهم إنما هو في هذه الأرض، وبين هؤلاء الناس فهي لا تصطدم بعظمة الله المطلقة في هذا الوجود إن لهم رصيداً من العظمة والعزة في إيمانهم العميق لا يجده أولئك الذين ينفخون أنفسهم «كالبالون» حتى ليغطي الورم المنفوخ عن عيونهم كل آفاق الوجود!

أحياناً تتخفى العبودية في ثياب الحرية فتبدو انطلاقاً من جميع القيود انطلاقاً من العرف والتقاليد، انطلاقاً من تكاليف الإنسانية في هذا الوجود!

أن هنالك فارقاً أساسياً بين الإنطلاق من قيود الذل والضغط والضعف، والإنطلاق من قيود الإنسانية وتبعاتها أن الأولى معناها التحرر الحقيقي أما الثانية فمعناها التخلي عن المقومات التي جعلت من الإنسان إنساناً وأطلقته من قيود الحيوانية الثقيلة!..

أنها حرية مقنعة لأنها في حقيقتها خضوع وعبودية للميول الحيوانية، تلك الميول التي قضت البشرية عمرها الطويل وهي تكافحها لتتخلص من قيودها الخانقة إلى جو الحرية الإنسانية الطليقة..

لماذا تخجل الإنسانية من ابداء ضروراتها؟ لأنها تحس بالفطرة أن السمو مع هذه الضروريات هو أول مقومات الإنسانية وأن الإنطلاق من قيودها هو الحرية وأن التغلب على دوافع اللحم والدم وعلى مخاوف الضعف والذل كلاهما سواء في توكيد معنى الإنسانية!

١٤

لست ممن يؤمنون بحكاية المبادىء المجردة عن الأشخاص لأنه

ما المبدأ بغير عقيدة حارة دافعة؟ وكيف توجد العقيدة الحارة الدافعة في غير قلب إنسان؟

ان المبادىء والأفكار في ذاتها ـ بلا عقيدة دافعة ـ مجرد كلمات خاوية جو على الأكثر معان ميتة! والذي يمنحها الحياة هي حرارة الإيمان المشعة من قلب إنسان! لن يؤمن الآخرون بمبدأ أو فكرة تنبت في ذهن بارد لا في قلب مشع.

آمن أنت أولاً بفكرتك آمن بها إلى حد الاعتقاد الحار! عندئذ فقطيؤمن بها الآخرون!! وإلا فستبقى مجرد صياغة لفظية خالية من الروح والحياة!..

لا حياة لفكرة لم تتقمص روح إنسان، ولم تصبح كائناً حياً دب على وجه الأرض في صورة بشر!.. كذلك لا وجود لشخص ـ في هذا المجال ـ لا تعمر قلبه فكرة يؤمن بها في حرارة وإخلاص..

إن التفريق بين الفكرة والشخص كالتفريق بين الروح والجسد أو المعنى واللفظ عملية في بعض الأحيان مستحيلة وفي بعض الأحيان تحمل معنى التحلل والفناء!..

كل فكرة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان! أما الأفكار التي لم تطعم هذا الغذاء المقدس فقد ولدت ميتة ولم تدفع بالبشرية شبراً واحداً إلى الأمام!

١٥

من الصعب علي أن أتصور كيف يمكن أن نصل إلى غاية نبيلة

باستخدام وسيلة خسيسة!؟ أن الغاية النبيلة لا تحيا إلا في قلب نبيل : فكيف يمكن لذلك القلب أن يطيق استخدام وسيلة خسيسة؛ بل كيف يهتدي إلى استخدام هذه الوسيلة؟! حين نخوض إلى الشط الممرع بركة من الوحل لا بد أن نصل إلى الشط ملوثين. . ان أوحال الطريق ستترك آثارها على أقدامنا وعلى مواضع هذه الأقدام كذلك الحال حين نستخدم وسيلة خسيسة : ان الدنس سيعلق بأرواحنا، وسيترك آثاره في هذه الأرواح، وفي الغاية التي وصلنا إليها!

ان الوسيلة في حساب الروح جزء من الغاية. ففي عالم الروح لا توجد هذه الفوارق والتقسيمات! الشعور الإنساني وحدة إذا أحس غاية نبيلة فلن يطيق استخدام وسيلة خسيسة. . بل لن يهتدي إلى استخدامها بطبيعته! « الغاية تبرر الوسيلة!؟ »: تلك هي حكمة الغرب الكبرى!! لأن الغرب يحيا بذهنه وفي الذهن يمكن أن توجد التقسيمات والفوارق بين الوسائل والغايات.

١٦

بالتجربة عرفت أنه لا شيء في هذه الحياة يعدل ذلك الفرح الروحي الشفيف الذي نجده عندما نستطيع أن ندخل العزاء أو الرضى، الثقة أو الأمل أو الفرح إلى نفوس الآخرين!

أنها لذة سماوية عجيبة ليست في شيء من هذه الأرض، انها تجاوب العنصر السماوي الخالص في طبيعتنا، انها لا تطلب لها جزاء خارجياً، لأن جزاءها كامن فيها!

هنالك مسألة أخرى يقحمها بعض الناس في هذا المجال، وليست منه في شيء مسألة اعتراف الآخرين بالجميل!

لن أحاول انكار ما في هذا الاعتراف من جمال ذاتي ولا ما فيه من مسرة عظيمة للواهبين ولكن هذا كله شيء آخر أن المسألة هنا مسألة الفرح بأن الخير يجد له صدى ظاهرياً قريباً في نفوس الآخرين وهذا الفرح قيمته من غير تلك لأنه ليس من طبيعة ذلك الفرح الآخر الذي نحسه مجرداً في ذات اللحظة التي نستطيع أن ندخل فيها العزاء أو الرضى الثقة أو الأمل أو الفرح في نفوس الآخرين! أن هذا لهو الفرح النقي الخالص الذي ينبع من نفوسنا ويرتد إليها بدون حاجة إلى أي عناصر خارجية عن ذواتنا أنه يحمل جزاءه كاملاً، لأن جزاءه كامن فيه!

١٧

لم أعد أفزع من الموت حتى لو جاء اللحظة! لقد أخذت في هذه الحياة كثيراً أعني : لقد أعطيت!!

أحياناً تصعب التفرقة بين الأخذ والعطاء لأنهما يعطيان مدلولاً واحداً في عالم الروح! في كل مرة أعطيت لقد أخذت لست أعني أن أحداً قد أعطى لي شيئاً إنما أعني أنني أخذت نفس الذي أعطيت لأن فرحتي بما أعطيت لم تكن أقل من فرحة الذين أخذوا.

لم أعد أفزع من الموت حتى لو جاء اللحظة لقد عملت بقدر ما

كنت مستطيعاً أن أعمل! هناك أشياء كثيرة أود أن أعملها لو مد لي في الحياة ولكن الحسرة لن تأكل قلبي إذا لم أستطع، أن آخرين سوف يقومون بها أنها لن تموت إذا كانت صالحة للبقاء فأنا مطمئن إلى أن العناية التي تلحظ هذا الوجود لن تدع فكرة صالحة تموت . .

لم أعد أفزع من الموت حتى لو جاء اللحظة! لقد حاولت أن أكون خيراً بقدر ما أستطيع أما أخطائي وغلطاتي فأنا نادم عليها! أني أكل أمرها إلى الله وأرجو رحمته وعفوه أما عقابه فلست قلقاً من أجله، فأنا مطمئن إلى أنه عقاب حق وجزاء عدل وقد تعودت أن أحتمل تبعة أعمالي خيراً كانت أو شراً . . فليس يسوءني أن ألقى جزاء ما أخطأت حين يقوم الحساب!

نحو بعث إسلامي

برنامج جديد يطرحه المفكر الهندي
وحيد الدين خان

ترجمة وتقديم
ظفر الإسلام خان

مراجعة
عبد الحليم عويس



وحيد الدين خان
في سطور

● رئيس تحرير « الجمعية الاسبوعية »، أكبر المجلات الاسلامية في الهند، وأوسعها انتشاراً.

● مؤسس مدرسة اسلامية فكرية جديدة، تؤمن (بوجوب مواجهة التحديات التي يواجهها الاسلام والمسلمون بنفس المصطلحات والوسائل والاساليب التي يتسخدمها الاعداء، وبوجوب ايجاد فكر اسلامي عصري متكامل، ونبذ الحزبية تماماً في المرحلة الراهنة، والتركيز على تعليم الشعوب الاسلامية وتصنيع البلاد الاسلامية وتقوية اقتصادياتها كتمهيد لا بد منه لاية نهضة اسلامية ناجحة).

● ترجم له الى العربية « الاسلام يتحدى » الذي أجمع العلماء والناقدون على أنه كان أحسن كتاب اسلامي ظهر في السنوات الأخيرة.

● والمفكر الهندي الكبير يعرض في هذا الكتيب الهام تصوره عن النهضة الاسلامية المرتقبة، بعد دراسة عميقة لظاهرتين في التاريخ الحديث، وهما اليابان واليهود.

مُقـدِّمَة

هذه الرسالة التي توجد الآن بين أيديكم تمثل شيئاً جديداً في روحها ونصها. إنها برنامج فكري موجه إلى أمتنا الإسلامية في كل مكان، هذه الأمة التي اعتبرت الجهاد السياسي كافياً للخروج من الضياع المحقق الذي تسير إليه شعوبنا. إن هذا البرنامج يدلنا بعد دراسة دقيقة لواقع الأمم الناهضة، على أن جهودنا لن تكلل بالنجاح المنشود إلا بإيجاد فكر إسلامي، كأيديولوجية عملاقة مستقلة، وإلا بتعليم الشعوب الإسلامية بحيث تمحى الأمية تماماً بكافة أنواعها، وإلا بتصنيع البلاد الإسلامية حتى تصبح مستقلة الاستقلال الحقيقي في كل الشؤون القومية، والتي أهمها الاقتصاد، وحينئذ فقط سوف ترفع الأمة الإسلامية رأسها شامخاً بعد أن ظل منكوساً لعدة قرون، وسوف تمضي في أداء دورها الطليعي بكفاءة وفخر وثقة وإقدام.

لقد اطلع عدد كبير من الكتاب والمفكرين المسلمين على هذا البرنامج، وقد أجمعوا دون استثناء على تبنيهم له، ونحن لا ننشر أسماءهم أو آراءهم هنا لكي لا نستبق رأيكم. ولكن لا يفوتنا أن نذكر أنهم كلهم يشترطون لإنجاح هذا البرنامج أن ينفذ بصبر وتؤدة. وقد لا تظهر نتائجه إلا بعد نصف قرن، فلنكدح حتى

نموت، لكي تفتح أجيالنا الجديدة عيونها على عالم جديد أيضاً ، ولتتمكن من حمل راية الإسلام، ولتحفظ أمانة الإيمان بجدارة.

ونحن ندعو الصحافة الإسلامية في كل مكان أن تتبنى هذا الاقتراح وتطرحه، كاملا أو ملخصاً له لقرائها، أو على الأقل أن تعلق عليه لأن الغرض من نشر هذا البرنامج هو استطلاع آراء المهتمين بنهضة الإسلام، لأن ذلك سيساعدنا على إعادة النظر أو إضافة آراء ومقترحات جديدة نافعة، ولذلك نضع هنا قائمة للأسئلة نرجو أن يتفضل كل ذي رأي بموافاتنا بإجاباته عليها :

١ ـ ما أوجه الشبه بين هذا البرنامج والبرامج التي طرحت من قبل المصلحين من أمثال الأفغاني؟

٢ ـ ما هو الجديد، من وجهة نظركم، في البرنامج؟

٣ ـ ما هوالجديد الذي ترون إضافته؟

٤ ـ ما هي النقاط التي ترون حذفها؟

٥ ـ كيف تتصورون تنفيذ خطوات البرنامج؟

٦ ـ هل لديكم آراء أخرى حول سبيل نهوض المسلمين؟

٧ ـ ما هي الصعوبات التي تتصورون أنها قد تعترض سبيل تطبيق هذا البرنامج؟

إننا نعلق أهمية كبرى على استجابتكم لنا بالرد على هذه الأسئلة. ونحن على يقين أن مسلمي العالم المعذبين، والذين ضاقوا من ضياع الجهود السياسية لإحياء كلمة الإسلام سوف يتكاتفون ويتآزرون لإنجاز هذا العمل الفكري ، بكل صمت

وهدوء وإيمان، وعلينا ألا ننسى تاريخ الإيمان الطويل على ظهر الأرض، فإن سائر الأنبياء الكرام، ومنهم خاتم الرسل ﷺ، لم يقوموا بحملات سياسية لتحرير وتوحيد شعوبهم، وإنما قاموا ببذل جهود مضنية طويلة المدى لإعداد جيل واع مستعد لحمل أمانة الإيمان.

وصاحب هذا الاقتراح، وهو مفكر وعالم كبير في شبه القارة الهندية [1]، قد أكد غير مرة أنه لا يتوقع من هذا العمل معجزات تحدث بين يوم وليلة، بل هو يعتقد أن باكورة نتائج هذا البرنامج لن تظهر إلا بعد أن تستمر جهود هائلة هادفة مثابرة، وفق خطة مدروسة، وقد يستغرق ذلك نصف قرن من الزمان، وهو يؤكد أنه سيكون غاية في السعادة والطمأنينة القلبية لو ضحى بحياته في سبيل تنفيذ هذا البرنامج الفكري لكي تنعم أجيالنا المقبلة بثمار ونتائج تلك الجهود.

وهناك عدة نقاط أود توضيحها هنا، وهي وإن كانت مفهومة بديهياً لدى صاحب هذا الاقتراح إلا أن عدم ورودها في نص البرنامج أثار بعض التساؤلات مما اقتضى كتابة هذه الملاحظات :

١ ـ لا تناقض بين برنامج « المركز الإسلامي » وبين برامج ومشروعات الهيئات والتنظيمات الإسلامية العديدة في مختلف أنحاء

---

(١) وهو رئيس تحرير مجلة « الجمعية الأسبوعية » كبرى مجلات مسلمي الهند. ومن مؤلفاته المترجمة إلى العربية « الإسلام يتحدى ».

العالم الإسلامي، والتي نقدر نشاطها حق التقدير، رغم شعورنا الشديد أن نمطاً معيناً من العمل « الفكري » يجب البدء به في عالم الإسلام، لأننا تنقصنا مكتبة علمية حديثة تتصدى لتحديات العصر وتقدم الإجابات المقنعة لمشكلات الحضارة الحديثة، وتعطي لجيلنا الجديد شعوراً حقيقاً بوجوده المنفرد بالأصالة، ولكي نتمكن من النهوض برسالتنا على المستوى اللائق والجدير بماضينا اللامع، يجب على هيئاتنا وتنظيماتنا الإسلامية النائمة تحديد مجالات محدودة للعمل، بحيث تتخصص هيئة معينة في نوع معين من الدراسات أو الأعمال، على أن يربط بينها التنسيق والتعاون والتكامل عبر القارات.

٢ - سيسعى المركز الإسلامي، إن شاء الله وبعونه، للتقليل من الخلافات بين المسلمين، خصوصاً بين طائفتي الأمة الكبيرتين : أهل السنة والشيعة، إيماناً منه بوحدة المصير، وحتمية اللقاء والالتحام بسبب الظروف الحالية وفي سبيل مستقبل الإسلام والأمة.

٣ - لن يرتبط هذا المركز بأية ارتباطات مع أي من الأحزاب أو الدول أو الهيئات السياسية، أياً كانت أفكارها وذلك لأن المركز ينهج نهجاً آخر يختلف تماماً عن كل المناهج والطرق التي سلكتها أحزابنا وهيئاتنا السياسية خلال المائة سنة الأخيرة لإنهاض المسلمين، حتى أصبحت عقولنا دائمة التفكير في ضوء المصطلحات السياسية، وأهملنا جانب الفكر والعلم إهمالاً تاماً.

ولا يعني هذا إطلاقاً فصل الدين عن السياسة، لأن ذلك يخالف روح الإسلام في الصميم. ويرى صاحب الأقتراح أنه يجوز للزعيم أو العالم أو المتكلم أن يعطي لعنصر ما أهمية تفوق أهميته الحقيقية، بسبب ظروف طارئة، ويبالغ في إبرازها مبالغة قد تقلل من شأن العناصر الأخرى من الدين. إلا أنه بعد زوال تلك الظروف يجب أن يرجع الحق إلى نصابه. وهكذا فإننا أعطينا أهمية غير عادية للعنصر السياسي في الحياة الإسلامية خلال المائة سنة الماضية، أو أكثر بسبب الاستعمار الأجنبي، والآن بعد طرد المستعمرين كان يجب أن يتحول اهتمامنا الخاص نحو الفكر والتعليم والتصنيع والاقتصاد، لكي تقف دولنا على أقدامها بمعنى الكلمة. لكنه يبدو ـ كما هو حادث فعلاً ـ أن خمر السياسة التي تجرعنا كؤوسها حتى الثمالة في سجن الاستعمار لن تفارق شفاهنا بسهولة.

٤ ـ بينما يطرح هذا المشروع الفكري للعمل الإسلامي توجد أفكار مماثلة في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فمثلاً قرارات مؤتمر الدعوة الإسلامية الذي انعقد في طرابلس الغرب في ديسمبر ١٩٧٠ (بعد نشر هذا البرنامج) جاءت مماثلة بصورة مدهشة لهذا البرنامج، وكذلك يوجد توافق كبير بين هذه المقترحات وبين قرارات المؤتمر الإسلامي الذي عقده المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين في إبريل ١٩٧١.

وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على وحدة المشاعر في جميع

أنحاء العالم الإسلامي - الغني بجميع الثروات البشرية والمادية والفكرية - بعد فترة طويلة من الشعور بالضياع وخيبة الأمل، وهكذا يبدأ عصر جديد في عالم الإسلام - عصر التعمير والبناء والانهاض، ببركة الله وعونه.

٥ - والمركز الإسلامي في تعامله مع الأمة الإسلامية يرجو من كل مهتم بإحياء الأمة الإسلامية أن يتعاون معه حسب ظروفه.. الباحثون علمياً.. والصحافيون دعائياً.. والماليون مادياً، والهيئات الإسلامية بالعمل على نشر هذا النمط من العمل الإسلامي، بإحداث التكامل فيما بينها.

إن أمة الإسلام لم تخل، بعد، من رجال عاهدوا الله وعقدوا العزم على حمل الأمانة، يعملون في صمت، بكل صبر، وبدون كلل، في سبيل هدف واحد، هو إعلاء كلمة الله في الأرض.

برنامج جديد للعمل الاسلامي

المسلمون مغلوبون على أمرهم، في كل مكان، وهم ضحايا الاستغلال في كل بلد.

ما الذي انتهى بالمسلمين إلى هذه الحال المؤلمة؟ وهم الذين يملكون ألمع ماض حضاري، ويشكلون الآن ثاني أغلبية دينية في العالم.

إن ألسنتنا مشغولة بتوجيه التهم إلى الآخرين.

فالمسلمون الهنود يلعنون الأغلبية الهندوسية، والعالم العربي يكيل اللعنات لليهود، والمسلمون الأفارقة يوجهون التهم إلى المسيحيين.

ولكن السؤال الملح هنا : لم حدث هذا؟ لقد حكم المسلمون العالم أكثر من ألف سنة، فكيف وصل بهم الأمر إلى هذا الهوان الذي يعيشونه في عالم اليوم؟ إن الحقيقة الكبرى في كارثتنا هي أن ضعف المسلمين هو المسؤول عن فشلهم وسقوطهم.

إن هذا العالم عالم صراع ومواجهة، ولا معنى للتباكي على الفشل، حيث يوجد الصراع والمواجهة. فالفشل هنا هو النتيجة الحتمية لمن يثبت ضعفه في الصراع. ففي بداية النبوة أصبح العرب والعجم أعداء الدعوة الجديدة، ولكن الإسلام لم يكن ليسقط لمجرد عداوة هؤلاء.

إن استمرارنا في العويل والبكاء يعني أننا بصدد تضييع الفرصة الأخيرة ـ أيضاً ـ التي منحتنا إياها طبيعة العصر الحديث. إن توجيهنا الاتهامات للآخرين يكشف عن أننا لسنا نواجه الفشل فحسب، ولكننا نواجه الحماقة وقلة الحكمة في نفس الوقت.

لن يبدل شيئاً من بؤسنا وقدرنا إلا شيء واحد، وهو أن نعمل لتقوية أنفسنا. فنحن ضعفاء، بحق، أمام الآخرين، ولذلك نحن مغلوبون.

كيف نصبح أقوياء؟ إن القرآن الكريم يجيب على هذا السؤال :

﴿ وأعِدّوا لهم ما استَطَعْتمْ مِن قُوّة، ومِن رباط الخَيْل، ترهِبونَ بهِ عَدُوّ الله وعدوّكم ﴾[1].

إن القوة هي القوة المرهبة. والأمر الإلهي يشمل كل سلاح يتصف بصفة « الإرهاب » وطريقنا كما تحدده هذه الآية الكريمة، أن نحصل على القوة للرهبة، تلك التي يستعيد بها الإسلام مجده وشوكته في هذا العصر.

إن العصر الجديد هو عصر التغيرات، لقد تغير كل شيء في عالم اليوم، حتى مفهوم القوة نفسه قد تغير فلم تعد الخيول والسيوف والرماح رمز القوة، بل انتقلت قوة الخيل إلى ما يسمونه بقوة « الحصان ». لقد أصبح العلم والتكنولوجيا رمزي القوة والتقدم. وفي الماضي كان رجل واحد يحكم، أما الآن فالأمر قد تغير، وتوجد أنماط مختلفة للحكم، تلعب قوى متعددة دوراً هاماً

(١) الأنفال : ٦٠.

في توجيهها. وقد كانت الحكومة أكبر قوة فيما مضى، أما الآن فالصناعة والاقتصاد والتجارة هما أكبر قوة في ضوء المقاييس العالمية.

لقد جاء العصر الحديث بقوى جديدة يمكنها أن تعين شعباً ما، أو طائفة معينة على التحكم، ومن هذه القوى الضاغطة قوة « الصحافة » التي تمثل قوة عظيمة لم يكن لها وجود، البتة، في العصور الماضية.

إن نكستنا الراهنة ترجع إلى تجاهلنا التغيرات التي طرأت على العصر، وإلى عدم امتلاكنا القوى الجديدة التي تمخضت عن هذه التغيرات وعلى سبيل المثال، فإن جميع حركات النهضة التي قامت على امتداد العالم الإسلامي، خلال المائة سنة الماضية لم تهدف إلا إلى هدف واحد ـ هو إنهاء السيطرة الاستعمارية الغربية، والحصول على الاستقلال. وقد أنفقنا في سبيل هذه الغاية ما لا يحصى من الوقت والمال والتضحيات. ولقد توصلنا، تقريباً، إلى هذا الهدف اليوم، ولكن هل يتمتع المسلمون اليوم بنفس المكانة التي تمنّاها مجاهدو الحرية في أحلامهم بالأمس؟ ولا جواب لهذا السؤال إلا بالنفي المطلق.

لقد أزاح مسلمو الهند « نير » الاستعمار الانجليزي، بعد تضحيات منقطعة النظير، وإذا بهم محكومون من جانب الأغلبية، في ظل النظام الجمهوري الحر. وفي كثير من البلدان الافريقية دفع المسلمون ثمن الحرية من دمائهم الساخنة، ولكن غير المسلمين

بتفوقهم العلمي والاقتصادي يحكمونهم اليوم. . وفي صخب شديد ملأ العالم أعلنت بعض البلدان العربية تخلّصها من الاستعمار نهائياً، ولكن سرعان ما وقعت هذه البلدان فريسة استعمار من نوع جديد.

وخلاصة ما أريد أن أقوله هو أن واقع الدول الإسلامية لم يتغير، رغم كل التغيرات، فنحن رغم انتزاعنا الحرية لم نتمتع بها في حقيقة الأمر، والغرب ـ شرقية وغربية ـ لا يزال يحتوي دولنا الإسلامية، بفضل علمه وصناعته المتفوقة، وهو يفعل ما يريد، لدرجة إبقاء حكوماتها أو تغييرها، إن اقتضت مخططاته ذلك.

وهنا نأتي بمثال من معسكر غير معسكرنا، يكشف خطأ برامجنا.

لقد تحطمت اليابان تحطماً كاملاً في الحرب العالمية الثانية، ودكت قنابل الحلفاء معالم ناجازاكي وهيروشيما وطوكيو والمدن اليابانية الأخرى، ثم احتلت الجيوش الأميركية أرض اليابان، وهي لا تزال تحتل جزيرة اوكيناوا، ولا تزال أميركا هي المسؤولة الأساسية عن الدفاع عن اليابان، بناء على المعاهدة التي أبرمت بين الدولتين بعد الحرب.

وبدأت اليابان حياة جديدة بعد الحرب. ولقد كان المزاج الشرقي العادي يقتضي إثارة حملة سياسية ضد الوجود الأميركي، لأن السياسيين عندنا يقولون : « جلاء الأجنبي المستعمر بداية لكل خير وطني ». ولكن اليابان اختارت طريقاً آخر : لقد تجاهلت وجود الاحتلال الأميركي وركزت كل جهدها على بناء

الوطن من جديد وزادت من أهمية التعليم حتى أعطت المدرسين مرتبات الوزراء، ومنحتهم صلاحيات وكلاء النيابة، وكانت النتيجة أن أصبحت اليابان، في عقدين اثنين من الزمن، بلداً من أكثر البلاد تقدماً في التعليم. واليابان لا توجد فيها مناجم الحديد، لكن الشعب الذي قد تعلم لم يعد يضيع قطعة واحدة من حديد شفرة حلاقة أو مسمار مكسور. فكل قطعة حديد تأخذ طريقها نحو المصنع لكي تظهر في صورة جديدة نافعة. وسار البناء قدماً بطريقة منظمة حتى أصبحت المدن المحطمة من أكبر مراكز الصناعة والتجارة في العالم، وتقدمت الصناعة والعلم والتكنولوجيا حتى أصبحت منتجات اليابان تنافس المصنوعات الأميركية في أسواق التجارة الحرة.

واستغلت اليابان نكبة الاحتلال الأمريكي أحسن استغلال كمظلة دفاعية ووجهت كل إمكاناتها نحو تعمير الوطن، وكانت النتيجة أن أصبحت اليابان خلال ربع قرن من أكثر بلدان العالم علماً وتقدماً وقوة في الاقتصاد. وبعد أن تم لها كل هذا بدأت الحوار مع أمريكا. فكانت المطالبة اليابانية تقرير الحق سبق فيه الحكم لصالح اليابان، لأنها استخدمت في ذلك كل قوة وإمكانية أتاحها الزمن والعصر لها ففوجىء العالم في أكتوبر الماضي بوزير خارجية اليابان يزور « اوكيناوا »، لأول مرة، ويعلن أن: « القوات الأمريكية ستجلو قريباً عن أرض اليابان » [١].

(١) كتب هذا الاقتراح قبل توزيع اتفاقية أوكيناوا التي نصت على إنهاء الاحتلال =

إن النموذج الياباني يؤكد معرفة رجالها معرفة كاملة لروح العصر الجديد، بينما نموذجنا يخلو تماماً من تلك المعرفة بروح العصر. وهذا هو السر في أننا لم نحتل بعد مكاننا المناسب على خريطة العالم. لقد أحرزت اليابان في ربع قرن من الجهاد الذاتي المكانة التي نجهد أنفسنا منذ ما يزيد على قرن في سبيلها دون الوصول إلى نتائج.

إن نموذج اليابان وظروفها مماثلة لكل الدول التي توجد فيها أغلبية المسلمين فبينما تمكن اليابانيون من النهوض والوقوف فوق أرض صلبة بتسخيرهم لكل إمكاناتهم المتاحة لهم ذاتياً.. بينما هذا ظللنا نحن عجزة متوكئين على عصا غيرنا، ولم تزد بطولتنا عن أننا أصبحنا مجتمعاً استهلاكياً لكل ما ينتجه الغرب من آلات وأفكار.

والآن نسوق نموذج اليهود ليكون عبرة للمسلمين الذين يعيشون كأقليات في الدول غير الإسلامية.

إن اليهود يشكلون ثلاثة في المائة ـ فقط ـ من تعداد المائتي مليون

= الأميركي للجزيرة وعودتها لليابان (الاهرام في ٢٥ ـ ٦ ـ ١٩٧١) ـ وقد ذكرت الأهرام أن لمسة من عصر الفضاء أضيفت إلى حفل التوقيع حين وقع وليم روجرز الوثيقة في واشنطن. وكيشي ايشي وزير خارجية اليابان في طوكيو، وهما جالسان أمام شاشة التليفزيون. كل منهما يشاهد الآخر أثناء التوقيع وهذا تأكيد للفكرة التي يدور حولها (البرنامج).. كل التأكيد انها الفكرة التي ترى أنه لا بد من امتلاك زمام الحضارة اولا.. ليتحقق بعد ذلك كل شيء).. المراجع

نسمة في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الواضح أنهم بهذه النسبة المئوية لا يستطيعون أن يقيموا لهم حكومة في أمريكا. وهم لذلك لم يشكلوا أية أحزاب سياسية ـ ولكن نفوذهم وتأثيرهم يمسك بعقل أمريكا مثل الكماشة. ولا مبالغة إن قلنا إنه لا توجد أية جوانب في الحياة الأمريكية خارجة عن نفوذ ـ كلي أو جزئي ـ لليهود.

ويكمن السبب في نجاح اليهود أنهم قد اكتشفوا سراً هاماً، وهو أن العصر الجديد قد أتاح لإنسان العصر إمكانات عديدة تؤثر على جميع جوانب الحياة برغم إنها إمكانات غير سياسية. ولم يكن في استطاعة اليهود السيطرة على الحكومة الأمريكية عن طريق السياسة والانتخابات العامة، ولكن الميدان الآخر الذي أتاحه العصر الحديث كان مفتوحاً أمامهم وعن طريقه وحده نجحوا في الحصول على كل ما لا يمكن أن يحصل عليه إلا حزب سياسي يقدر له أن يسيطر على الحكم.

لقد برع اليهود في التجارة حتى أحكموا اقتصادهم، وسيطروا على الصحافة لدرجة ملكيتهم لوكالات صحفية بأكملها ولصحف ومؤسسات نشر كبرى، وهذا على الرغم من سيطرتهم على التليفزيون الأمريكي نفسه. وقد اهتموا ـ كذلك ـ أيما اهتمام بتنشئة الأجيال اليهودية الجديدة في كل مجالات التخصص العصري لدرجة أن الأمريكي حين يبحث عن أحسن مدير

وأحسن مهندس وأحسن أخصائي وأحسن أستاذ وأحسن عالم وأحسن محام فإنه لا يجد أمامه إلا واحداً من اليهود.

وهكذا سيطر اليهود بكفاءتهم وجهدهم المثابر في جميع مجالات الحياة على جميع وجوه النشاط والتأثير. . .

إن اليهود الذين لا يتعدون نسبة ثلاثة في المائة من سكان أمريكا يملكون ثلاثين في المائة من الاقتصاد الأمريكي، بل يملكون بعض الأشياء بنسبة مائة في المائة، وهم يحاولون جهدهم أن يكثروا من تعدادهم، حتى أنهم ينجحون في جذب نحو ثلاثة آلاف أمريكي إلى دينهم كل سنة. . بسبب التبشير الذي يعتبر ظاهرة جديدة ـ في ذاته ـ عند اليهود الذين عرفوا ـ على مدار التاريخ ـ بالانغلاق على أنفسهم.

لقد تخلّف المسلمون في كل مكان لأنهم أخطأوا في تفهم طبيعة العصر، ولم يهيئوا أنفسهم طبقاً لما تتطلبه روح العصر الجديدة هذه من انفساح. . ومنذ قرن كامل وثمة ضجة تثار في أرجاء العالم الإسلامي حول ما يسمونه بإحياء الإسلام، لكن الصخب الشديد قد انتهى بنا إلى حيث نحن الآن ملقون في غار الذل والعار، ومما يزيد من عمق تعاستنا أن كل هذا الفشل لم يؤد إلى خلق شعور لدى المسلمين وإعادة الفكر فيما يجب عمله وفي الأسلوب الذي يجب اتباعه. وكل الشعارات والنعرات التي ثبت فشلها النهائي ـ بحكم شهادة التاريخ ـ لا زلنا نسمعها من حين لآخر في كلمة جديدة أو ثوب جديد.

وفي الهند (على سبيل المثال) لا يعرف الزعماء السطحيون إلا السعي لإحياء ما يسمى « بالسياسة الإسلامية » تلك التي أخفقت من قبل في صورة « الرابطة الإسلامية » وبرغم أن اللعب بمثل هذه الشعارات (في مثل عصرنا) لا يعدو أن يكون نوعاً من الانتحار الأحمق.

وفي البلاد الإسلامية المستقلة توجد آلاف الأعمال التي يعتبر النهوض بها هو الرقي بالشعب والارتفاع إلى مستوى القوة العصرية المطلوبة، ولكن حال هذه الأعمال يرثى له فإن جيوش هذه البلاد مشغولة بفتح بلدانها هي، وما يمضي يوم إلا ونسمع في هذه البلاد عن محاولة جرت من جانب الجيش للاستيلاء على السلطة وتنتهي المحاولة (سلباً أو إيجاباً) بإراقة دماء مئات من الشخصيات التي كان يجب ادخارها لتعمير الأمة وبناء الوطن.

وهناك إمكانات مدهشة لنشر الدعوة الإسلامية وتوسيع رقعة العالم الإسلامي، وباستغلال هذه الإمكانات، الجديدة من نوعها في التاريخ، يمكننا دفع عجلة الإسلام إلى الأمام في نجاح لا يمكن تخيل أبعاده الآن، لكن هذا الميدان الحساس للعمل الإسلامي لا يزال غير مطروق على الإطلاق.

وهذه الإمكانات التي سلف ذكرها تقتضي إحياء كفاح جديد في عالم الإسلام لنعطي لأجيالنا الجديدة الشعور الحقيقي بمعنى وجودهم: من هم؟ وفي أي عصر يعيشون؟ وماذا يجب أن يفعلوا حتى يحتلوا مكانتهم اللائقة بهم في عالم اليوم؟

إن أهم سؤال يجب أن نطرحه فيما يتعلق ببدء هذا الكفاح هو: في أي مكان نبدأ بهذا العمل. ولو تمكنا من تحديد المكان الأنسب لهذا العمل فإننا نستطيع الحصول على أروع النتائج في مدة قليلة، وعلى عكس ذلك لو بدأ هذا العمل في مكان غير مناسب فلا جدوى منه ولو بعد مضي مائة عام.

عندما بدأت اليابان إحياء مجدها توجهت إلى المدرسين في المدن وأعطتهم مرتبات الوزراء وصلاحيات وكلاء النيابة، وعندما أرادت الأقلية اليهودية خلق مكان لها في الولايات المتحدة الأمريكية فتحت مراكز التوعية للأطفال اليهود التي علمتهم كيف يتلافون نقصهم العددي عن طريق المثابرة والامتياز في العلم والعمل. ولكن حين أصابنا داء الانحطاط في القرون الماضية بدأنا كفاحنا بإثارة العويل السياسي ضد الملوك والمستعمرين الأجانب. والنتائج تقول لنا إن ما جنيناه في قرن كامل لا يساوي شيئاً بالنسبة لما جناه اليابانيون في ربع قرن.

والآن يقف اليابانيون واليهود الذين كانوا ضحايا الأمس موقف المتحدي لقوى العصر، وليس ثمة من يمكنه منعه من هذا التحدي.

إننا لن نكرر الآن خطأ الماضي بأن نبدأ في بناء المنزل من أدواره العليا، لأننا لن نجني من وراء ذلك البناء، القائم بدون أساس، إلا ضياع الجهد والوقت.

إننا هذه المرة سنبدأ في بناء الأساس قبل كل شيء، لأن هذه

التاريخ والحضارة الإسلامية في مختلف المراحل. . وكذلك سيضم المعرض آثاراً إسلامية، ويكون من شأن هذا المعرض إعداد وعرض أفلام عن الإسلام.

٩ ـ ينهج المركز نهجاً يؤدي إلى توعية المسلمين وإيقاظهم من سباتهم المميت، تمهيداً لانطلاقهم في ميداني التعليم والاقتصاد اللذين يعتبران بحق مفتاح العصر الحديث.

وسيكون من شأن هذا القسم إنشاء صندوق لتعليم الممتازين من الطلاب المسلمين، وكذلك إنشاء وكالة أنباء إسلامية دولية يكون عملها ربط جهود المسلمين عبر القارات، وإرشادهم في نواحي الاقتصاد بصفة خاصة، ولإثارة مشاكلهم وقضاياهم وأخبارهم بصفة دائمة.

١٠ ـ إنشاء مكتبة وقاعة درس ومحاضرات داخل المركز، ويكون من شأن هذا القسم التسهيل على طالبي البحث، والإمداد بالمعلومات عن الشؤون الإسلامية، ودعوة مفكري العالم الإسلامي وغيرهم لإلقاء المحاضرات والندوات الثقافية.

* * *

إنه لمن الواضح أن اقتراح « المركز الإسلامي الدولي » سيبدو للكثيرين حلماً وخيالاً لأنه لا يمكن إنشاؤه على النحو المطلوب إلا بوسائل اقتصادية ضخمة، ونحن نعلم جيداً مدى اهتمام أمتنا بالمشروعات الإسلامية الجادة.

ولكن على الرغم من كل الظلام الحالك فإن هناك بصيص نور، هو أنني مقتنع من الوجهتين الشرعية والعقلية بأنه لا شيء يجدي لإحياء الإسلام - في الظروف المتاحة الآن - ولإعطاء المسلمين دورهم المناسب، إلا بدء مشروع فكري من هذا النوع.

وإنني لا أشك في أن عناية الله تعالى تستطيع أن تفتح قلوب بعض المسلمين حتى تتاح الفرصة والوسائل اللازمة لبدء هذا العمل الهام الذي لا بد منه. وما ذلك على الله بعزيز.

لقد أتاح الله وسائل عظيمة للدول الإسلامية التي تمثل جزءاً هاماً من جغرافية العالم وتمتلك قدراً عظيماً من الطاقة البشرية، وتجود أراضيها بالذهب السيال، وهي مع كل ذلك وارثة تاريخ وحضارة مجيدين يقومان على الدوام بإعطاء الحرارة لأجيالها الجديدة، ولكنها أصبحت اليوم بدون مكانة على خريطة الأرض، لأن الإمكانات التي أتيحت لها لم تستغل كما يجب حتى يجعل منها واقعاً يفرض وجوده.

فالمسلمون في مؤخرة شعوب العالم في التعليم والاقتصاد، وحالتهم في الصحافة يرثى لها لأنهم مضطرون لاستقاء الأنباء من نفس الوكالات الصحفية التي يديرها أعداؤهم. وأسواقهم تغمرها سلع أنتجتها مصانع الأعداء. وتحكم الأعداء فيهم قويٌ جداً لدرجة أنهم لو امتنعوا عن إعطائنا الأسلحة لتحولت الجيوش المسلمة إلى جيوش بلا سلاح، ذلك أن دولنا الإسلامية تستهلك الأسلحة ولكنها لا تنتجها. والمسلمون دينهم دين التبليغ

والدعوة، ولكن الأديان الأخرى وحدها هي التي تهيء لمبشريها الطائرات حتى ينشروها بسرعة العصر، وبمجرد التفكير في أن يمتلك دعاة الإسلام الطائرات نوع من الخرافة.

والعجيب أن الآخرين يرتادون القمر، بينما نحن لم نجهز لنا مكاناً مناسباً على الأرض بعد.

كان الحاكم الانجليزي للهند « اللورد كيرزون » سكرتيراً عاماً لعصبة الأمم في يوم من الأيام. وكان « عصمت إينونو » يمثل تركيا لدى عصبة الأمم حينئذ. وذات مرة ذهب إينونو لمقابلة اللورد كيرزون. وترك اللورد المندوب التركي ينتظر في استراحة مكتبه دون أن يستقبله لمدة خمس عشرة دقيقة، وعند اللقاء مد اللورد يده ليصافح عصمت إينونو الذي رفض أن يصافحه، ولم يجلس على الكرسي الذي أشار إليه اللورد بالجلوس عليه، وإنما قال للاستعماري الانجليزي :

« عندما كان أجدادك يتخذون من قشر الأشجار وجلود الحيوانات لباساً لهم، كان أجدادي يؤلفون كتباً في الفلسفة والعلم »!

حقاً، ما أنصع ما نملكه من تاريخ وحضارة وتراث عريق. وهذا التراث ينادينا اليوم. ولو استطعنا أن نستجيب لندائه لأصبح حالياً اليوم مثل ماضينا المضيء..

والتاريخ مستعد لإعادة صفحاته ـ بشرط واحد وهو أن نكون مستعدين اليوم لإعادة ما سجله تاريخنا المجيد بالأمس..

الفهرس